مايك غرينبرغ

لماذا تعتقد زوجتي أنني أحمق؟!!

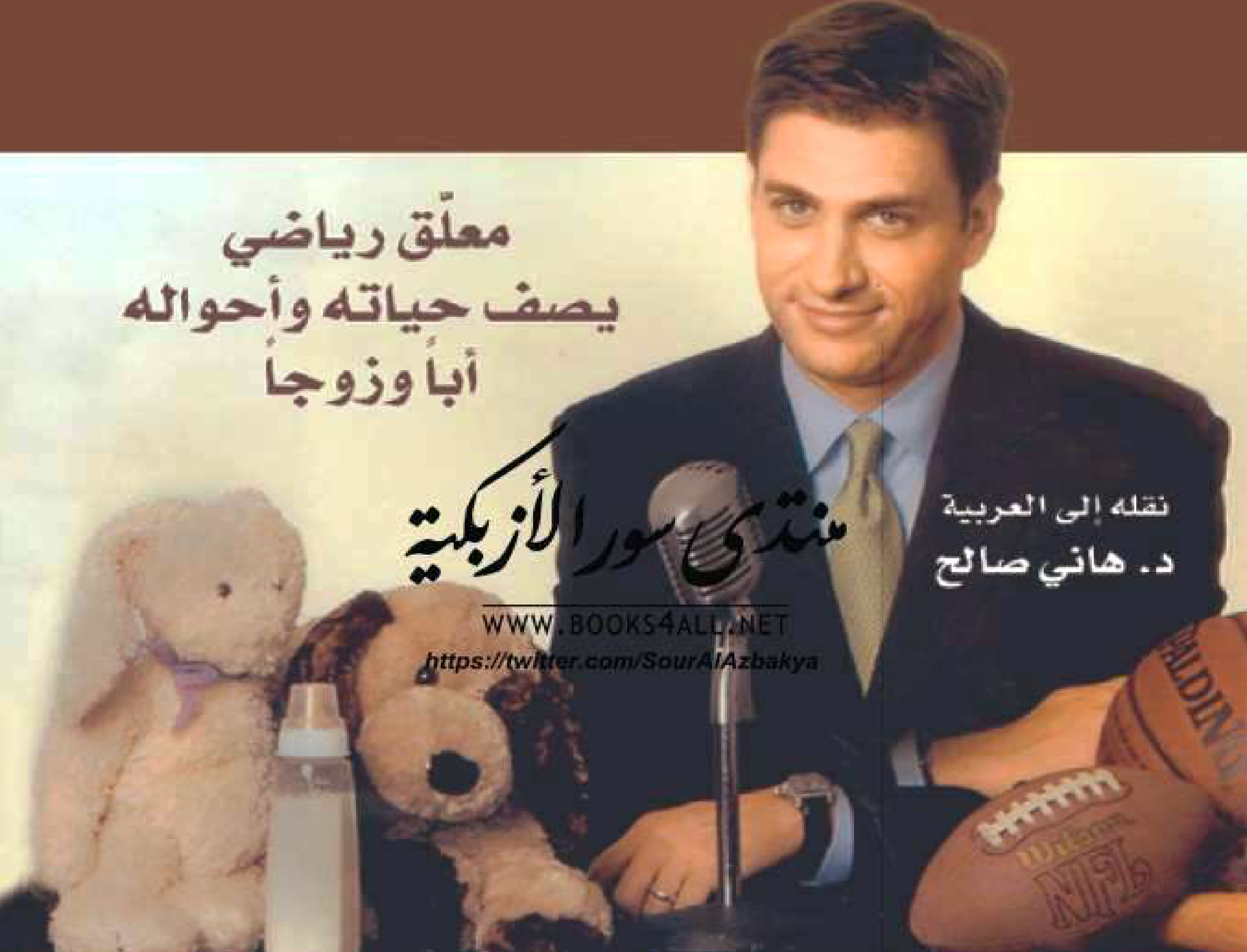

معلّق رياضي
يصف حياته وأحواله
أباً وزوجاً

نقله إلى العربية
د. هاني صالح

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://twitter.com/SourAlAzbakya

العبيكان
Obeikan

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

https://twitter.com/SourAlAzbakya

https://www.facebook.com/books4all.net

منتدى سور الأزبكية
www.books4all.net

لماذا تعتقد زوجتي أنني أحمق؟!!

معلّق رياضي يصف حياته وأحواله أباً وزوجاً

مايك غرينبرغ

نقله إلى العربية

الدكتور هاني صالح

العبيكان
Obeikan

Original Title

Why My Wife Think's I'm an IDIOT
The Life and times of a Sportscaster Dad

MIKE GREENBERG

Copyright © 2006 by Mike Greenberg

ISBN 1-4000-6438-4

All rights reserved. Authorized translation from the English language edition

Published by Villard Books, an imprint of The Random House Publishing Group, a division of Random House, Inc., New York (U.S.A.)

حقوق الطبعة العربية محفوظة للعبيكان بالتعاقد مع فيلرد بوكس - نيويورك- الولايات المتحدة الأمريكية.

© Obeikan العبيكان 2007 _ 1428

ISBN 0 - 483 - 54 - 9960 -978

الناشر العبيكان Obeikan للنشر

المملكة العربية السعودية - شارع العليا العام - جنوب برج المملكة - عمارة الموسى للمكاتب

هاتف: 2937574 / 2937581، فاكس: 2937588 ص. ب: 67622 الرياض 11517

الطبعة العربية الأولى 1429هـ ـ 2008م

ح مكتبة العبيكان، 1428هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

غرينبرغ، مايك

لماذا تعتقد زوجتي أنني أحمق. / مايك غرينبرغ؛ هاني صالح. - الرياض 1429هـ

336 ص؛ 14× 21 سم

ردمك: 0- 483- 54 - 9960 - 978

1 - الترجمة الذاتية 2 ـ العلاقات الزوجية

أ. الصالح، هاني (مترجم) ب. العنوان

ديوي: 301.27 2277/ 1429

رقم الإيداع: 2277/ 1429

ردمك: 0- 483- 54 - 9960 - 978

امتياز التوزيع شركة مكتبة العبيكان Obeikan

المملكة العربية السعودية - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع شارع العروبة

هاتف: 4160018 / 4654424 - فاكس: 4650129 ص. ب: 62807 الرياض 11595

جميع الحقوق محفوظة للناشر. ولا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو نقله في أي شكل أو واسطة، سواء أكانت إلكترونية أو ميكانيكية، بما في ذلك التصوير بالنسخ «فوتوكوبي»، أو التسجيل، أو التخزين والاسترجاع، دون إذن خطي من الناشر.

بسم الله الرحمن الرحيم

أهدي هذا الكتاب إلى **نيكي وستيفن**، فهما مصدر إلهامي

وأهديه أيضاً إلى **ستيسي** التي عاشت هذه التجربة معي، ومازلت

أرى وجهها في كل مرة أغمض فيها عيني.

يجب ألّا تفقد الأمل أبداً.

ـ جون إيرفينغ

رويداً رويداً وشيئاً فشيئاً ولبنةً لبنة يمكننا تعزيز الأمل فينا.

ـ ذا ويغلز

الفهرس

اعترافات معلق رياضي متقمص شخصية دون جوان

في مدينة كبرى ١١

الجولة الأولى في السوبر ماركت ١٧

الجولة الثانية إلى السوبر ماركت ١١٧

الجولة الثالثة إلى السوبر ماركت ٢١٣

الفصل الأخير بعد السوبر ماركت ٣٠٧

رسالة شكر ٣١٧

معلّـق ريـاضـي

اعترافات معلق رياضي متقمص شخصية دون جوان في مدينة كبرى

إنني شخص يهتم بمظهره الخارجي كثيراً، فأنا أحب استخدام العطور من أنواع برادا وغوتشيه، وأحب إجراء جلسات لتدليك وجهي وتقليم أظافري، كما أقوم بتقشير وجهي وترطيبه، وأعرف اللون الرائج لهذا الموسم، وأعلم تماماً أنكم لا تقومون بثني بنطال المخمل المضلَّع أو مزج المقلَّم مع المنقط، إني أقصُّ شعري لدى مصفف شعر وليس عند حلاق، وتتجاوز فاتورة تنظيف ملابسي الناتج الوطني الإجمالي لعدة بلدان صغيرة.

ربما ستقولون: إنني مثال الرجل الذي يهتم بمظهره الخارجي، إلا أنني لست كذلك فقط، فأنا معلق رياضي محترف أيضاً.

أقوم بتغطية المباريات الرياضية منذ ستة عشر عاماً، حيث شاركت في تغطية البطولات التي شاركت فيها الفرق التي لعب مايكل جوردان لصالحها، وأجريت مقابلات مع وين غريتزكي ومع روجر كليمنس و جو مونتانا، وشاركت أيضاً في تغطية مباريات الـ سوبر بولز ـ وهي مباريات لكرة القدم تجري سنوياً لتحديد أفضل الفرق في أميركا ـ و وورلد سيريز وهي المباريات النهائية التي تجري سنوياً لتحديد أفضل الفرق في البيسبول ـ و أوول ستار غيمز ـ وهي مباريات تجمع العديد من النجوم ـ و فاينال فورز ـ وهي مباريات تجمع أربع فرق في المباريات الختامية.

وأعرف عن كرة القدم أكثر مما يعرفه أي سائق شاحنة، كما أعرف عن كرة السلة أكثر مما يعرفه أي لاعبٍ هاوٍ. لقد كبرت وترعرعت على حب جو ناماث و والت فريزر ـ وهما من أوائل الرياضيين المهتمين بمظهرهم ـ أما الآن فقد أصبح هناك العديد منهم، إلا أنني أعدّ نفسي سابقةً بين المعلقين الرياضيين، وذلك لكوني أهتم بمظهري الخارجي كثيراً.

أعرف كثيراً عن هرمز وعن رياضة الهوكي، وأحب كرة القدم وشرائح اللحم المصنوع من كبد البط، وأنا معجب جداً بربطات العنق من ماركة زيغنا كإعجابي بكرة البيسبول، وأستطيع إخباركم بالشراب الذي أتناوله، كما أستطيع إخباركم بعدد النقاط التي أحرزها كوب برايانت ، وأحب الإحساس الذي يبعثه القماش الصوفي الناعم، كما أحب الروائح المنبعثة من الإستادات الأمريكية. وبالنسبة لطعامي المفضل في شيكاغو فهو شرائح اللحم في مطاعم غيبسون والسجق في مطاعم ريغلي، وأحترم تألق تبسي جونسون واستعراض ماجيك جونسون، كما أنني معجب جداً بـ رالف لورين ورالف سامبسوز وأعرف سلفادور فيراغامو و فينس فيراغامو وروميو كافالي و روبرتو كليمنت و نيكول ميلر، و أعرف أن كريستيان لاكروا هو مصمم أزياء من باريس وليس عضواً في حزبٍ يميني من مدينة موس جو في مقاطعة ساسكتشوان الكندية.

هـذا مظهـري لا شخصيتـي، فأنا مثلكم تمامـاً، شخصـ لديه عائلة والكثـير مـن المسؤوليـات، والكثير من القلـق، ووضعي مقدمـاً لواحد من أفضل البرامج الرياضيـة الحوارية الصباحية في أمريكا لا يبدد قلقي بل على العكس يشكل سبباً في وجوده، إن استماع ملايين الناس إليّ كل يوم لا يعنـي أن حياتي سهلة، وأن الناس يعاملونني بشكلٍ مختلفٍ عنكم، حتى لو فرضنا جدلاً أنهم يعاملونكم كحمقى، فلا فائدة منهم.

تلك هي النقطة الأساسية، فنحن متشابهون على الغالب، إذ إننا نعمل كثيراً، ونضحك بصوتٍ مرتفع، وننام قليلاً، ونأكل كثيراً، ونفعل ما بوسعنا لجعل حياتنا متوازنة، إذ ننتقل بسرعةٍ من اللقاءات؛ لنشق طريقنا إلى مباريات كرة القدم، ونسافر ليلاً لحضور حصص الموسيقى يوم السبت،

ونخضع لجلسات معالجةٍ لآلام الظهر كلما كبرنا قليلاً، وأحياناً نشعر أن الحياة كالقطار الذي نحاول اللحاق به، إلا أن ذلك القطار قد يفوتنا في بعض الأحيان.

لقد راودني هذا الشعور ثلاث مرات أحسست خلالها أن حياتي في خطر، فعلى الرغم من كل النعم التي أتمتع بها لم أتمكن من الخلاص من شعوري بالهلاك الوشيك، وفي كل مرة يراودني فيها هذا الشعور كنت ألجأ إلى طبيبٍ نفسي؛ طلباً للمساعدة. (كنت أقوم بذلك وأنا في أفضل حالاتي، ومن الجدير بالذكر أنني، ومن خلال تجربتي، وجدت المعالجة النفسية أكثر متعة عندما نكون في حال جيدة)، لقد اقترحت عليّ الدكتورة غري كتابة يومياتي كلما شعرت بالهيجان النفسي ونصحتني بكتابة ما أشعر به بشكل يومي أو كلما استطعت ذلك، والغاية من هذا كله هو فهم المشاعر والأحاسيس.

لقد خاطبتني قائلة: «مايكل، إن اطلاعك على الطريقة التي تعبر فيها عن مشاعرك ستجعلك تفهمها بطريقة لم تتصورها من قبل».

وهكذا، فإن ما سيرد لاحقاً في هذا الكتاب هو مقتطفات مأخوذة من مذكراتي التي كتبتها من مقعدي في الصف الأمامي من هذه الأوبرا المهيبة التي تدعى الحياة، ومع مرور الوقت، أصبحت أشعر بعدم الحاجة لكتابتها، إلا أنني أقوم بذلك؛ لأن طبيبتي أخبرتني أن ذلك سيساعدني في أن أصبح أباً أفضل وزوجاً أفضل ومعلقاً رياضياً أكفأ ورجلاً أميز.

يا إلهي، أتمنى أن تكون الطبيبة على حق.

الجولة الأولى

في السوبر ماركت

حزيران 1999 ـ شباط 2000

شهور الحمل الأولى: الرفض

يجب أن أعترف أن أول فكرة راودتني هي أن الأداء التمثيلي لـ ريكي ريكاردو كان مبتذلاً، وقد صعقني ذلك كثيراً؛ لأنني أحب ريكي، فالملابس التي ارتداها في مدة الخمسينيات تعد عصرية حتى يومنا هذا، والطريقة التي كان يدخن بها جعلت من التدخين أمراً مستحباً مما دفعني للقيام بذلك. كان ريكاردو بالنسبة لي من أروع الشخصيات التي ظهرت في تاريخ التلفاز.

للأسف، لقد نمَّ تصرف ريكي عن غباء واضح. سأخبركم كيف عرفت، هل تتذكرون الحلقة التي قامت فيها لوسي بإخبار ريكي بأنها حامل؟ لقد فعلت ذلك بشكل غير مباشر، وجعلته يكتشف الأمر أمام جمهوره في مقهى تروبيكانا، عندها أخذ يغني (سنرزق طفلاً، طفلي وأنا) محاولاً بذلك الحفاظ على أداء تمثيلي مناسب. هل تتذكرون كيف مرَّ بجوارها بهدوء دون إظهار أي ردة فعل متوقعة على هذا النبأ؟ ما الذي يجب علينا أن نفهمه من ذلك؟ هل ظهرت مريم العذراء من جديد؟ ألم يلجأ ريكي لاختراق الحاجز بين هذين السريرين المنفصلين؟ هل يستحق الأمر كل هذه الدهشة؟

هذا هو الحال في أيام الخمسينيات، وكم أتوق لو تم إفساح المجال أمامهم للتعبير عن الأمور الجنسية دون أن يتم انتقادهم، ولكنني أعتقد أن مراقبي البرامج في أيام جوزيف ماكارثي ربما كانوا سيصعقون لو قالت لوسي: «عليَّ التوقف عن تناول حبوب منع الحمل هذا الأسبوع، ففي المرَّة الماضية تأخرت عادتي الشهرية ثلاثة أشهر».

لكن هل كان عليهم الاستخفاف بنا لهذه الدرجة؟

ربما كان ما فعلوه هو الطريقة المثلى، إذ لم أكن مضطراً حينها لسماع لوسي تخبر ريكي أنها في مدة إباضة أو تخبر إثيل أن لديها توسعاً بمقدار ثلاثة سنتيمترات وأن نسبة الضرر بلغت لديها عشرين بالمئة، وكذلك لم آسف على عدم رؤية لوسيل بول وهي على كرسي الولادة، أو مستلقية على السرير وهي ممتعضة؛ لأنها نزفت كثيراً ولا يرغب الأطباء في خياطة عنق رحمها. ربما كان العالم أكثر مثالية لو حُرِمْنا من رؤية كل تلك الأمور على الشاشة ولكن ألم يكن على ريكي أن يعرف ولو بشكل أولي أن لوسي قد تحمل؟

المغزى من ذلك كله أن زوجتي أخبرتني اليوم أننا سنرزق طفلاً ، ولكنني على العكس من ريكي لم أصدم بالخبر، لاسيما بعد أن قمنا بإيقاف تناول حبوب منع الحمل منذ ثلاثة أشهر، وزرنا ثلاثة أطباء نسائيين وحددنا بدقة الموعد الأمثل للإباضة، وأصبحنا نستخدم ميزان الحرارة بشكل غير مسبوق، ونقوم بممارسة الجنس حتى لو كنت غير راغب في ذلك، هذه سابقة، وأنفقنا مئات الدولارات على الكتب المختلفة، بدءاً من الكتب المتعلقة بنصائح الحميات الغذائية الخاصة بالحامل وانتهاءً بتلك المتعلقة بفوائد التواصل مع الجنين. وكأي شيء آخر في حياتي، قمت بدراسة دقيقة للميزانية التي سيتطلبها الأمر وخططت له على الحاسوب ووضعت له الجداول اللازمة وناقشت ذلك عن طريق البريد الإلكتروني، وقمت بجدولته في برنامج (Black Berry) الخاص بي، لذلك لم تكن زوجتي مضطرة للمراوغة ولم تكن هناك فائدة ترجى من التظاهر بالدهشة، لقد كان ذلك اليوم يوم الحقائق.

سنرزق طفلاً. طفلي وأنا.

إن أول شيء تعلمته من هذه التجربة هو أن دوري في كل هذه العملية سخيف وتافه، وقد أظهرت طبيبة زوجتي ذلك بشكلٍ واضح وجلي عندما اقترفت ذلك الخطأ الفادح بالحضور مع زوجتي، لقد اكتشفت أن دوري يقتصر على التخصيب،كما اقتصرت إجابة الطبيبة على كل أسئلتي بعبارة: لا يهم.

هل عليَّ الممارسة أكثر؟

هل عليَّ الإقلاع عن التدخين؟

هل عليَّ النوم أكثر؟

هل عليَّ القيام بأي شيء فيما يتعلق بغذائي؟

لا يهم.

ولكن كان لدى الطبيبة الكثير كي تقوله لزوجتي، وبصراحة كانت اللغة التي استخدمتها سخيفة. فهل يفترض بي أن أعرف ماذا تعني كلمة رحم؟ أقصد هل على الجميع معرفة ذلك؟

يبدو أن زوجتي تعتقد ذلك؟

فقد سألتني: «يا للعجب! كيف لا تعرف ماذا تعني كلمة رحم؟».

فأجبت: «حسناً ليس لدي واحد كي أعرف».

«ليس لديك قمر صناعي أيضاً ولكنك تعرف ما هو».

فسألتها: «هل تعرفين ماذا تعني علبة السرعة؟».

«كلا».

فقلت لها: «حسناً، هل عرفت الآن أنني لا أسخر منك».

«لا أستطيع أن أصدق أنك تقارن علبة السرعة مع رحمي».

أدركت عندها أن هذا الحوار لن ينتهي على خير.

فسألت: «حسناً، هل يريد أحد أن يخبرني ما هو الرحم؟».

ودون أي ارتباك منها، قامت الطبيبة بسحب صورة ملفوفة للجزء الأمامي من امرأة عارية يظهر تجويفها البطني بوضوح، وندمت فوراً لعدم إسهابي في الحديث عن علبة السرعة. وعندما أنهت كلامها، شعرت بالحاجة إلى كأس من الشراب.

تلك كانت الطريقة التي بدأنا فيها عملية التخصيب المروعة والتي يجدر بي القول: إنها لا تشبه على الإطلاق المعاشرة الجنسية الطبيعية. وكما يقول توم لنفسه في مغامرات توم سوير: «يتكون العمل من كل ما هو مفروض على الجسم أن يفعله... وتتكون المغازلة من كل ما هو غير مفروض على الجسم أن يفعله». لقد شعرت بالصدمة من السرعة التي أصبح فيها الجنس يبدو كالعمل، وذلك عندما تحوَّل إلى شيء مفروض على جسدي القيام به.

«دعينا نفعل ذلك الآن يا عزيزتي، سيبدأ برنامج (ساينفلد) بعد ثماني دقائق».

لقد نطقت تلك الكلمات فعلاً، وإنني أتساءل: ما الذي حصل لي؟

على الرغم من ذلك كله، ومن الناحية الإيجابية للموضوع سأقول الآتي: «تمنح المعاشرة الجنسية الراحة والحرية طالما أن الغاية الوحيدة منها هي إنهاء ذلك بأسرع وقت ممكن مما يؤدي إلى تخفيف الشعور بالضغط، وجلُّ ما تريده زوجتي هو أن يتم الأمر وبعدها تستلقي على ظهرها وترفع قدميها إلى الأعلى، وستكون سعيدة مثلكم في حال انتهاء ذلك في الوقت المناسب للعودة إلى برنامج (ساينفلد).

وأخيراً تحقق لنا ذلك بعد ثلاثة أشهر مضت، وسأصف شعور زوجتي المبالغ به على أنه راحة وطمأنينة، لقد عانت الكثيرات من صديقاتها صعوبات في عملية الحمل، ولذلك تتصرف زوجتي وكأن العائق الصعب قد زال من أمامنا. أما بالنسبة لي وعلى الرغم من ذلك كله، أشعر وكأنني أقف على حافة جرف صخري كبير ولا أستطيع معرفة ما الذي ينتظرني كلما فكرت بذلك، كما لا توجد أي بوادر للنشاط أو البهجة أو الفرح، فكل ما أشعر به هو إحساس ثقيل بالرهبة. سنرى كيف سيتبدّل ذلك كله هذا إذا تبدّل مع مرور الوقت.

لقد نصحتني الدكتورة غري بالمواظبة على كتابة مذكراتي في أثناء مدة حمل زوجتي، وقد عكفت على فعل ذلك بجديّة على الرغم من الشكوك التي ساورتني حول الفائدة المرجوة من ذلك، ولكن حتى لو كانت بلا فائدة فإني أعتقد أنها قد تصلح للمطالعة المسلية ذات يوم.

ملاحظة أوجهها لنفسي: (احرص على كتابة رسالة لطفلك المنتظر عندما يحين الوقت المناسب لذلك) قد تبدو هذه الفكرة بالية قليلاً، ولكنني أجدها مجدية، فربما أقوم ذات يوم بقراءتها في حفل زفافه، فيبكي الجميع من روعتها. (احرص على كتابتها بشكل مؤثر).

عدت للتو من زيارة قمت بها للطبيبة غري التي تملك قدرة عجيبة على رفع المعنويات، على الرغم من قولها لي: إن قدري هو أن أحيا بائساً إلى الأبد.

قالت لي: «ما عليك قبوله وتفهمه هو أن الجميع لديه أولوياته الخاصة في الحياة، وتلك الأولويات هي التي تحدد هويتنا، وأولوياتك على وشك أن تتبدل».

فسألتها: «وماذا إذا لم تتبدل؟ فأنا الشخص الأكثر أنانية على وجه الأرض. وماذا لو بقيتُ هكذا حتى بعد ولادة طفلي؟».

فقالت: «إن الأمور لا تسير على هذا النحو يا مايكل، على الأقل بالنسبة لنا نحن الذين نحب أولادنا ونفضلهم على أنفسنا».

«هنا تكمن المشكلة، فأحياناً لا نضع الأمور المهمة فعلاً في مقدمة أولوياتنا، وأنا أدرك ذلك جيداً، ولكنني أتحدث عن الرياضة بصفتها مصدراً لكسب الرزق.

«آه، أجل، الألعاب التي تستمتع بها كثيراً».

«إنني أستمتع بها فعلاً، ولكن الأمر يتعدى ذلك».

«كيف؟ ».

فكرت قليلا، ثم أجبت: «لا أعرف».

«فكر بذلك، فإذا استطعت إخباري عن سبب عشقك للرياضة، فستكون قد أجبتنا على أسئلة كثيرة أيضاً».

حسناً، لقد بقيت طوال اليوم، وأنا أفكر بالأمر.

أحـب حقيقـة أنَّ أبـي الرجل الـذي نشأ معدمـاً في أثناء مـدة الركود الاقتصـادي يشـير إلى خسـارة الأمريكيـين في دورة (World Series) ويعدهـا أسـوأ لحظة في طفولتـه، وأحب تصرفـه بعد أن أصبـح محامياً ناجحـاً وألف كتابـاً فأهداه إلى أبطاله بمن فيهم جـو ديماجيو وكلارنس دارو و وليام أو دوغلاس.

وأحب حقيقة أنَّ أمي التي ترعرعت بالقرب من الإستاد الأمريكي هي أيضاً مشجعة رياضية متحمسة تفضل مشاهدة المباريات وحدها؛ لأن الكلام يشتت انتباهها، وأنها كانت مستعدة لتترك أبي؛ كي ترى جوناماث المصاب بنوبة قلبية، وأن أبي كان سيقدّر لها ذلك.

وأحب أنَّ أخي الصغير(كأي أخ أصغر) يكره دائماً ما أحب اختار تشجيع فريق دلافين ميامي الذي أعده العدو اللدود لفريقي المحبب نسور نيويورك. وأحب منه أنه ـ وبعد ثلاثين سنة ـ ما زال يسافر إلى ميامي في كل مرة يلعب فيها فريق الدلافين مباراة كبيرة.

وأحب من زوجتي التي نشأت دون أن تلعب الرياضة أي دور في حياتها قيامها بمشاهدة المباريات معي وأحياناً تضع مجلتها جانباً، وأقدر إدراكها لأهمية المحاولة على الأقل.

وأحب الإحساس الذي شعرت به عندما غطيت لأول مرة مباريات الـ سوبر بولز في كانون الثاني/1993/ في كاليفورنيا. لقد كان فريق البيلز يلعب مع فريق كاو بويز وأنشد غارث بروكس النشيد الوطني، أتذكر تماماً الأفكار التي راودتني عن المباريات التي شاهدتها عندما كنت طفلاً، وكيف

لو قام أحدهم بإخبار هذا الطفل أنه سيغطي مباريات سوبر بولز ذات يوم، فستكون إجابته: «سأكون أسعد شخص في هذا العالم». وبعد ذلك حلّقت طائرات البحرية الأميركية عالياً وبتشكيلات منتظمة لتغيب عن الأنظار كالشمس التي تغيب فوق الجبال في الأفق البعيد. لقد كان ذلك الملعب أكثر الأماكن التي ارتدتها ضجيجاً.

وأحب أنَّ ديف وانستيد الذي كان آنذاك مدرباً لفريق دببة شيكاغو، قام ذات مرة بالصراخ عليَّ بسبب شيءٍ قلته عبر المذياع، فاندفعت إلى غرفة الصحافة وأنا مستاء، عندها قام كاتب متمرس بأخذي جانباً وقال: «لا تقلق يا غلام، فهم لا يصرخون إلا عندما يعرفون أنك على صواب». وأحب عادة مايكل جوردان في تحريك قبضته عندما يقوم برمية مميزة، كما أحب الطريقة التي يركض فيها بيت روز إلى خط البيسبول الأول كلما كان بمقدوره التقدم، وأحب اعتقاد لو غيرنغ وإيمانه بأنه أسعد إنسان على وجه الأرض.

هناك الكثير كي أحبه عن الرياضة والكثير من اللحظات الحاسمة والمؤثرة، ولكن ـ كما أعتقد ـ لا أجد علاقة لأي منها بالسؤال المطروح، بل هي مجرد دلالات على ذلك، والسؤال المطروح هو عن العلة.

وبعد الكثير من التفكير والتمحيص، قررت أنَّ أكثر ما أحبه حقاً في الرياضة هو عدم ديمومتها. فالرياضة تشبه الحرب ولكن دون قتلى. تخيل كم تصبح الحرب مثيرة ـ عندما تنتهي كالرياضة - يتصافح الجميع ويحتفلون معاً. تبقى الحرب بكل ما تتضمنه من تخطيط وانفعال وشجاعة مسرحاً رائعاً إلى أن تبدأ بإحصاء الجثث وهناك تفتقدني.

أمـا في الرياضـة فإنـك لن تفتقـدني أبـداً، هناك تخطـط لهجومك وتتحضر بدنياً ونفسياً، وتحاول تنفيذ خطتك ـ غالباً في أجواء غير ودية ـ وبعد انتهاء المباراة يقوم الجميع باحتساء البيرة معاً.

إن جمال الرياضة وعدم ديمومتها، هما السببان اللذان دفعاني: كي أصبح معلقاً رياضياً بالدرجة الأولى.

كبرت وأنا راغب أن أصبح صحفياً ـ صحفياً حقيقياً ـ وأردت تغطية الأمور السياسية وكشف الفساد وطرح الأسئلة التي تسقط الزيف والادعاء، ولكن كل ذلك تغير عندما غرق أندرو دوناتيللي.

لم يسبق لي أن قابلته، ولكني لن أنساه ما حييت، فقد كان طالباً متفـوقاً في المـرحلة الثانوية، ويعيش في بلدة صغيرة، حـيث كـنت أعمل بشكل مؤقت لدى جريدة محلية، وقد حصل الفتى على منحة كرة قدم تؤهله لدخول الجامعة، وكانت صديقته من أجمل الفتيات على الإطلاق، كما كان لديه كلب حـزين لـم أر مثله مـن قبل. وفي لـيلة احـتفاله بالـتخرج في المدرسة الثانـوية، قـام دوناتيللي وبعـض زمـلائه بـمرافقة صـديقاتهم إلى الشاطئ، وبطـريقة مـا سـحبت المياه الفتاة الجميلة وغرق دوناتيللي بشـكل غـامض وهـو يحـاول إنقـاذها. في الصبـاح اللاحق قـامت الجـريدة بإرسال ثلاثة منّا لتغطية الحدث، فذهب الأول إلى قسم الشرطة، وذهب الثاني إلى الشاطئ، أما أنا فذهبت إلى المنزل لمقابلة والديه.

ذهبت إلى هناك ووقفت عند المدخل، وخلال وقوفي رأيت الكلب وهو قادم من الساحة الخلفية للمنزل فحدق بي، لقد كان جميلاً وذا مظهر قوي ككلب حراسة، وأعتقد أنه نادراً ما كان بإمكان زائر أن يقف عند ذلك

المدخل دون أن يقوم هذا الكلب بالنباح عليه، إلا أن الوقت غير مناسب لذلك الآن. نظر إلي برهة ثم سئم ذلك فارتمى على الأرض معطياً ظهره لي وبقي ساكناً دون حراك طوال الوقت الذي بقيت فيه منتظراً عند ذلك المدخل، أي قرابة الساعة. لم يسبق لي أن رأيت كلباً هادئاً هكذا، كما أنه لم يكن نائماً أيضاً، بل هو حزين فقط. قد لا تفهم الكلاب كل شيء ولكنها تعرف متى تحزن.

لم أستطع رن الجرس.

كانت أسئلتي مكتوبة أمامي على ورق أصفر، إلا أنني لم أتمكن من طرحها على الرغم من معرفتي أن هذا هو عملي، لم أستطع ذلك. لم يكن بمقدوري أن أسأل امرأة لم يسبق لي رؤيتها، عن شعورها وهي متجهة إلى مكان الجنازة في جادة وورث الساعة الخامسة صباحاً وهي تحمل زي لاعب كرة قدم وبدلة زرقاء عليها صورة الأخوين (بروكس) لأنها لم تتمكن من تحديد أيٍ منهما كان سيرغب ابنها في أن يدفن وهو يلبسها. ومع كل احترامي لأولئك الذين يطرحون مثل هذا السؤال، فأنا لا أستطيع فعل ذلك.

لقد أخافتني هذه التجربة وجعلتني أسأل نفسي للمرة الأولى، ما الذي سأفعله في حياتي. لقد أردت دائماً أن أصبح صحفياً، أما الآن فسيكون عليَّ أن أصبح شيئاً آخر. قلت ذلك حرفياً للمرشد المسؤول عني، فأجاب: «هل سبق أن فكرت بتغطية الأحداث الرياضية؟». الغريب في الأمر أنه على الرغم من معرفته الجيدة بي ما زال يطرح عليَّ السؤال.

هذه هي حكايتي، وهكذا أصبحت معلقاً رياضياً، وهذه أفضل وسيلة أستطيع من خلالها تفسير سبب عشقي الكبير للرياضة. ليس هناك شيء في العالم أفضل من إنفاق كل ما تملكه على شيء هو دون شك لا شيء.

غالباً ما أقرأ عن أناس حياتهم مليئة بالحزن والحروب الأهلية والفقر والجوع، وعندها أفكر... ألن يصبح العالم أفضل لو استطاع الجميع صرف هذه الطاقة بالكامل للاهتمام بلعبة كرة القدم. ربما أكون قد اكتشفت ذلك، وربما يكمن الحل لجميع مشكلاتنا في أمور لا علاقة لنا بها. جربوا ذلك، ففي المرة المقبلة التي يستحق فيها تسديد قسط البنك وعندما يبكي الطفل وعندما تكون متأخراً عن العمل وعندما تعترض سيارة أمامك طريقك، فذلك هو الوقت المناسب لكي تقلق على شخص أخفق في إنجاز عملٍ استحوذ على اهتمامك. إن هذا السلوك لن يجعل مشكلاتك تختفي ولكن على الأقل يجعلها ضبابية أو يصرف انتباهك إلى أمور أخرى. قد يكون ذلك جلَّ ما نستطيع طلبه في الأيام العصيبة، وهذا ما يجب عليَّ نقله إلى ولدي ذات يوم، وربما يكون أفضل شيء يمكن أن يتمناه أي منَّا هو القليل من الضبابية.

لا ضبابيـة في الطريقـة التي أشعر بها اليـوم، فكلمة قلق هي عنوان يومـي هذا، كمـا أن قلقي ليس ضبابياً على الإطـلاق، بل واضح وجلي، وقـد استشعـرت ذلك من رنين هاتفي في الصبـاح الباكر، وازداد ذلك الشعـور خلال بقيـة اليوم. لقـد وصلت لحالـة أحسست معهـا بالقلق الشديد، فبالكاد يمكنني الجلوس هادئاً. إن الهدف من كتابة مذكراتي هذه، هـو الأمل بأن يؤدي شرح الأحداث التـي حصلت معي اليوم إلى، إحساسي بالراحة.

كانت عمتي (إيدا) هي من أيقظنا هذا الصباح، أيقظتنا باتصال هاتفي غير واضح، لقد بدت وكأنها تتكلم من غابات البرازيل المطرية عبر هاتفٍ خلوي، وعندما أخبرتني أنها على متن الطائرة، بدأ قلبي يخفق بسرعة، لماذا تتصل بي من على متن الطائرة؟

قالت لي بصوتها المرتفع: «عزيزي، أحضر قلماً».

«حسناً».

قالت: «دوّن هذه الأرقام، ثلاثة، تسعة، اثنان وعشرون، ست وأربعون، خمس وخمسون، واحد وستون».

كانت تصرخ بأعلى صوتها ويمكنني أن أتخيل تماماً مدى ارتفاع صوتها لو كنت جالساً إلى جانبها.

قالت لي: «هذه أرقام ورقة اليانصيب التي سحبتها، ولقد وضعتها في الثلاجة تحت فريك الفطر».

«ماذا؟!».

قالت: «لم أعدّ الحساء يا عزيزي، إنه تاباتشينك».

«عمتي، لماذا تخبرينني بذلك؟».

فأجابت: «في حال تحطم الطائرة، فإنني مشتركة بالورقة مع صديقاتي في لعبة الماجونغ[1] فهنّ لن يقمن بإبلاغ العائلة عن شراكتي معهنّ».

(1) لعبة الماجونغ: هي لعبة صينية تلعب بقطع صغيرة مصنوعة من الخشب أو العظم، وعليها صور.

نظرت إلى الساعة، فوجدتها الخامسة صباحاً فقلت:

«عمتي هل تعرفين كم الوقت الآن؟».

فأجابتني بالطريقة نفسها التي يقوم فيها كل فرد من عائلتنا بالإجابة على السؤال بسؤالٍ آخر.

«وهل أنا عمياء، إنني على متن طائرة ليلية إلى فيغاس».

ترمّلت عمتي في سن مبكرة، ولم ترزق أطفالاً، وتكمن مشكلتها في ولعها بالمراهنة، فمثلاً اعتادت أن تقضي أسبوع مباريات (السوبر بول) في لاس فيغاس، حيث يكون بمقدورها القيام بكل أنواع المراهنات. لقد دفعني ذلك في السنة الماضية إلى أن أطلب من قسم الأبحاث الذي أنتمي إليه، القيام بدراسة ظاهرة (الطرَّة والنقش).

سألتني عمتي: «هل دوّنت الأرقام يا عزيزي؟».

«لقد قمت بذلك يا عمتي».

قالت:«حسناً، عد إلى النوم، فإذا استيقظت على أنباء غير سارة، فاحرص على متابعة اليانصيب الليلة».

أقفلت سماعة الهاتف، وتسمّرت في سريري مما جعل زوجتي تستيقظ، بطريقةٍ ما تمكنت زوجتي من النوم طيلة وقت المكالمة، ولكن جلوسي على السرير أيقظها، فسألت: «ما الذي يحصل بالله عليك؟».

فأجبتها: «لا شيء يا عزيزتي، عودي للنوم».

هزّت رأسها بطريقة تظهر استياءها وعادت للنوم. أما أنا فأردت البكاء وأنا أراقبها، فهي امرأة رائعة وبعد أشهر ستنجب طفلي الذي سيكون دمه للأسف ملطخاً بجنون عائلتي.

وضعت رأسي على الوسادة على الرغم من تأكدي من أن النوم لن يراودني. فأنا لم أستطع التوقف عن التفكير بالطفل، ما هي حظوظه في أن ينعم بحياة طبيعية؟ وأي حظٍ يمكن أن يناله شخصٌ في هذه العائلة المعتوهة، حيث يتصلون بك في الخامسة صباحاً لمجرد إحساسهم بأنه سيفوزون باليانصيب ويموتون في حادث طائرة في اليوم نفسه.

في مثل هذه اللعنة سيولد طفلي، وكأنها مأساة من مآسي شكسبير، وهذا يذكرني بالسطر الذي تبدأ به قصة رفات أنجيلا، حيث يقول فرانك ماكورت: «إنه لا شيء أكثر بؤساً من طفولة أيرلندية فقيرة» إذ سرعان ما كان سيغير رأيه لو احتفل بعيد الشكر مع عائلتي.

هكذا بدأ يومي، واعتقدت أن الألم الموجود في معدتي سيزول مع مضي الوقت، ولكن على العكس تماماً فقد ازداد إحساسي بالهلاك الوشيك. قررت بعد الغداء أن أتصل بوالديّ في مدينة بالم بيش؛ لأخبرهم بالنبأ السار؛ فلعلَّ ذلك يبعث البهجة في نفسي. لقد نسيت أن الاتصال بوالديَّ لا يبهج على الإطلاق.

أجابت أمي على الهاتف، وبدأت على الفور بالصراخ لأبي:

«تعال إلى هنا، فلن تصدق أذنيك!».

استطعت سماعه، وهو يقول:

«بالله عليك ماذا تريدين؟».

أجابت:

«تعال دقيقة».

«وما ذلك الأمر المهم الذي لا يمكن تأجيله لخمس دقائق، حتى ينتهي الإعلان؟».

تساءلت عبر الهاتف:

«هل هذا الرجل معقول؟ إنه يشاهد برنامج الأخوين ماركس، ما الذي يمكن أن يفوته؟».

فقلت لها:

«ليس عليك إزعاجه».

إلا أنها عادت لمناداته:

«وهل الأمر مزعج لهذه الدرجة، أن أطلب منك المجيء إلى هنا لأمرٍ مهم؟».

«إن الأمر مهم منذ إحدى وأربعين سنة! إذ لا أستطيع القيام بأي شيء دون أن تحتاجي إليَّ في أمرٍ مهم».

«إذاً غادِرْ المنزل، ماذا تنتظر؟ إذا كان البقاء معي صعباً لهذه الدرجة، يمكنك المغادرة حالاً!».

«أنا ذاهب! أنا ذاهب!».

(منذ إحدى وأربعين سنة وهو يقول ذلك).

صرخت أمي:

«هل ستأتي إلى هنا أم لا».

«بحق السماء، ما ذلك الأمر المهم؟».

«إنه الهاتف».

«ومن يكون؟».

«إنه فريد أستير يريد إعطاءك دروساً في الرقص. ألا يمكنك الوثوق بي إذا قلت لك: إنه أمر مهم؟».

«مازال الأمر مهماً منذ إحدى وأربعين سنة؛ لذلك لم أتمكن من مشاهدة نهاية أي فيلم!».

أغلقت السماعة عند هذه المحاورة، ومازال الألم في معدتي يزعجني، إنه أشبه بفأرة (الهمستر) التي تركض على عجلة، مازلت أشعر بالقلق، وقد خطر ببالي أنه سيكون عليَّ الاتصال بأبي في وقتٍ لاحق؛ كي أبلغه الخبر السعيد.

لن تلبس زوجتي ذلك الحذاء الأخضر أبداً، فأنا أعرفها جيداً، ولكن هذا لا يعني أنني أفهمها، فأنا بالتأكيد لا أفهمها... ولكنني أعرفها، كما أعرف أنها لن تخرج من غرفة الملابس، وهي تلبس ذلك الحذاء الأخضر الضارب للصفرة مهما كلف الأمر.

عليّ أن أوضح أن زوجتي ترتدي اللون الأسود وكأنه درعها الواقي، فهو لونها المفضل، وقد باتت مقتنعةً الآن أن السبب الوحيد الذي جعل ابنة عمها تطلب منها أن تكون إشبينتها هو أنه سيكون عليها ارتداء فستانٍ أخضر ضارب للصفرة.

عندما أحضرت زوحتي الفستان إلى المنزل صرخت وهي تفك أوراق التغليف عنه:

«انظر إلى هذا. حتى باربرا بوش لن ترتديه!».

خرجت الليلة من غرفة الملابس وهي ترتدي الفستان والحذاء الأخضرين المائلين للصفرة اللذين ـ كما أخبرتني ـ أوصت بهما العروس، وقالت:

«إن ما يحيرني فعلاً، هو أنها لم تصر على لبس هذا الحذاء المروّع بل نصحت به فقط، وإذا لم تفعل فأنت وغدٌ بالتأكيد، ولكنك لا تستطيع التذمر؛ لأنها لم تفرض عليك ارتداءه».

كانت تترنح بسرعة رهيبة نحو ذلك المكان الذي يتحول فيه الغضب إلى دموع والذي لا يجدر وجودنا به الآن، لا سيما عندما يتوقع الناس حضورنا في بلدة فيرفيلد من ولاية كنتاكي في غضون ساعتين، ومما لاشك فيه أن ازدحام السير على الطريق سيتحول إلى كابوس فظيع.

قلت لها بلطفٍ قدر المستطاع:

«هل تعلمين؟ يبدو هذا الحذاء رائعاً».

فنظرت إليّ، وكأن لسان حالها يقول: «كيف أمكنني الزواج من شخصٍ عديم الذوق؟».

وتابعت قائلاً: «أعرف أن هذا لا ينسجم مع ذوقك المرهف في انتقاء الملابس، ولكنه يبدو جميلاً فعلاً لا سيما مع تسريحة شعرك هذه، وأما شعورك بالاستياء فهو ناجم عن عدم انسجام ما تلبسينه اليوم مع نمط الملابس التي اعتدت على ارتدائها».

عندها هدأت، فقد أثر كلامي فيها.

قلت لها: «سأنتظرك في الأسفل، يمكنك فعل ما تشائين، وأنا ما زلت على اعتقادي بأن هذا الحذاء يبدو رائعاً».

تركتها وهي تحدّق في قدميها، فلم يبقَ لدينا سوى أربعين دقيقةً، ومن المؤكد أننا سنتأخر عن هذا الزفاف وهذا سينشئ خلافاً في العائلة، ولا شك أن وصولنا متأخرين سيصبح محور الحديث لأمدٍ طويل في اللقاءات في أثناء العطل.

ولكنها ما زالت تتصارع في الأعلى مع ذلك الحذاء اللعين، سأقول شيئاً واحداً ألا وهو:

«إذا نزلت وهي تنتعل الحذاء الأخضر، فستكون القوة الموجودة في هرمونات الإنسان أقوى بكثير من تلك الموجودة في قنبلة ذرية، فأنا لم أتمكن يوماً، وتحت أي ظروف طبيعية، من إقناعها بإجراء تغيير في حياتها مهما كان طفيفاً، أي أقل بكثير من ارتداء مثل هذا الحذاء الفظيع».

إنها قادمة، سأدعكم تعرفون ما الذي حصل.

اليوم اللاحق

يا له من مشهدٍ فظيع!

بدأ حتى قبل مغادرتنا المنزل وذلك عندما طارت فراشة إلى داخل المنزل، كلانا قد رآها وهي تطير إلى غرفة الجلوس وتختفي عند المصباح الموجود هناك. إنني أكره الفراشات ولكنها لا تسبب لي الذعر الذي تحدثه لزوجتي. وقبل أن أتمكن من طردها قامت زوجتي بخلع حذائها الأسود وصعدت على كرسي المطبخ وهي تلوِّح بمكنسةٍ فوق رأسها، ولا داعي للقول: إنه بقي لدينا أقل من ساعة كي نصل إلى مكان الزفاف في الوقت المحدد. والفكرة التي خطرت لي هي أن زوجتي قد تكون واهمة نتيجة للحمل.

قلت لها: «يا عزيزتي، لا يستحق الأمر كل هذا القلق».

صرخت وهي تلوِّح بالمكنسة مثل ديريك جيتر (Derek Jeter): «علينا التخلص منها». فقلت لها: «إنها مجرد فراشة، فهل تخشين أن تسرق التلفاز مثلاً؟».

وفي نهاية المطاف تأخرنا عن الزفاف نصف ساعة ورفضت زوجتي انتعال أي حذاء على الإطلاق في أثناء مراسم الزفاف، وشرب الإشبين نخب العريس وهو يستذكر مغامرات العريس العاطفية، أما أنا فحصلت على مخالفة مرورية بسبب السرعة الزائدة في طريق عودتنا إلى المنزل، حيث كانت زوجتي بحاجة ماسة لدخول المرحاض.

وعندما كنت في سريري على وشك النوم سمعت صراخها داخل الغرفة، وهي تبكي بصوت مرتفع.

يجدر بي القول: إن زوجتي تصرخ في كل مرَّة ترى فيها فيلم رودي (Rudy) لذلك لم أشعر بالذعر عندما سمعت بكاءها) فصرخت قائلةً: «إنني أنزف».

عندها شعرت بالذعر، ولقد تبين أنها كانت في المطبخ وقامت بفتح الخزانة ثم انحنت؛ لتلتقط شيئاً ما على الأرض وعندما استقامت طرقت رأسها بالخزانة، ارتديت ثيابي بسرعة وأسرعت بها إلى مستوصف الطوارئ حيث جلسنا بين مجموعة من الجرحى المصابين بأعيرة نارية وقامت زوجتي بوضع قبعة السباحة المليئة بمكعبات الثلج على رأسها. سألتها: «هل تشعرين بالدوار؟».

«لم أكن أريد أن أنزف على سترتي الصوفية الجديدة».

(لقد كانت تلبس معطفي).

مضت ساعتان قبل أن ينادوا علينا لرؤية الطبيب وأخذنا إلى غرفة فيها مريضان آخران: أحدهما امرأة تبدو وكأنها طعنت بين أضلاعها والآخر رجل ضمَّد رأسه بالكامل وتبين لاحقاً أنه سقط عن دراجته النارية وانزلق على وجهه لمسافة تقدَّر بخمسين ياردة وأخبرتني الممرضة أنها ستندهش كثيراً إن لم يكن بحاجة إلى تطعيم جلده.

لا شيء يضاهي تطعيم الجلد في إعادة الأمور إلى نصابها.

ثم دخل الطبيب وهو يحمل إبرة لابدَّ أن طولها تسعة إنشات، واعتقدت أنه سيغمى عليَّ، فلو قام الطبيب بوخز تلك الإبرة فعلاً في رأس زوجتي فسوف تخرج من تحت فكِّها، لذلك لم أتفوَّه بكلمة، حتى كلمة مع السلامة، إلى أن قام الطبيب بنزع الغطاء عن الإبرة وأدركت عندها أنها مجرد محقنة عادية (سيرنغ) مملوء بالماء لتنظيف الجرح وسرعان ما بدا الارتياح على وجهي على الرغم من أنَّ أحداً لم يلاحظ ذلك، فقد توجهت كل الأنظار في الغرفة نحو زوجتي عندما لامس ذلك السائل رأسها.

«أيها الديوث».

ساد الصمت في الغرفة، حتى الشاب الذي فقد وجهه التفت؛ ليتبين مصدر الصوت فقالت زوجتي بلطف أكثر: «إن هذا يؤلمني».

ولم يمض وقت طويل حتى أثير موضوع خياطة الجرح فالطبيب يقول: إنها بحاجة إلى سبع أو تسع قطب.

وبعدها أثير موضوع حلاقة شعر الرأس فقال الطبيب:

«بإمكاننا حلق منطقة صغيرة كهذه، وأشكُّ أنَّ أحداً سيلاحظها».

لقد صارح الطبيب زوجتي بالأمر فقالت:

«من المستحيل أن أسمح بحلق أي بقعة في رأسي، لابد من وجود حل آخر».

فقال الطبيب، متردداً:

«يوجد حل آخر ولكنه غير مستحب، إذ يمكننا استعمال المشكُّ السلكي (الكباسة) وأنا لا أنصح بذلك ولكنه سيجدي نفعاً، وبإمكانك العودة إلى هنا في غضون أسبوع وعندها يمكننا استخراج الرزّات السلكية.

فسألته: «لن أفقد شيئاً من شعري؟».

«لن تفقدي شيئاً من شعرك ».

«إذاً هذا ما أريده ».

شعرت أن عليَّ أن أقول شيئاً:

«أيها الطبيب، هل أنت واثق من أن هذا حلٌّ علاجي فاعل للمشكلة؟».

عندها رمقتني زوجتي بنظرة مفادها أنني سأوبخ حال وصولنا إلى المنزل.

فأجاب الطبيب:«إنها آمنة وفاعلة، وغالباً ماتستخدم مع المشردين والآخرين الذين ليس لديهم تأمين صحي ولكنها ليست خطيرة».

فقالت زوجتي: «فلنفعل ذلك الآن، أحضر المشك».

لقد كان ذلك بالضبط ما فعله الطبيب، ثم قام باستخدامه بحركة سريعة وكأنه يخرز رسالة فصلية لطالب جامعي في حين صرخت زوجتي بأعلى صوتها.

أما الآن فهي نائمة في الطابق العلوي، والرزّات المعدنية في رأسها تبرق في الضوء. ستكون زوجتي بخير كحالها دائماً. ولا يفوتني القول: إنني ربما أكون قد أعطيت انطباعاً خاطئاً وغير منصف على الإطلاق عن هذه المرأة. إنها امرأة ذكية وبارعة ومتعاونة ومدبرة وأنا فخور بها جداً.

(كان دخلها في بداية زواجنا أكثر من دخلي، وسألني الناس: كيف تعاطيت مع ذلك الأمر. في الحقيقة اشتريت سيارة بي إم دبليو، وهكذا تعاطيت مع الأمر. إن جميع الرجال سيعانون من امرأة تكسب أكثر من مئة ألف دولار).

وبما أننا نتحدث عن زوجتي، فمن الأفضل أن أخبركم أن الأحذية تستحوذ على اهتمامها، فهي مهووسة بشيء يدعى أحذية ولديها الكثير منها حتى أكثر من إيميلدا ماركوس نفسها، وتبدو جميع أحذيتها متشابهة بطريقة أو بأخرى، وفي اعتقادي أن هذا يفسر عصبيتها عندما يجب عليها أن تقرر أي حذاء تنتعل.

سيبدأ مساؤنا الاعتيادي بكلام زوجتي وهي تذكرني مراراً وتكراراً متى يجب أن أكون جاهزاً، وعندما يحين ذلك الوقت تجدني دائماً جالساً على الأريكة حليق الذقن ومستحماً ومرتدياً ملابسي، يتوقف الصراخ حينها مدة ثلاث دقائق تكون فيها زوجتي منشغلة بالركض هنا وهناك وهي منتعلة فردتين لحذائين مختلفين رائعين.

هنا يدقُّ ناقوس الخطر.

فهي دائماً تسألني: أي حذاء أفضل؟ لكن هذا ليس إنصافاً، فإذا كانت لدي دراية بماركة (جيمي تشو) وماركة (مانولو بلانيك) فذلك لا يعني بالضرورة أنني قادر على التمييز بينهما، وفي كثير من الأحيان، لا أكون متأكداً من أنَّ الفردتين مختلفتان، فيزيد ذلك الأمر سوءاً.

وبعد أن أختار لها ما أفضله من الأحذية المتطابقة تسألني: «لِمَ اخترته؟».

بالنسبة لي ليس هناك سبب ملزم لأي شيء أقوم به غالباً، فأنا أقضي حياتي هائماً في حالةٍ من اللامبالاة التامة؛ لذلك ليس لدي سبب مقنع. لِمَ أفضل (الصندل) الأسود ذا الشرائط على غيره، إن عدم قدرتي على الإجابة يجعلنا دائماً أكثر تأخيراً.

وآمل طبعاً أن يكون واضحاً أنني أقول كل ذلك مع حبي لها، فإذا لم تدرك أهمية هذه الأحذية فمن سيفعل إذاً؟ إنني سعيد أن هناك شخصاً يقوم بذلك وأنا سعيد أنّ ذلك الشخص قد تزوجني.

والآن، وبينما أراقبها وهي نائمة ـ وقد طمرت في فروة رأسها معدات مكتب صغير ـ يجعلني ذلك أتذكر كم أنا صادق فيما قلته.

وقد يبدو الأمر جنوناً، فأنا أحبها أكثر بعد كل مشاجرة حول ذلك الأمر.

مررت في الليلة الماضية بتجربة مضحكة.

في الواقع قد لا تكون هذه التجربة مضحكة بقدر ما هي تبعث على الأسى. فلتكن أنت الحكم في ذلك.

كانت الساعة العاشرة وكنت مرهقاً ومتعباً فعلاً، ذلك النوع من التعب الذي تكون فيه تشارليز ثيرون إلى جانبك في السرير، وبيدها قدح من الشراب وصحن من العنب وكل ما ترغب بقوله لها هو: «إذا كنت ستقرئين فأرجو منك الانتباه إلى الصوت العالي الناجم عن تقليبك للصفحات».

سرعان ما استلقيت على السرير وتنهّدت بشكل مسموع ـ أشبه بالأنين ـ وبعدها التفتُّ إلى الجهة الأخرى والتقطت سماعة الهاتف وطلبت الصفر، ثم قلت: «أريد أن يتم إيقاظي في الساعة الرابعة من فضلك».

فساد الصمت للحظة ثم أجاب أحدهم: «عذراً!».

«أعلم أن الوقت مبكر ولكن ذلك هو الوقت الذي أستيقظ فيه».

«لا أعرف عمَّا تتكلم يا سيدي».

وبعدها أدركت أنني لست في فندق، بل في منزلي وكنت أكلم عامل مقسم عادي. ثم أقفلت السماعة وضبطت ساعة المنبه وبدأت بالضحك.

الحقيقة أنني أسافر كثيراً.

لم تكن تلك المرة الأولى التي يحصل فيها شيء كهذا. وبما أنني أمضي معظم وقتي مسافراً لتغطية المباريات اعتدت أن ألعب لعبة لدى استيقاظي من النوم وهي: سأرى إذا كان بإمكاني تذكر المدينة التي أوجد فيها قبل أن أفتح عيني.

إن جميع الناس الذين يعملون كثيراً في وظائفهم تعرضوا لمثل هذه التجارب، كطلب الرقم تسعة من أجل إجراء مكالمة خارجية من منزلهم. بالنسبة لي، وعلى الرغم من كل شيء، فإن الأمر يستحق ذلك. لقد عشت حلمي وأحببت كل دقيقة فيه ولن أتخلى عن أي من تلك التجارب التي حصلت معي مهما كلف الأمر.

فمن تلك التجارب، تلك التي جلست فيها مع محمد علي في غرفة الضيوف في أطلنطا واستمتعت إليه وهو يتحدث عن مباراة في الملاكمة لـ مايك تايسون.

أو ذلك الصباح في نيوأورليانز عندما قام بول برودوم ـ الشيف الأسطوري ـ بتحضير الإفطار لي، حيث أعدّ عجة البيض مع البطاطس والسجق الحار وسمح لي بتناولها مباشرة من مقلاته ثم أتبعت ذلك باحتساء فنجان من قهوة الهندباء، لم أكن في حياتي كلها قد تذوقت أشهى من ذلك.

أو عندما قام مارك ماغواير بإعطائي مضربه في مباريات أول ستارغيم (All Star game) المقامة في سان دياغو؛ كي يستعمل هاتفي الخلوي في المشاركة ببرنامج إذاعي.

أو تلك الظهيرة التي قضيتها مع أوجي سيمبسون (O.J.Simpson) الذي أثنى على ربطة عنقي بينما كان يتحدث مع معجبة شقراء قبل ستة أشهر من مقتل زوجته السابقة.

أو عندما تكون على بعد عشرة أقدام من لاري هولمز عندما تقيأ داخل الحلبة بعد أن واصل مباراته مع إيفاندر هوليفيلد حتى النهاية.

أو ذلك المساء عندما قام ريفريندجيس جاكسون بالتربيت على كتفي وعرّف عن نفسه في إستاد شيكاغو العريق وقال: إنه يرغب في مواصلة التعليق على المباراة على الهواء مباشرة والتكلم عن فريق البولز (bulls)، وقد فعل ذلك وكان مدهشاً حيث كان ما يعرفه عن كرة السلة أكثر مما يعرفه الكثير من المعلقين الذين يقومون بتغطية المباراة.

لقد قام ثلاثة من محافظي المدن بالإعلان عن بدء المباريات على شرفي وقابلت وودي آلين وجاك نيكلسون، أما حاكم ولاية إلينور فناداني بـ«غريني» واستطعت ذات مرة إقناع السيناتور جوزيف ليبرمان بتقليد سيلفستر ستالون على الهواء مباشرة،أما الشيء الذي يبعث على الدهشة فهو أنني أتقاضى مرتباً عن كل ذلك.

(يبدو هذا غير منصف).

إن السؤال المطروح الآن هو: هل يجب أن ينتهي كل ذلك؟

ربما يحصل ذلك، فعندما كنت صغيراً لم أكن أريد أن يسافر أبي مئتي يوم في السنة، كما لا أعتقد أنني كنت سأحب رؤيته على الشاشة أكثر من وجوده شخصياً معنا، وما كنت سأندهش لو سمعت عن غدائه في البيت الأبيض، إذ كنت سأرغب بأن يتناول الطعام معي في منزلنا.

وهذا حسب اعتقادي سيحتّم عليّ البدء بالأكل في المنزل ولكن ذلك سيستغرق وقتاً: كي أعتاد عليه.

يمكنني أن أدرك الآن أين يكمن الجانب المشرق في عملي العجيب هذا، فربما سأحضر أولادي معي ذات يوم إلى مباريات السوبر بول (Super Bowl) وربما سأحضرهم إلى الملعب قبل بدء المباراة وإلى غرفة تبديل الملابس لمقابلة اللاعبين، فإذا فعلت ذلك فسيكون أولادي هم الأروع في المدرسة. (عندما كنت في العاشرة قامت فتاة من صفنا كانت دائماً تضع يدها في أنفها، بأخذي إلى مباريات وورلد سيريز (World Series) بعدها أصبحت من أفضل الأصدقاء لي طوال السنة).

سيكون ذلك رائعاً ولكنه صعب المنال وسيكون عليَّ بين الحين والآخر أن أكون هناك، ليس في ميامي ولا في أطلنطا ولا في لوس أنجلوس.

إن كلمة هناك في اعتقادي هي «أي مكان يكون فيه الطفل».

هذا سيحتّم عليَّ أن أفضّل شيئاً آخر على الرياضة وعلى نفسي، فهذا يُعدُّ تعديلاً. وبصراحة، لست واثقاً من أنني سأكون قادراً على فعل ذلك.

مدة الحمل الثانية: القبول

حسناً، لدي خبر سار وخبر سيئ.

أما بالنسبة للخبر السار فهو أنني تمكنت من جعل أبي سعيداً للغاية وذلك عندما أخبرته في أثناء تناولنا الإفطار في المنزل أنه سيصبح جداً. (وهو الآن موجود في البلدة بسبب انطلاق موسم المباريات التي سيلعب فيها فريق نسور نيويورك (NewYork Jets) فهو دائماً يحضر المباراة الافتتاحية).

قمنا أنا وزوجتي بإخباره ذلك عندما كان يتناول المربى مع الزبدة مما جعله مبتهجاً لدرجة غطت فيها الزبدة والمربى كامل وجهه، كما وصلت آثارها لنا عندما قام بمعانقتنا وتقبيلنا. كان ذلك رائعاً.

وبعدها ذهبنا إلى مباراة كرة القدم.

لن أركز على ذلك كثيراً؛ لأنه أمر محزن جداً، ففي الربع الثاني من المباراة، لوي كاحل الظهير فيني تيستافيرد (Vinny Testaverde) الذي يُعدّ من أهم لاعبي فريق النسور وكانت إصابته بالغة.

هكذا بدأت المباراة وهكذا انتهت وفشل الفريق في إحراز الفوز.

وعندما انتهت المباراة بقيت أنا وأبي جالسين هناك ونحن محبطان، ثم تكلّم واضعاً الأمور في نصابها وهذا يأتي مع الخبرة والنضج:

«أعتقد أنني سأتقيأ».

فأومأت برأسي موافقاً.

فتابع أبي: «علينا التذكر بأنك سترزق بطفل وهذا هو الشيء الأهم».

فقلت موافقاً: «بالطبع هو كذالك، ولكني كنت متلهفاً فعلاً لموسم هذه السنة، فقد اعتقدت أننا أخيراً سنذهب إلى مباريات (Super Bowl) السوبر بول».

قال أبي:« إن ذلك لن يحدث، إذ لا أمل لدينا والفريق يلعب دون جدوى».

جلسنا صامتين لبضع دقائق ونحن نشاهد المشجعين الآخرين وهم يغادرون المكان متباطئين ومطأطئي الرؤوس على شكل رتل.

فقال أبي: «بالطبع، إن الطفل هو الشيء الأهم ».

«بالطبع ».

كانت المدرجات فارغة تقريباً إلا أننا لم نتحرك، إذ ليس هناك مكان نذهب إليه قبل بداية الموسم المقبل.

فقال والدي: «لم أعد بحاجة إلى هذه البطاقات، فأنا أسكن على بعد ألف ميل من هنا وأشعر بالجنون في كل أسبوع وأنا أحاول اتخاذ قراري بشأن حضوري وأتوقف عن العمل في شهر كانون الأول، وكل ما يقومون به هو كسر قلبي، إنه أمر مثير للاشمئزاز!».

قلت له: «أعرف ذلك، إنني غاضب لدرجة يمكنني معها أن أعض على العلبة الفارغة التي أسقطها ذلك الفتى ».

«إنها مأساة يا مايكل، وكأننا نعاقب على أمر ما».

وفي هذه الأثناء، كان عمال طاقم التنظيف يقتربون منا وهم يقومون باستخدام مكانس كهربائية ضخمة كان هديرها أشبه بصوت هدير طائرة تقلع وكانت الأوراق والعلب الكرتونية تتطاير في الهواء.

قال والدي: «أعتقد أنني سأحضر المباراة في الأسبوع المقبل، لكن في حال خسارتهم فلن أحضر أي مباراة أخرى طوال حياتي».

لم أستطع أن ألومه.

ثم قال: «بالطبع،إن الطفل هو الشيء الأهم».

«بالطبع، هو كذلك».

بعدها غادرنا المكان وبدا طريق عودتنا إلى المنزل أطول من المعتاد. ولدى وصولنا، كانت زوجتي تمسك بزجاجة شراب، من المؤكد أنّ لا نيّة لديها في تناول بعض منها فهي حامل الآن ولن تكون قادرة على ذلك إلا بعد مدة. ولكن الشراب كان من أجلنا أنا وأبي.

فقالت زوجتي: «هيًّا أنتما الاثنان، أليس الطفل أكثر أهميةً من مباراة كرة القدم؟».

عندها نظرنا أنا وأبي إلى بعضنا وقلنا بتناغمٍ كامل:

«بالطبع هو كذلك».

ولكننا لم نشرب الشراب، والزجاجة الآن موضوعة في الثلاجة وأفترض أنني سأشعر برغبة في تناولها ذات يوم».

لا أدري ربما الشراب أو ربما التوتر الذي كنت أشعر به مؤخراً هو السبب الذي جعلني أفقد تركيزي ولكن ومهما كانت الأعذار فقد أسأت إلى نفسي بطريقة غير مسبوقة.

ومن المؤسف أيضاً أن الأمسية بدأت بشكل جيد، فقد قدمت الضيافة حتى قبل الزفاف، وهذا التقديم المتواصل جعل متابعة الحفلة حتى نهايتها أمراً يسيراً.

أضف إلى ذلك أنّ العروس من أعز صديقات زوجتي، إذ قامتا معاً بقضاء وقت ما بعد الظهر خارج المنزل، الأمر الذي جعلني أستسلم

لرغبتي في لعب الغولف في أثناء النهار وأشرب الكثير من الشراب قبل بدء الزفاف.

كنت أقبّل المعجبين وأحادثهم وهذا أفضل شيء إذا ما كنتَ مشهوراً إلى حدّ ما: إذ إن حديثك سيشدّ الناس إليك في حفل زفاف الآخرين وأنا عادةً ماهر في ذلك، وفي هذه الحالة أشعر وكأنني موجود في غرفة مليئة بالمشجعين الرياضيين الذين تجاهلوا النظرات الحانقة لزوجاتهم. (ونتيجة خبرتي بذلك لم يغادر أي منهم وأنا أتحدّث عن المباريات الودّية التي لعبها مايكل جوردان.

وعندما أصبحت الغرفة ممتلئة بالناس، دخلت امرأة غريبة، بدت وكأنها مرتبكة. كان ذلك تهيؤاً ـ ربما نتيجة ارتداء الملابس الرسمية ـ ولكنها بدت لي وكأن مكانها الصحيح هو الاتكاء على عمود النور في منتصف الليل.

عندها ساد الصمت.

من المذهل كيف ساد الصمت فجأة في الغرفة، ولم أستطع تحديد الأشخاص الذين سمعوا ذلك، فربما يكون الجميع قد سمع وربّما تكون هي عينها قد سمعت ذلك ولكنني غير متأكد تماماً فقد توارت عن الأنظار فور دخولها كما أنني لست واثقاً فيما إذا كانت قد غادرت أم اختفت بين الحشود، وفي لحظات كهذه يبدأ العرق بالتّصبب مني بشكل متواصل كحال ألبرت بروكس لدى تقديمه نشرة الأخبار.

وبينما كانت سترتي الرسمية ماركة كالفين كلين منتقعة بالعرق من داخلها، رأيت وافداً آخر كان متأخراً، إنه رجل هذه المرة ويبدو مألوفاً لي.

«كيث؟»

إنه زميلي القديم في الكلّية، ولم أكن قد رأيته منذ عشر سنوات ولم أتكلم معه منذ خمس سنوات. لقد فقدنا التواصل فيما بيننا منذ مغادرته البلاد بحثاً عن عمل، إنني متأكد من أنه سافر إلى براغ، وربما يكون قد سافر إلى باريس أو بكين، لقد نسيت.

قلت له: «إنك تبدو بحالٍ جيدة ».

قال لي:« وأنت أيضاً، تهانينا على البرنامج، فأنا أستمع إليه كل صباح».

«هل عدت إلى أميركا؟».

قال: «عدت منذ نحو السنتين».

«هذا رائع ».

قال: «أود أن أقابل زوجتك، سمعت أنك تتحدث عنها طوال الوقت، هل هي موجودة هنا؟».

«نعم »، قلت ذلك وأنا أمعن النظر في الجموع؛ بحثاً عنها».

«وماذا عنك هل تزوجت؟».

«قال: نعم، تزوجت منذ شهرين. إننا عائدان من شهر العسل للتوّ ».

«إذا أنتما عروسان جديدان، هذا رائع، هل هي موجودةٌ هنا؟».

«أعتقد ذلك»، قال وهو ينظر حوله، «من المفروض أن نلتقي هنا».

ومن المفروض أن تعرفوا إلى أين سيفضي ذلك. لقد كان متزوجاً من تلك المرأة.

وعلى الرغم من كل ذلك ـ وكي أكون منصفاً ـ يجب أن أوضح أنها في الواقع محترمة.

سأقول الآتي: في حال كانت قد سمعتني، فهذا يعني أنَّ لديها روحاً رياضية؛ لأنها لم تفصح عمَّا حدث، على الأقل طوال المساء. وحتى لا تكونوا قلقين من أنَّ العدالة لم تأخذ مجراها، يمكنكم الاطمئنان إلى أنَّ مسائي كان قد تعكَّر، فقد أمضيت الليلة بكاملها، وأنا أتوقع أن يقول لي زميلي القديم: «إذاً تعتقد أنَّ زوجتي غير محترمة؟».

(تلك كانت كفَّارتي).

ولحسن الحظ أنّ ذلك لم يحصل أبداً في الحقيقة، لم تكن زوجتي قد اكتشفت الأمر إلى أن ركبنا سيارة الأجرة. أقوم عادة بتخمين مدى سوء تصرفي من خلال ردود فعلها، فإذا ضحكت فذلك يعني أنّ الأمر ليس بهذا السوء ولكنها لم تضحك.

فقلت لها: «أعتقد أنَّ ذلك أسوأ ما يمكن أن يحصل لي».

فقالت وذراعاها متشابكان مع بعضهما ودون أن يبدو على وجهها أي ابتسامة.

«أعتقد ذلك».

إنه لأمرٌ مذهل، كم يبدو ذلك مختلفاً عندما يصدر عنها ولكنني أعتقد أنها محقّة، فبالنسبة لشخص يكسب نقوده نتيجة درايته بالأشياء الصحيحة التي يجب أن تقال سيصعب التصديق كم مرة أقوم فيها بقول الشيء الخاطئ تماماً عندما تكون الميكروفونات مغلقة.

عندما انتهيت هذا الصباح من تقديم برنامجي على الهواء، أخبرني المخرج أنَّ عمتي اتصلت لأمرٍ ضروري. إنَّ مكالمة عاجلة من امرأة في السبعينيات من العمر لابدَّ أن تجعلني أسرع إلى الهاتف، أمَّا في حالة عمتي إيدا فقد تعلمت أنَّ عبارة أمرٍ طارئ هي مصطلح نسبي تماماً، وقمت بالاتصال بها في أقل من ساعة من هاتفي الخلوي في السيارة.

«ما هذا، هل أنت مشغول لدرجة لا يمكنك معها الاتصال بي؟».

«عمتي إيدا، إن هذا أقرب هاتف أمكنني الوصول إليه».

«أليس لديهم هواتف في مكان عملك؟».

«ما الذي يمكنني أن أفعله من أجلك يا عمتي؟».

«لقد كنت محقاً فيما قلته عن بيتون مانينغ هذا الصباح، فقد كلفتني إضاعة تلك الكرة مئة دولار».

«شكراً لك يا عمتي، ماذا كنت تريدين مني؟».

«ماذا، أليس بمقدوري الاتصال كي أطمئن على ابن أخي العزيز؟».

«إيدا، من فضلك».

«حسناً، يا عزيزي، إنك نافذ الصبر كأبيك تماماً وبالمناسبة، لقد بدأ شعرك بالتساقط في البقعة نفسها التي تساقط منها شعره، عند مفرق الشعر تماماً؛ لذا عليك تغيير فرق شعرك، أليس لديهم في الإستوديو أناس يخبرونك بذلك؟».

«كلا يا عمتي، فهم لديهم أناس يخبرونني أنّ عمتي مضطّرة للتكلم معي لأمر طارئ».

«حسناً».

«قمت هذا الصباح بالدخول إلى موقع Sports book- dot- com لأجد احتمالات أن يكون مولودك المنتظر ولداً أو بنتاً، وقد تبيّن بنسبة ستة مقابل خمسة أنك سترزق صبياً».

«لا أصدق أنَّ لديهم احتمالات عن جنس مولودي المنتظر ».

«بل صدق ذلك، متى موعد إجراء فحص الأمنيو[1]؟».

«ماذا»؟.

«فحص الأمنيو، متى ستذهبون لإجرائه؟» ثم قالت: «هل تعاني من مشكلة في أذنيك يا عزيزي؟ فقد حصل ذلك مع عمك سول عندما كان في مثل سنك وعندما بلغ سن الخمسين أصبح أصمَّ تماماً».

«هذا رائع لم نعرف جنس الجنين بعد».

«يا عزيزي مايكل، لقد قلت: إنكم قمتم بإجراء هذا الفحص ».

«أجل، ولكننا لا نريد معرفة جنس الجنين؛ لأننا نحب أن يبقى الأمر مفاجأةً لنا، ألم تسمعيني وأنا أقول ذلك عبر المذياع ».

«ماذا، وهل أنا صمَّاء كالعم سول؟ بالطبع سمعت ذلك ولكني اعتقدت أنك تراوغ، فأنت تبدو أحياناً مراوغاً بارعاً في ذلك البرنامج ».

«حسناً، لم نعرف جنس الجنين بعد ».

---

(1) وهو فحص يتم خلاله أخذ عينة من السائل الموجود في رحم الأم وفحصها للاطمئنان على صحة الجنين.

«أنت غير معقول يا مايكل، هل لديك أدنى فكرة عن الحدث المثير الذي يمكنني أن أتحدث عنه».

«إيدا، إن الأمر ببساطة هو أنني لم أعرف جنس الجنين بعد».

فقالت: «انتظر يا عزيزي»، ثم غابت مدة طويلة قمت خلالها بقيادة سيارتي لعشرة أميال على طريق سريع مزدحم قبل أن تعود وتستأنف الكلام.

«آسفة يا عزيزي، فقد اشتعلت مسكة المقلاة مما أدى إلى تشغيل جهاز إنذار الدخان، ولكن دعني أسألك متى ستقومون بإجراء فحص الإيكو؟».

فقلت لها: «ماذا؟ هل أنت بخير؟».

«أجل إنني بخير يا عزيزي، لقد وضعت منديلاً على فمي ولكن متى ستقومون بإجراء الإيكو؟».

فقلت لها: «في الأسبوع المقبل».

«أنصت لي جيداً يا عزيزي، قالت لي صديقاتي: إنه لو زادت ضربات القلب عن مئة وخمسين فذلك يعني أن المولود سيكون أنثى».

«حسناً، سنقوم بذلك في الأسبوع القادم».

«أريد منك الاتصال بي قبل خروجك من عيادة الطبيب».

«تريدين مني الاتصال بك لدى إجرائنا فحص الإيكو؟».

«وهل أتكلم معك بالعبرية؟ أجل اتصل بي قبل أن ينتشر الخبر».

« وكيف يمكن للخبر أن ينتشر؟ ».

«ماذا؟ وهل تعتقد أن الأطباء لا يرغبون بالمشاركة بالحدث المثير، إنني أؤكد لك أنه لن تمضي عشر دقائق على مغادرتك عيادة الطبيب حتى يكون الخبر قد انتشر في كل مكان ».

كنت مذهولاً لدرجة لم أستطع معها الكلام.

وبعدها قالت: «عليَّ الذهاب الآن يا عزيزي، فقد حضر رجال الإطفاء إلى هنا».

ثم أنهت المكالمة.

عليَّ أن أتذكر الاتصال بها والتأكد من أنها بخير.

لقد كذبت عليها، وعليَّ عدم فعل ذلك مجدداً ولكني أعتقد أنه في مثل حالتي هذه سيكون الأمر مبرراً. ففي الواقع نحن ذاهبان إلى الطبيب غداً، (ومن المدهش كيف أصبح المسشفى مكاناً مألوفاً لديَّ، إذ لم يكن هناك مجال لمعرفته سابقاً. وأعتقد أن المكان لن يصبح منفِّراً إلى درجة كبيرة عندما لا تضطر إلى سؤال الآخرين عن مكان الحمام).

سنقوم غداً بإجراء فحص الأمنيو سينتيسيز (amniocentesis) وأنا لست واثقاً فيما إذا كنت لفظت الكلمة بشكل صحيح أم لا ولكنني لن أتفاجأ في حال كان لفظي خاطئاً (لن أزعج نفسي في البحث عنها في القاموس، من سيهتم بذلك) وفي اعتقادي سيكون هذا القرار هو أفضل قرار نتخذه للاطمئنان على صحة الجنين، إضافة إلى أنه الوقت الذي يمكننا فيه معرفة جنس هذا الطفل الذي لم يبصر النور بعد، وفي الحقيقة

إنني أرغب في معرفة ذلك (طبعاً لأسباب تختلف عن أسباب عمتي) فأنا أحب أن أكون مهيئاً للأمر، وهكذا سيكون من الطبيعي أن أقوم بجمع كل المعلومات المتوافرة حول ذلك. ولكي أزيد من شخصيتي الأبوية، أعتقد أنه من الضروري أن أكون حاسماً في اتخاذ القرارات، ومما يبعث على الإحباط هو أن تحرم من تحقيق ذلك.

لقد تم إبلاغي بشكل واضح من قبل والدة هذا الطفل الذي لم يرَ النور بعد أنَّ اكتشاف جنس الجنين قبل ولادته سيجعل من حدث الولادة شيئاً غير مثير، وهي متعنّتة لدرجة أنها لم تمنحني أي فرصة: كي أوضح لها أسبابي ولكنني سأفعل ذلك الآن؛ كي أستطيع القول: إنني فعلتها .

أولاً: يبدو لي أن لا شيء يمكنه أن يجعل من حدث ميلاد الطفل حدثاً عادياً إلاَّ إذا تم غزو فضائي مدهش لغرفة جلوسنا.

ثانياً: وربما الأهم، عليَّ الاعتقاد أنه ستكون لدينا أمور كثيرة تشغل بالنا مما يحوّل أي مفاجأة إلى توتر، فأنا أتخيل منزلنا وهو يعج بالعائلة والسمك، وتتحدث جدتي عن إجراء عملية لمفصل إبهام قدمها. وعمي مورتي يقول: إنه أكل كثيراً على الغداء وبذلك يمكنه أخذ حبوب وجع الظهر. وهكذا سيكون من غير المقبول إضافة أي توتر آخر إلى مثل ذلك اليوم.

ولكن تم التصويت ضدي واحد مقابل واحد (1-1).

وهذا يعني أنه كتب عليَّ أن أقضي الشهور الخمسة المقبلة من حياتي كما قضيت الأشهر القليلة الماضية، وأنا أحاول جاهداً ألا أستعمل ضميراً يدل على جنس الجنين، وأشعر في كل مرّة أتكلم فيها عنه أنَّ الجميع ينتظر في أن أدعوه بـ هو أو هي؛ كي يصرّوا على أنني ارتكبت زلّة لسان تفصح عما أفضله في قرارة نفسي.

أخبركم بكل أمانة أنني لا أفضل أحد الجنسين على الآخر، كما أعتقد أنه من غير الملائم أن أفعل ذلك؛ لأنني سأصاب بخيبة أمل في حال سارت الأمور بشكل مغاير، وأشعر بما لا يقبل الشك أنني سأكون راضياً جداً في حال رزقت بطفل سليم ذي خلقة كاملة.

وتزعجني كثيراً فكرة أنه قد يكون هناك مقدار ولو ضئيل من خيبة الأمل.

وفي الحقيقة، يمكنني تصوّر الإيجابيات والسلبيات لكلا الجنسين فمثلاً، لدى صديقي ريتشارد ابنتان اثنتان وقد شرح لي مفصلاً كيف يقوم بتغيير (الحفاظة) لهما وفهمت من حديثه أنه في كل مرَّة تقوم فيها الطفلة بالتبول فسيكون مضطراً لتنظيف مهبلها من الداخل.

(أتوقف الآن؛ كي أدلي باعتراف. لقد استغرقت عشر دقائق وأنا أحاول طباعة كلمة «العضو الأنثوي» وكنت قد أخطأت مرتين في كتابتها قبل أن يختفي أخيراً ذلك الخط الأحمر من على شاشة الحاسوب، ويمكنني القول بثقة تامة: إنه لم يسبق لي أبداً استخدام مثل هذه الكلمة في حديثي كما لم يسبق لي معرفة أي شخص قام بذلك وفي حال قام أحدهم باستخدامها فإنني سأغير رأيي فيه مدى الحياة. وفي الحقيقة إن كلمة «العضو الأنثوي» أقل وطأة من كلمة «العضو الذكري» الرجل التي تعد أيضاً كلمة نادرة الاستخدام في الكلام، إذ لم يسبق لي رؤية شاب تم ضربه في منطقة حساسة من جسمه فوقع على الأرض وصرخ «آي! عضوي الذكري !» إننا لم نألف هذا من قبل، فهذه المصطلحات هي مصطلحات طبية محضة كمصطلح (نزف قحفي) التي يندر استخدامها في الكلام،

فلا أحد يتلقى ضربة في رأسه، فيقول: إن لديه نزفاً قحفياً، بل يقول: «إن رأسي ينزف » وسيقتصر استعماله لهذا المصطلح على الحالة التي تكون فيها الإصابة من نوع محدد جيداً، والأمر هو ذاته مع كلمة «العضو الذكري» وكلمة العضو الأنثوي»، لا بدَّ أنني أسهبت كثيراً في الحديث).

وفي حال كان ريتشارد يقوم بتنظيف «العضو الأنثوي» من الداخل لثمان أو تسع مرات، فهذا يبدو لي سبباً وجيهاً؛ كي أتمنى أن يكون المولود صبياً. على كلٍّ، إنَّ هذا ليس السبب الوحيد، ولكنه الأهم.

ومن ناحية أخرى، إنَّ من أهم الأسباب التي تجعلني أتمنى أن يكون المولود فتاة هو أنَّ ذلك سيمنحني فرصة التعرّف على المرأة منذ لحظة ولادتها كي أعرف فقط ما إذا كان بمقدوري فهمها. فأنا لا أفهم النساء أبداً. وفي الحقيقة، كلما توصلت إلى معرفة أي منهنَّ كلما قلَّ فهمي لها.

وستجد لدى معرفتك بهنَّ، أنهنَّ يتصرفن بطريقة متوقعة ولكن ذلك لا يعني أنك قادر على فهمهن. وفي حال رزقت بفتاة وتعرَّفت عليها منذ لحظة ميلادها فربما تتاح لي فرصة ولو ضئيلة لفهم الأشياء التي تكوّن شخصيتها وتجعلها تتصرف بطريقة معينة.

ملاحظة أوجهها لنفسي: دوّن هذه الأشياء في رسالة إلى الطفل الذي لم يبصر النور بعد، إذ أعتقد أنني كنت سأرغب في معرفة ما إذا كان أبي يفضّل لو كنت فتاة بقدر ما سأرغب في معرفة ما إذا كان أبي عارفاً أصلاً بحمل أمي بي، ربما لا يكون أبي مثالاً يحتذى به ولكنني ما زلت أعتقد أنَّ هذه الفكرة جيدة من أجل الرسالة.

اليوم اللاحق:

عدنا للتو من فحص الأمنيو وسارت الأمور على ما يرام وكانت زوجتي مذهلة، فقد وخزوا إبرة في معدتها مباشرة على بعد إنشين تقريباً من سرّتها وكاد يغمى عليّ، وكانت رغبتها الوحيدة هي الاطمئنان على صحة الطفل ويبدو أنه كان بصحة جيدة. إنَّ الجميل في الأمر كله أنَّ نهارنا كان غيرياً لا أنانية فيه على الرغم من أن زوجتي هي امرأة أنانية ومغرقة في الاهتمام بشؤونها الذاتية، ويوجد عبرة في ذلك أتمنى أن تستخلصوا ما هي.

ملاحظة أوجهها لنفسي: لا تتصل بالعمة إيدا لتطلعها على النتائج.

ما كان يجب عليَّ أن أكذب على عمتي، فعلى الرغم من حسن نواياي لم يكن عليَّ القيام بذلك. وكوني أعد الكذب أمراً غير مستحب فذلك لا يعني أنني لا أقوم به، إنني أكذب طوال الوقت وأعتقد أن الجميع يفعل ذلك ولكن بالنسبة لي فإن الطريقة التي يكذبون بها هي المهمة.

أعتقد أنه من الأفضل الفصل بين الناس الذين نهتم لأمرهم وبين أولئك الذين لا يعنينا أمرهم، ومن ثمَّ تقسيم كل مجموعة منهم إلى مجموعتين صغيرتين: الناس الذين نتشارك معهم بالكذب وأولئك الذين نكذب عليهم، فمثلاً لا أحاول أبداً أن أكذب على زوجتي ولكنني أكذب معها طوال الوقت وقد أصبحنا ماهرين جداً في الكذب معاً وخاصةً في رفض بطاقات الدعوة، فقد بلغنا الآن مرحلة يكون العذر فيها جاهزاً سلفاً حتى قبل فتح الظرف.

إنني أومن جداً بأهمية الكذب ولكن الأحداث التي حصلت معي بعد ظهر هذا اليوم ستجعلني أتذكر دائماً أنَّه لا شيء قد يشعرك بالامتعاض مثل الحقيقة.

لقد حصل ذلك معي في المطعم مما أفسد عليَّ غدائي وعكَّر مزاجي، وقد أزعجني ذلك كثيراً؛ لأنَّ وجبة الغداء هي الوجبة الرئيسة بالنسبة لي وقد اكتسبت ذلك من أمي على الرغم من أنها لم تكن تعدُّ وجبات غذائية لذيذة.

(في الحقيقة، إن العكس هو الصحيح، فعندما كنت في المرحلة الابتدائية لم يكن بمقدوري إكمال تناول شطيرتي أو كأس العصير إلاَّ وتقوم أمي باستعجالي).

إن والدتي هي معلمة مدرسة وأتذكَّر جيداً عندما كنت أقوم بزيارتها في أوقات الغداء كيف كانت دائماً في عجلة من أمرها، فهي - مثل طلابها - لديها وقت محدد لتناول الغداء، وعلى الرغم من أنني كنت طفلاً صغيراً إلاَّ أنني أدركت أنَّ هذا السلوك خاطئ، وقررت وأنا في سن السابعة أنني عندما أكبر فسوف أكون الشخص الوحيد الذي يقرر متى أتناول غدائي.

وهكذا، فإن الغداء هو شيء مهم بالنسبة لي، ومطعم فيتو الذي يملكه ويديره أناس إيطاليو الجنسية هو مطعمي المفضل، فأنا أحب الطعام الإيطالي، ولكن محبتي له تقل عندما يقوم بتحضيره ذلك الفتى الذي يدعى إيزي شوارتز.

أحب الطعام الإيطالي التقليدي، وبالنسبة لي فإن مطعم فيتو يحوِّل الحلم إلى حقيقة، إذ يمكنك أن تشم من مسافة بعيدة رائحة التوابل المنبعثة منه، وفي أغلب الأحيان أشعر بصعوبة بالغة عندما يكون عليَّ

أن أحدد ما الذي أريد أن أطلبه. كرات اللحم، أم دجاج البارميجيانا Chicken Parmigiana، أم الفليفلة المحشية، أم جبنة الموزاريللا الطازجة مع الطماطم؟ لقد اشتهيت ذلك الآن.

شعرت اليوم، وأنا أركن سيارتي في موقف السيارات بأنني أرغب في تناول شطيرة الباذنجان، ولدى دخولي المطعم، أدركت أنَّ هناك شيئاً مختلفاً، إنّه المذياع، فقد تمَّ وضعه خلف طاولة المطعم، وكانت تلك المرة الأولى التي أستمع فيها إلى المحطة التي أعمل لديها. إذ لم يسبق لي سماعها في هذا المطعم.

(وأعتقد في الحقيقة، أنها المرة الأولى التي أسمع فيها أي شيء في هذا المطعم، فهو عادةً يبدو كالمكتبة، إذ لا مجال للكلام؛ لأنَّ الجميع منهمك في تناول الوجبات اللذيذة).

وبعدها حصل ما حصل.

عندما حان دوري كي أطلب طعامي وعندما كنت على وشك أن ألفظ عبارة بدايتها: «مزيد من الصلصة» سمعت صوتي قادماً من المذياع، فانتظرت، وبالطبع كي أرى إذا ما كان أحد العاملين سيقول شيئاً.

«إنني أكره هذا المذيع».

لقد تمَّ لفظ هذه الكلمات باللكنة الإيطالية، اللكنة التي يتكلم بها جميع العاملين في المطعم، ولكنني فهمتها جيداً، ولم ينته الأمر عند هذا الحد.

«إنه مغرور» وأضاف شابٌ آخر كانت لكنته أكثر حدَّة، «وهو يتكلَّم كثيراً عن ملابسه، ومن يأبه لذلك؟».

وقال آخر: «هذا صحيح»، «إنَّه يشبه النساء في طريقة كلامه»، وأجمع الجميع على ذلك.

صرخ الشاب الذي كان يسألني ماذا أريد أن أطلب: «آلدو، كُفَّ عن ذلك الآن فأنت تزعج الزبائن».

وبعدها نظر إليَّ قائلاً: «آسف يا سيدي، ما الذي يمكنني أن أقدمه لك اليوم؟».

لقد شعرت أنني في مأزق، وكان أمامي ثلاثة خيارات:

1. **كان بمقدوري مواجهتهم من خلال التعريف عن نفسي**، ولكنني سرعان ما اكتشفت أن هذا مستحيل؛ لأنني سأظل دائماً ذلك الفتى الذي سلب منه معطفه قسراً من قبل فتاة وهو في الصف العاشر.

2. **كان بإمكاني أن أثور وأغضب** ولكن ذلك غير وارد أيضاً؛ لأنه مضى على انتظاري في الطابور خمس عشرة دقيقة.

3. **كان بإمكاني تغيير نبرة صوتي وأنا أطلب الغداء**، وهذا ما حصل فعلاً.

وبينما كنت أتناول شطيرتي، رحت أفكر أنَّ أقسى ما يمكن أن يواجهك لدى حصولك على عمل معروف للناس هو الحرية المطلقة التي يشعر بها الجميع في توجيه الانتقادات إليك ولا سيَّما أولئك الذين يعرفونك، فأنت لست عرضةً لذلك في المهن الأخرى، فقد كان أبي محامياً، ولم أرَ يوماً أنَّ أحداً اقترب منه، وقال: «إنَّ ذلك الاستجواب مخالف للقوانين ! يجب عليهم أن يستبدلوا بك محاميا آخر يعي ما يفعله !».

إنني أتعرض لذلك طوال الوقت.

إن أول انتقاد تعرَّضت له كان قد بدر عن حسن نية من رجل محترم متقدم في السن، وقد حصل ذلك في نادٍ رياضي، وإنَّ آخر ما كنت أتوقعه هو أن يقوم أحد المشاهدين بإخباري أنني فاشل بعد أقل من أسبوع على عملي في مجال التلفاز، ولكنه فعل ذلك بطريقةٍ لبقة ولطيفة.

«هيه، أنت غريني، أليس كذلك؟».

فأومأت برأسي موافقاً.

« إنك تقوم بعملٍ جيد جداً وأحب الاستماع إليك من المذياع ».

«شكراً لك».

«متى بدأت العمل في مجال التلفاز؟».

«حديثاً».

«أعتقد أنَّ عليك البقاء في مجال الإذاعة».

«ماذا؟».

«تبدو عفوياً ومسلياً جداً في الإذاعة ولكنك تبدو رسمياً على شاشة التلفاز، هل تكون متوتراً؟».

«إلى حدٍ ما ».

«من السهل ملاحظة ذلك، فأنت تحرِّك يديك كثيراً وأعتقد أنهم يضعون الكثير من المكياج على وجهك».

«حسناً».

«إنني أحاول مساعدتك فقط، فأنا من أشد المعجبين بك».

ومن سيضطر لكره الرسائل البريدية مع معجبين من هذا النوع؟

في الحقيقة، إنني أنال نصيباً وافراً من ذلك، وغالباً ما يكون ذلك عن طريق البريد الإلكتروني وأحياناً عن طريق الرسائل الصوتية عبر الهاتف، وإنني ما زلت أحتفظ بأول رسالة صوتية بغيضة كنت قد تلقيتها، إذ أستمع إليها في كل مرَّة أشعر فيها بالغرور.

«هيه، غريني، أريد أن أخبرك فقط بأنك شخصٌ أحمق ومغرور ومتعالٍ، إنك تظهر على الشاشة وأنت جالس بطقمك الفاخر وتعلو وجهك ابتسامة مزيفة، وأنت في الحقيقة مجرَّد أحمق مغرور، لقد كنت أفكِّر للتو أنه يجب عليك أن تعرف رأي المشاهدين بك، طاب يومك».

لقد حفظتها غيباً.

إنَّ في ذلك دليلاً واضحاً على أنَّ مهنتي هي الأكثر ظلماً من بين كل المهن الأخرى، فربما يكون ذلك الفتى ما زال ينظر إليَّ بالطريقة نفسها التي اعتادها على الرغم مما حققته من نجاح، وإذا اكتشفت ذات يوم من يكون ذلك الشخص فسوف أقوم بشكره؛ لأنه تمنى لي يوماً سعيداً، فتلك الجملة الأخيرة دائماً تجعلني أشعر بأنه يحبني في أعماقه.

إن معظم الشبان الذين يعملون في مجال عملي، يتعرضون للكثير من الانتقادات السلبية الموجهة إليهم، وبشكل خاص من قبل لاعبين ومدربين رياضيين نقوم بتغطية أخبارهم، ولكن لم يحصل معي طوال هذه السنين سوى مشاجرة وحيدة جديرة بالذكر - يا لسخرية القدر! - لم يكن لها علاقة بأي شيء قلته على الهواء.

إن اللاعب الذي تشاجرت معه هو ستيف بوتشيللي (Stev Buechele) وهو لاعب في فريق شيكاغو كابس (Chicago Cubs) وقد حدث ذلك في صيف سنة /1994/ قبل شهر من بدء اللاعبين الرياضيين بالإضراب الذي أدى إلى إلغاء بطولة وورلد سيريز (World Series) وقد كان الجميع يعلم أنَّ الإضراب آتٍ لا محالة، وكان فريق الجراء (Cubs) ـ إضافةً لما سبق ـ يشعر بالاستياء، وبدا الجو العام المحيط بهم في ذلك الصيف ضاغطاً جداً، ولم يبدُ لي من خلال تغطيتي لأخبار الفرق أنَّ أحداً منهم كان يتلهف لإنهاء الدوري بالسرعة القصوى.

وفي أحد الأيام وقبل ساعتين من بدء المباراة، كنت جالساً في غرفة تبديل ملابس اللاعبين قرب خزانة ستيف تراكسيل (Stev Trachsel) ـ وهو شاب ذاع صيته في رمي الكرة ـ أنتظر مجيئه لإجراء مقابلةٍ معه، وكنت في ذلك الحين غير معروف على الإطلاق، لذلك انزويت عند الخزانة وانتظرت بهدوء ولكنني أدركت في لحظة معينة أنَّ بوتشيللي ينظر إليَّ شذراً.

فسألته: «هل أستطيع مساعدتك في شيء؟».

فأجابني باستخفاف: «نعم، منذ وقتٍ وأنا أراقبك وأنت جالس هنا لا تتحدث مع أحد ولا تفعل شيئاً سوى أنك تشغل حيزاً من المكان ولدينا هنا الكثير من الصحفيين، فلماذا لا تخرج من هنا !».

لم أعرف ما الذي يجب عليَّ فعله ولكن حتى لو عرفت فذلك لن يجدي نفعاً، إذ كنت في حالة من الذهول والصدمة لا تخوِّلني فعل أي شيء فقلت له وأنا أحاول أن أبدو متماسكاً: «ليس عليَّ أن أشرح لك ما الذي أفعله

هنا، ولكن بما أنك سألتني فسأجيبك: إنني أنتظر ستيف تراكسيل (Stev Trachsel) الذي قال: إنه سيقابلني هنا، وإذا كانت لديك مشكلة في ذلك فعليك إخبار مكتب العلاقات العامة، وعندها ستعلم أنني مخوَّل للدخول إلى هنا ولديَّ كل الحق في ذلك».

فأجاب: «اذهب وانتظر في الركن المخصص للاعبين في الملعب وعندما يعود تراكسيل سأقوم بإبلاغه ذلك».

قلت له: «هذا ليس من شأنك أرجوك أن تتركني وشأني».

وعندها قام مسؤول المكتب الإعلامي بالتدخل فيما بيننا، وهو بلا ريب شاب جيد عرف أنني لم آت على فعل شيء خاطئ فهمس في أذني، قائلاً: «هل يمكنك أن تسدي لي معروفاً؟ اذهب وانتظر في ركن اللاعبين وأنا سأخبر تراتشسيل بأنك تنتظره هناك، وإني لا أجبرك على فعل ذلك بل أطلب منك مجرد خدمة».

وخرجت بعدها دون أن أشعر أنَّ كبريائي قد جرح.

وفي نهاية المطاف، فاز فريق الجراء (Cubs) بالمباراة نتيجة الرمية الطويلة للكرة التي نفذها ستيف بوتشيللي ونتيجة إحساسه العالي بالمسؤولية قام بوتشيللي بالمناداة عليَّ عندما رآني في الغرفة.

«هل تريد مني شيئاً؟».

بالطبع أريد، وذهبت إليه ومعي آلة التسجيل، وعلى الرغم من عدم اعتذاره مني إلاَّ أنه منحني مقابلة جيدة وبعدها صافحني، فخرجت من المقابلة بانطباع جيد عنه وهو أنه شاب لطيف ومتواضع وما زلت أشعر بهذا الشعور حتى يومنا هذا.

إن أكثر مرَّة غضبت فيها من لاعب بيسبول كانت مع اللاعب جاك ماكدويل (Jack Mcdowell) الذي كان يلعب حينها لصالح فريق وايت سوكس (White Sox)ـ وهو رامي كرة ماهر وواحد من أذكى اللاعبين الذين قابلتهم في الرياضة ـ وبالإضافة إلى ذلك، كان وما يزال عازف غيتار موهوب وملماً بكثير من الأمور التي لا يستطيع معظم الرياضيين إدراكها. ولكن بمقدوره أيضاً أن يكون أحمق نزقاً، وهذا الجانب من شخصيته هو الذي دفعني للنيل منه.

حصل ذلك في بطولة مباريات أوول ستارغيم (All-Star Game) التي جرت في مدينة بالتيمور وكنت أقوم بتغطية وقائعها لصالح محطة إذاعية في شيكاغو، إن ماكدويل هو واحد من ألمع لاعبي شيكاغو في لعبة البيسبول حقاً جعلني أمضي عطلة نهاية الأسبوع بكاملها وأنا أتعقبه محاولاً إجراء مقابلة معه ولكنه كان دائماً يتهرب مني واعداً إياي بأن يفعل ذلك لاحقاً.

في الحقيقة، لم يكن ماكدويل وقحاً ولكن الأمر أصبح مزعجاً، لأنني كنت بحاجة ماسّة لإجراء هذه المقابلة. وأخيراً وبعد أن تخليت عن الفكرة خاض ماكدويل المباراة وأحرز الفوز، وقد أصبح من الضروري عليَّ الآن إجراء مقابلة معه، ولكن لم أستطع العثور عليه، فقد اختفى في مكان ما في غرفة تبديل الملابس، وقد شعرت بتعاسة فظيعة عندما جمعت أغراضي وتوجهت إلى باب الخروج، إذ تعد هذه أول بطولة أوول ستارغيم (All-Star Game) أقوم بتغطيتها، وبما أنني فشلت في إجراء مقابلة مع هذا الرامي المنتصر، فقد كنت واثقاً من أنني سأطرد من عملي.

وعندئذٍ حصلت معجزة في المصعد.

كنت أفكر في صيغة طلب الاستقالة عندما فُتح باب المصعد وظهر ماكدويل أمامي وهو محاط بمجموعة من الأشخاص.

«جاك يجب عليك أن تمنحني هذه المقابلة الآن فذلك لن يستغرق منك وقتاً طويلاً»، قلت ذلك قبل أن يغلق باب المصعد ورائي. فأجاب:«لا أستطيع الآن فأنا ذاهب مع أصدقائي، أراك لاحقاً في شيكاغو».

«لكن يا جاك، طوال الأسبوع وأنت تعدني بذلك».

«متأسف يا رجل».

ولم يكن ماكدونالد قد التفت إليّ طوال المسافة المتبقية، وعندما وصلنا الطابق الأرضي، رأيت بحراً من طالبي التواقيع، ومن المؤكد وجود أكثر من ألف شاب يتراكضون هنا وهناك؛ بغية الوصول إلى أبطالهم، وقد سررت بهذا المشهد، فقد رأيت أمامي مباشرةً كال ريبكن (Cal Ripken) و مارك ماغوايير (Mark Mcgwere) و توني غوين (Tony Gwynn) وهم يقومون بمنح تواقيعهم لسيل عارم من المعجبين، فالتفت حولي لأرى ماكدويل الذي كان يتسلل بعيداً ويعتمر قبعة على رأسه تغطي عينيه ويحيط به أصدقاؤه؛ كي لا يتمكن أحد من رؤيته. لم يكن أحد من الجماهير قد تعرّف إليه وكان على وشك الهروب.

عندها خطرت لي فكرة.

أمسكت بأقرب مراهق وسألته وأنا أشير نحو ماكدويل: «أيها الفتى، هل تعرف من ذاك الشاب الموجود هناك؟».

«نعم، إنه جاك ماكدويل».

وفي أقل من عشر ثوانٍ، كان ماكدويل محاطاً بالناس من كل جانب، لدرجة أنني لم أعد ألمحه، وبما أنه لم يعد قادراً على الذهاب إلى أي مكان، قام بمنحي خمس دقائق من وقته لإجراء مقابلة معه بينما كان يقوم بمنح توقيعه للمعجبين. وتعدُّ تلك من أروع اللحظات التي مرَّت عليَّ في عملي.

إنَّ السؤال المطروح الآن: ما علاقة ذلك كله بإنجابي طفلاً؟.

الجواب: لا شيء البتَّة.

ما الذي يمكنني قوله؟ إذا كان من المفروض بي أن أكتب عن الأمور التي تسبب لي القلق ـ حسناً ـ إنَّ إنجاب الطفل هو السبب في ذلك في الوقت الحاضر.

وبالإضافة إلى ذلك، فإن ما يزيد من شدة قلقي هو الوعد الذي قطعته للدكتورة غراي بأن أكتب مذكراتي بشكل يومي، والآن وبعد مضي خمسة أشهر على هذا الوعد لم أفعل ذلك سوى بضع مرات.

وفي الحقيقة، إن ما سيجعل مني أباً فاشلاً هو بالتحديد ذلك الافتقار إلى الانضباط والنظام.

وخلاصة القول: إنني ودون شك سأصبح أباً فاشلاً، وهذه حقيقة مجرَّبة يمكن استخدامها بوصفها مسلَّمة لنظرية رياضية متقدِّمة. إنَّ لكل سببٍ نتيجة حتمية.

فإذا كان السبب هو A فإن النتيجة هي B:

A = ليس بمقدوري تخصيص ولو دقيقتين كل ليلة لتدوين أفكاري على عجل.

B = إذاً من المؤكد أن ينتهي المطاف بابني ذات يوم قرب أحد المباني

البرجية (bell tower) حاملاً سلاحاً نصف آلي ويصرخ ثائراً ضد ظلم النظام الرأسمالي.

في الحقيقة، يجب عليَّ التصرف بطريقة مسؤولة، وقد بدأ هذا الشعور بالظهور لديَّ للتو، ولكنني أشعر بأنَّ ذلك يبعث على الضحك.

إن ما سأقوله الآن هو مثال جيد آخر يوضح كيف أن عملي هو عمل استثنائي. إنني وبخلاف الطبيب أو المحامي أو الصيدلي أو سائق سيارة الأجرة أو أي أحد آخر، أصبح شخصاً مختلفاً تماماً مدة أربع ساعات يومياً، ولا أقصد بهذا أن شخصيتي الإذاعية هي شخصية مزيّفة، إذ لن يكون بمقدورك أن تنافق؛ لأنه سرعان ما يكتشف أمرك، ولهذا يجب عليك دائماً أن تبقى طبيعياً وعفوياً، ولكن العفوية التي تظهرها خلف الميكرفون مختلفة عن عفويتك في أي مكان آخر، ومعرفتي هذه هي ناجمة عن تجربتي اليومية.

لقد كان اليوم مثالاً حياً على ذلك.

إنني شخص مسالم إلى أبعد حد (سأشرح لكم السبب بعد قليل).

لقد بدأت في سن مبكرة ـ عن سابق إصرار وتصميم - حضور مباريات كرة السلة مذ كنت في الثانية عشرة من عمري. وإن ما حصل معي اليوم في عملي، هو أن أحد الشباب قام بمشاكستي على الهواء، فقمت بالرد عليه. إنَّ هذا ما يدفعني لحب الإذاعة؛ لأنه لو شاجرني الشاب نفسه في أحد المطاعم، فربما كنت سأجبن وألوذ بالفرار عبر المطبخ.

لقد بدأ ذلك جرّاء تعليق أدليت به حول ظهير فريق (قراصنة مينيسوتا) وانتهى الأمر بالمتصل إلى اتهامي بأنني لست صحفياً، فأجبته على الهواء مباشرةً: «أعلم أنني لست صحفياً، والفرق بيني وبين الآخرين هو أنني على الأقل أعرف مَنْ هو الصحفي، ولست واثقاً كم من الشبان الذين شاركوا معنا على الهواء اليوم قادرين على تمييز الصحفي عن غيره».

فقال الشاب: «حسناً، إنني لا أفهم كيف تستطيع الجلوس هناك كل يوم وتدلي بآرائك حول الرياضة وأنت قد لا تكون حتى ممارساً لها».

أجبته قائلاً: «إنها فكرة جيدة، دعني أطرح عليك سؤالاً: هل سبق لك أن قمت بتقديم برنامج إذاعي؟».

«كلا».

«إذن كيف تخبرني أنني مقدّم برامج فاشل إذا لم يسبق لك فعل ذلك؟».

قال الشاب: «ليس عليّ تقديم برنامج إذاعي لأعرف أنك فاشل».

فأجبته: «إنني أوافقك الرأي، وأنا ليس عليّ اللعب في البطولة الوطنية لكرة القدم لأعرف أنَّ (دونت كالبير) ليس لاعباً جيداً كما يظنه بعض الناس!».

عندها أنهى المتصل مكالمته وقمت أنا بأخذ فاصل إعلاني وعندما عدت على الهواء، كان في جعبتي الكثير؛ كي أقوله عن هذا الموضوع.

قلت: «إنَّ المشكلة برّمتها، من وجهة نظري ناجمة عن شعور عدم الثقة المتجذر في نفوس الأميركيين نحو وسائل الإعلام، وإنني لا ألومهم على ذلك، فالحقيقة هي أنَّ هناك الكثير من الصحافة السيئة خارج هذا المكان، وغالباً ما يكون معظم الأشخاص الذين يطلقون

على أنفسهم اسم صحفيين هم في الواقع متخصصو إعلام، إذ يعرفون عن (إدوارد سيسورواندز أكثر ما يعرفونه عن (إدوارد آرمورو وجلّ غايتهم هي أن يكونوا سباقين في هذا المجال، وهنا تكمن مأساة الصحافة الحالية: إذ يعتقد الجميع أن الهدف هو الوصول إلى الخبر قبل الآخرين بينما من الواجب أن يكون الهدف دوماً هو الوصول إلى الخبرالصحيح».

وبعدها توقفت، وسيكون بمقدورك تعلم هذا بعد بضع سنين من ظهورك على الهواء، حيث إن الأمر الأساسي في العمل الإذاعي هو معرفة متى يجب أن تتوقف.

الآن، إذا أردتم معرفة السبب الحقيقي في انتقاد الناس لوسائل الإعلام، فهو اعتقادهم بأننا منحازون، وكل ما أستطيع قوله عن ذلك هو ما يأتي: (بالطبع نحن منحازون)، وعلى الرغم من ذلك، هل يمكن للصحافة أن تكون إلا من وجهة نظر الصحفي؟

إن معظم العاملين في مجال الصحافة لديهم رغبة حقيقية في إيصال الحقيقة، ولكن هذا ما يستدعي سؤالاً مهماً: ما هي الحقيقة؟ إن الحياة ليست مادة رياضيات، كما أنها ليست أبيض وأسود، بل هي درجات متفاوتة من اللون الرمادي، وبصرف النظر عن أنّ الصحافي يحاول جاهداً تجاهل نزعاته، إلاّ أنّ غريزته ستقوده دائماً لتفسير الأشياء بشكل مختلف عن تفسير الآخرين لها، وهذا ليس انحيازاً من قبل وسائل الإعلام، بل هي الحالة البشرية، وإن أي تحليلٍ مخالف لذلك سيكون غير واقعي ومضيعة للوقت.

وهكـذا أنهيـت برنامجي لهـذا اليـوم وسأحتفظ لنفسـي بنسخة عنه وأعتقـد أننـي سأفعـل ذلك مـن الآن فصاعـداً كما سأواظـب على كتابة مذكراتـي، فقد أقوم ذات يوم بإطلاع طفلي عليها وربّما ستكون أو سيكون قادراً على فهم ما كنت أقصد قوله.

على كلّ حال، وعدت بأن أشرح لكم لِمَ أصبحت مسالماً جدّاً؟

لقد بدأ ذلك في صالة ماديسون سكوير غاردن، وكنت حينها في المرحلة الإعدادية، وكان من السهل في تلك الأيام الحصول على بطاقة لمشاهدة فريق (نيكس) وهم يلعبون كرة السلة، ربّما لأن بطولة (NBA) في كرة السلة لم تكن شائعة في ذلك الوقت، وربّما لأن فريق (نيكس) ليس فريقاً جيداً، فقد كنت أشتري مع أصدقائي بطاقات بقيمة - ستة دولارات - وهذا يعني جلوسنا على بعد ثلاثة أميال تقريباً عن أرض الملعب - ولكن لا يشارف الربع الأول من المباراة على الانتهاء حتى نكون قد أصبحنا في المقاعد الأمامية (إنك بحاجة لبيع كليتك في المزاد العلني حتى تتمكن في يومنا هذا من دفع ثمن بطاقة لمقعد مماثل لهذه المقاعد).

لقد كان اللاعب المميَّز في فريق (نيكس) في ذلك الحين هو (بيل كارترايت) والذي فاز لاحقاً مع (مايكل جوردان) في بطولات شيكاغو. كان كارترايت قد وصل إلى نيويورك وسط الكثير من التوقعات ولكنه لم يرقَ إلى مستوى تلك التوقعات فهو لاعب عادي عندما يكون في أفضل حالاته، وكثيراً ما كان يتعرض للإصابة مما يجعله مثاراً لسخرية المشجعين، وخاصة أولئك الذين تقارب أعمارهم سن الثانية عشرة ويجلسون في مقاعد باهظة الثمن.

انتقدته بصوتٍ عالٍ في إحدى المرّات: «كارترايت، أنت لاعب سيئ! وإنهم يدفعون لك أكثر مما تستحق!».

(أعرف أن انتقاداتي قد تحسنت منذ ذلك الحين)

وفي الربع الثالث من المباراة أتى المرشد الذي يدلّ الناس على مقاعدهم وهمس في أذني: «أيها الفتى، أعتقد أنك ترغب بمعرفة من تكون تلك السيدة الجالسة إلى جوارك، إنها زوجة بيل».

«أيُّ بيل؟».

«بيل كارترايت».

ما زلت أذكر الإحراج الذي بدا على وجهها.

ومنذ ذلك الحين لم أقم بالتهكم على أحد كما أنني أبذل ما بوسعي لتجنب الصدام، وهذا ينطبق على كل علاقاتي باستثناء علاقة واحدة، وهي علاقتي مع الإذاعة، إذ لن يثنيني شيء عن قول ما أريده على الهواء، ولهذا السبب أحب عملي كثيراً، فأنا مستعد لقول أشياء على الهواء لن يكون بوسعي أبداً أن أقولها لك وجهاً لوجه.

أخذت زوجتي الليلة لحضور افتتاح معرض فني جديد وهناك شربت حتى الثمالة، فزوجتي تحبُّ حضور افتتاح المعارض وعلى الرغم من حبي للفن فإنني أعد افتتاح المعارض أمراً مملاً. إنَّ الغاية من الفن، بالنسبة لي، هي إيجاد تواصل مع الفنان ويتطلب ذلك الكثير من التركيز الذي يتم القضاء

عليه من قبل أولئك الرجال المخنثين الذين يرتدون كنزات ذات ياقات ضيقة ويثرثرون دون توقف عن مكونات اللوحات في حين تحاول فاجرات المجتمع تقرير مَن مِن هؤلاء على صواب. في الواقع، إن افتتاح المعارض هو استعراض أكثر من كونه معرضاً فنياً، وبما أنه لا رغبة لدي في التواصل مع هؤلاء الناس الموجودين في هذا المكان، كنت أجد نفسي منصرفاً إلى الشرب.

تلك هي اللحظات التي أشعر فيها بالمتعة.

عندما يقولون لك: إنَّ الحياة قصيرة، فإنهم مخطئون جداً؛ لأن الحياة طويلة جداً وهي - في معظمها - كئيبة وعادية، كما أنَّ جمال الحياة ـ في حال وجوده ـ يكمن في لحظة فريدة أو عدة آلاف منها، وفي حال كنت محظوظاً فربما تحصل على نصف دزينة منها في اليوم، عد إلى منزلك الليلة وفكر في قرارة نفسك: توقفت اليوم عن التفكير لست أو سبع مرّات وبعدها اذهب للنوم واطمح أن يحالفك الحظ من جديد غداً. والخلاصة هي: كل ما يجب علينا فعله أن...

الصباح اللاحق

أرغب في الاعتذار عن النهاية المفاجئة لما سبق، فقد كنت في تلك الليلة متوتراً ولم ألحظ أنّ بطارية حاسوبي المحمول كانت بحاجة للشحن، فبالكاد نجحت في الضغط على زر «حفظ» والآن لا أستطيع التذكر إلى أين كنت سأمضي في ذلك.

وأعتذر أيضاً عن كل كلمة قلتها، ليس لأنها مجرد ثرثرة لا معنى لها، ولكن أيضاً لعدم معرفتي حتى بمعناها، وأعتقد أن ما كنت أحاول قوله هو الآتي: في حال حدوث أمر أو أمرين ممتعين في افتتاح معرض الليلة

الماضية. فهذا سيجعل من الأمر برمته أمراً جديراً بالتحمّل، وأنا لست واثقاً من أنَّ رأيي لن يتغيرَّ بعد عشر ساعات.

لقد بدأ ذلك المساء بتجهّم وجه زوجتي بعد أن سألتني أيّ حذاء أفضّل، فاخترت لها من ماركة (برادا) عندها تجهمت؛ لأنها كانت تميل إلى انتقائه إلاَّ أنَّ موافقتي سببت لها الارتياب، وبعدها غابت مرّة أخرى وبقيت أنا جالساً على الأريكة أقدم لها الإطراءات.

في تلك اللحظات التي تكون فيها زوجتي في قمة جنونها، أدرك تماماً مدى حبي العميق لها، وهذا ليس من باب المصادقة، فجنونها يذكرني بأنَّ كل النساء مجنونات وأنَّ الأمر المهم هو إيجاد امرأة تناسبك حالتها.

عندما أفكر في مجموعة المضطربات عقلياً وعصبياً اللواتي عرفتهن أيام العزوبية، أشعر كم أنا محظوظ؛ لأنني وجدت امرأةً أغرب ما تتصف به هو قدرتها على صرف النقود، إنَّ أصدقائي الذين قمت بتزويجهم يتحدثون بشوق في بعض الأحيان عن أيام العزوبية وأغلب الظن أنه لم يعد لديهم ما يتكلمون عنه، وإذا لم يكن هذا هو السبب فهم مجانين بالفطرة، فأولئك الذين يحنّون إلى تذكّر أيام العزوبية السابقة يتناسون كل الإخفاقات التي مرّوا بها، ويركّزون فقط على الليالي الرائعة القليلة التي قضوها في حياتهم. إنَّ تلك اللحظات هي لحظات فريدة وسريعة الزوال في خضمّ تجربة مريرة، وإذا كان ذلك كل ما ترغب في تذكره فهذا أمر جميل، لكن عليك أن تدرك جيداً أنَّ كل تجربة تحمل في طياتها لحظات جيدة (إنني واثق تماماً أنه خلال تدمير روما، كانت هناك بعض الليالي الهادئة، وربما كانوا يعرضون المسرحيات).

إنني شخصياً غير قادر على تذكّر أيام العزوبية دون أن أصبح معتلاً جسدياً.

ذهبت هذا الصباح لرؤية الطبيبة غراي وقد كانت الجلسة ناجحة، ولكن كالمعتاد لدي بعض الملاحظات وأهمها قدرتها الملحوظة في جعل الأمور البسيطة تبدو معقّدة. إليكم هذا المثال: أخبرتها أنني أشعر بالذنب نتيجة عدم إحساسي بالبهجة فيما يتعلق بقدوم الطفل. وفي الحقيقة، إنّ مشاعري أبعد بكثير من تلك التي أظن أنها تسبب لي الذعر والخوف، وأخبرتها أنني غالباً ما أشعر بالذنب من طريقة تصرفي تجاه المواقف التي يُفترض أن تشعرني بفرحة كبيرة.

واليكم ما قالته: «مايكل، إنّك ميّال للشعور بالذنب».

وبعدها أومأت برأسها فأومأت برأسي، وكأننا قمنا باكتشاف عظيم، ولم أدرك أننا قلنا الشيء ذاته إلا عندما ركبت سيارة الأجرة.

وهذا يجعلني أشك بأن الأمر ليس مجرد مضيعة للوقت، إذ يبدو لي أنَّ كل ما تقوم به الطبيبة هو تشجيعي على إخبارها بكل الأشياء التي أعرفها أصلاً، وبعدها تعيد إخباري بما قلت لها بطريقة أكثر تعقيداً. وكلانا يتصرّف وكأنه قد حقق تقدماً، ولكن أين هذا التقدم الذي أُحرز إذا كان كل ما علمناه هو شيء نعلمه من قبل؟ ربما تكون هي من أحرز تقدماً، أمّا أنا فكل ما أفعله هو الدوران في حلقة مفرغة.

إذاً لماذا أدفع لها نقوداً؟

ربما من أجل إيماءات رأسها، وربما يكون جلُّ ما أحتاج إليه فعلاً هو المزيد من الإيماء بالرأس.

مـا أرغب في قولـه اليوم وبصرف النظـر عن أهميته، هـو أنني أشعر بالتأثـر إلى حـد مـا من فداحـة ذلك كلـه، فأنا لم أعـد أشعـر بالبهجة أو السعـادة أو الفـرح أو النشوة الكبـيرة التي كنت أشعر بهـا أحياناً لدى استماعـي إلى (مـوزارت أو ألفيس كوستيللـو Elvis Costello) أو لدى مطالعتـي لأعمـال (جـون إيرفينـغ John Irving) أو لـدى رؤيتـي لوحة (غرنيكا لبيكاسو Picassos Guernica)، أو مشاهدة أفلام (وودي آلن) الرائعة فعلاً. إنني أدرك أنَّ كل شيء في حياتي على وشك التغيير، وأحاول جاهداً منع نفسي من الميل إلى الاعتقاد بأن التغيير هو دائماً نحو الأسوأ.

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://twitter.com/SourAlAzbakya

مـن ناحية أخـرى، أعتقد أنني غير قادر على تصديـق أنّ ذلك «اليوم المستقبلـي قد أصبح حاضـراً الآن، ولا أستطيع تحديـد موقفي من ذلك، فقد اعتدنا أن يكون اليوم المستقبلي يوماً محتملاً مجهولاً سلساً، إنه موعد بعيـد جداً في المستقبـل ومن المؤكّد أنَّه لـن يصل أبـداً، وإن الشعور الذي سأشعـر به في حـال وصوله سيكون مفعمـاً بالإثارة، وهـذا الشعور يسبب خيبـة أمل؛ لأنني أظـن أنَّ اليوم المستقبلي يفقد الكثـير من رونقه عندما يصل في أوانه.

شهور الحمل الأخيرة: فوضى عارمة.

يا له من خطأ فادح!

كنّا في يوم الخميس نتناول الغداء مع أخي وزوجته وكانوا يشتكون من عدم قضاء عطلة معاً منذ ولادة ابنهم، ولا أعرف ما إذا كان تصرفي هو بدافع القرابة أو من غير ذلك، لكن فجأة سمعت نفسي أقول: «لماذا لا تتركون (إدغار) معنا وتذهبون لقضاء عطلة نهاية الأسبوع معاً؟

لم يكن أحد قد ارتكب خطأً فادحاً كهذا منذ قيام (بيل باكز) لاعب فريق بوسطن بإضاعة الكرة في بطولة (وورلد سيريز).

وفي اليوم اللاحق نزلوا في فندق يقدّم المنامة والإفطار (B&B) في مدينة (فيرمونت)، وبينما كانوا يتناولون الفطائر الطازجة، كنت أنا رهين منزلي.

يبلغ (إدغار) من العمر ثلاث سنوات تقريباً وقد سمي بهذا الاسم نسبة إلى والد أمّه الذي لم تتح لنا أنا و(إدغار) فرصة اللقاء به. وقد يكون (إدغار) هو الولد الأميركي الوحيد الذي سمي بهذا الاسم خلال الأربعين سنة الماضية ولكنه بشكل عام طفل محبوب على الرغم من وجود صفتين غير مستحبتين فيه.

الأولى هي أن أنفه صنبور مفتوح، ففي كل عام يبقى أنف إدغار في حالة سيلان دائم من تشرين الأول إلى آذار، وتلقي أمه باللوم على روضة الأطفال وتقول: إنه إذا أصيب أي طفل في صفه بالزكام فإنه يعدي الجميع وبالطبع لن تتوقف هذه الدورة حتى الربيع. حسناً، حتى ولو كنت كثير الشك إلّا أنني متأكد من أنني رأيت في أشهر الشتاء أطفالاً في مثل سنه، ولم يكن أنفهم يسيل.

وفي كل مرة كان يعانقني فيها يعني كرهي للكنزة التي أرتديها، ومع انتهاء هذه العطلة كنت قد رميت كنزة ذات قبة ضيقة واستعملت وشاح ماركة (فارفاتوس) على أنه منديل.

ملاحظة أوجهها لنفسي: قم برحلة إلى منتجع (غاب) قبل ولادة الطفل.

إنَّ المشكلة الأخرى التي عانيتها من (إدغار) هي طاقته اللامتناهية، فهو لا يتوقف عن الحركة منذ لحظة استيقاظه وحتى وضعه قسراً في سريره، إذ يقوم بالركض والقفز والصراخ والبكاء ورمي الكرات وركل القطط ومطاردة الكلاب والتدحرج في الوحل والتخبط في البرك الصغيرة التي أحدثها المطر وطمر نفسه في الثلج الذي كدسته الريح وتغطية نفسه بالمثلجات وتكسير الألعاب والقفز عن الأسوار والاختباء، وفي أثناء ذلك كلِّه لا يتوقف عن طرح الأسئلة، غالباً ما تكون الدقائق الخمس الأولى رائعة أما الخمس عشرة دقيقة اللاحقة فهي كفاح مضنٍ ومع مضي ساعة من الوقت يصبح الأمر مرهقاً وأي شيء بعد ذلك هو عذاب مرير، وأعتقد أنه في حال حُكم على مجرمين خطيرين بالسفر جواً إلى هاواي مع ابن أخي، فإن إمكانية إعادة إصلاحهم ستقل إلى النصف قبل أن يصلوا إلى لوس أنجلوس.

إنَّ الشيء الآخر الذي اكتشفته في هذه العطلة هو أنَّ الصبي غير مدرَّب تماماً على دخول المرحاض وما أعنيه هنا هو قدرته على استعمال المرحاض في أثناء مدة استيقاظه، أمَّا في الليل فهو ينام بحفاظة وقد كانت حركة أمعائه الغليظة ـ على الأقل هذه العطلة ـ نشيطة في أثناء الليل حصراً.

كيف يمكنني أن أبدأ بوصف الرائحة التي فوجئت بها في أثناء فتحي باب غرفة الضيوف صباح السبت؟! إنني مندهش من أنّ الرائحة لم تحرق حاجبي وكل ما استطعت التفكير فيه هو تغطية أنفي وفمي بربطة عنق سميكة، وبعدها أحضرت كيس قمامة من المطبخ وأوقفت الطفل في داخله، بينما رحت أنزع عنه الحفاظة أما ما بقي عالقاً على جسمه فكان أشبه بطبقة سميكة من الحلوى المصنوعة من البيض والقشدة المخفوقة،

ثم رفعته من تحت ذراعيه ووضعته على خزانة الأطباق بعد أن قمت بتغطيتها بشرشف كنت مضطراً للتخلي عنه، وبينما مددت الصغير على الخزانة وأمسكت به بيد واحدة، قمت بسرعة بسحب مناديل التنظيف من حقيبته. وفي هذه الأثناء كنت أتصبب عرقاً وكان إدغار يركلني وأدركت باشمئزاز أن قدمه قد لامست كومة المناديل المتسخة وأنَّ عقب قدمه قد تلوّث، وشعرت أنّ قدمه بدأت بفرك قميصي، عندها قمت بحمله وركضت به إلى الحمام. لقد كانت أول مرّة في حياتي أدخل فيها الحمام وأنا مرتدٍ ملابسي ولكنني لم أكن قادراً على خلعها من دون أن أنزل إدغار إلى الأرض وهذا بالطبع لن يحصل. ها نحن كلانا في الحمام، أنا مرتدٍ ملابسي وأمسك بالطفل رأساً على عقب من أقدامه؛ كي أسمح للماء بالوصول إلى ما بين ساقيه بينما راح (إدغار) يغني: «إنها تمطر، إنها تمطر بغزارة».

أما بالنسبة للغداء فكان مكرونة و جبنة، وأصرَّ إدغار على استخدام أدواته الخاصة، ويكفي القول: إنه مع نهاية الوجبة كانت الجبنة قد غطته، ولكن ذلك لم يزعجني كثيراً، فبعد التعامل مع مادة كانت ستجعل أكثر المجرمين خطورة يفرون بعيداً، فإن إزالة الجبنة عن رأسه أمرٌ لطيفٌ نسبياً.كانت الجبنة سميكة أيضاً وبدت وكأنها ستسبب له الإمساك فإذا نوى هذا الولد تحريك أمعائه مرةً أخرى فسأحتاج إلى قطعة آجر؛ كي أستطيع إزالة القذارة العالقة عليه.

ولكن ذلك لم يحصل.

في الحقيقية لا توجد لدي فكرة عن عمل المعدة والأمعاء لدى طفلٍ يبلغ من العمر ثلاث سنوات، ولكن بطريقة ما أدى الاستقلاب السريع والفعَّال لدى إدغار إلى تحريكٍ عنيف لمرق الجبنة الكثيف الموجود في معدته وحوّله

إلى قطع صغيرة وجدتها في حفاظته عندما استيقظ يوم الأحد. إنَّ كل ما استطعت القيام به هو الذهاب إلى المطبخ وتناول كأس من شراب (جوني وولكربلو).

وبعدها وجدت نفسي في جدال مع زوجتي فيما إذا كان مسموحاً لإدغار مشاهدة مباراة كرة القدم معي أم لا.

«اعتقدت أنَّ الغاية الأساسية من مشاهدته للمباراة هي قضاء الوقت مع العم (مايك)، فأجبتها: «بصراحة إنني عازم على قضاء وقتي في مشاهدتها».

«لكن والدته قالت: إنها لا تسمح له بمشاهدة التلفاز لأكثر من ساعة يومياً».

قلت لها: «لا ينطبق ذلك على الرياضة».

فأجابتني قائلة: «ولماذا لا ينطبق ذلك على الرياضة».

«لسببين: أولهما أنْ ليس بمقدورك مشاهدة مباراة كرة قدم لساعة واحدة وهذا أمر مضحك، وثانيهما هو أن مشاهدة البرامج الرياضية ليست كمشاهدة برامج التلفاز الاعتيادية».

فسألت: «وكيف تكون مشاهدة البرامج الرياضية مختلفة عن مشاهدة برامج التلفاز الاعتيادية إذا كنت ستجلس على الأريكة وتتابع البرنامج الرياضي بالطريقة نفسها التي ستفعلها إذا ما كان البرنامج هو (افتح يا سمسم).

كان من المستحيل أن أكسب هذا النقاش، كما أنه من المستحيل أيضاً شرح كيفية اختلاف مشاهدة البرامج الرياضية عن غيرها من البرامج الاعتيادية، فإما أن تدرك ذلك أو لا تدركه، وبالطبع زوجتي لم تدركه.

وبعدها شاهدت مع إدغار الشوط الأول من مباراة كرة القدم وهذا كان كل شيء.

وأخيراً عندما وصل أخي في الساعة الخامسة، قمت بإخباره كم كانت العطلة رائعة، ثم التفت إلى زوجتي وقلت لها: إنني متلهف للذهاب إلى العمل، كي أشعر بالراحة. إذا كان هذا ما سيؤول إليه حالي بصفتي أباً فأنا لن أكون ناجحاً أبداً في ذلك.

إنَّ قراءة ثانية لذلك المقطع الأخير بعد أن عشت أحداث الليلة الماضية ستجعلني أعتقد أنّه بحاجة إلى تعديل، والاستنتاج الذي توصّلت إليه بعد مضي أسبوع على كتابة ما سبق، هو استحالة أن تكون التجربة التي عشتها بصفتي أباً أكثر إرهاقاً من مدة الحمل نفسها، فعلى الرغم من صعوبة التعامل مع إدغار والسيطرة عليه إلاّ أنني كنت الرابح دوماً في أي حوار معه أما في حالة زوجتي فالوضع مختلف تماماً، إذ لم يسبق لي الفوز في أي حوار معها قبل أن تصبح حاملاً، فكيف الآن وهي حامل، إنني واثق من فوزها في أي مناظرة مع (لينوكس لويس).

أعتقد أن من الواجب عليّ تفسير ما حصل في الليلة الماضية، لكن خذ حذرك، فذلك ليس لضعاف القلوب وإذا كنت ممن يضعون منظماً لضربات القلب فألقِ حالاً هذا الكتاب جانباً. سنعود إلى الوراء اثنتي عشرة ساعة، إلى لحظة وضوح تمّ فيها بالدليل القاطع إثبات ما يعتقده الرجال منذ بدء الزمن وهو أنَّ مدة الحمل شيء فظيع.

على الأرجح إنها شيء فظيع؛ لأنه من المستحيل معرفة كيفية التعامل مع زوجتي، فكل شيء أقوم به ـ مهما بذلت من جهد ـ يقابل بعدم الرضا، وبالإضافة إلى ذلك، إنَّ أي شيء لا أقوم به يفسَّر على أنَّه عدم تعاطف أو عدم تفهم للصعوبات التي تعانيها، وأي شيء أقوم به فيما عدا ذلك فهو يُفسَّر على أنه عدم مبالاة.

إنَّ ما يزيد الأمر سوءاً هو أنَّ زوجتي امرأة لا تتحمل الانزعاج أبداً، والآن هي منزعجة إلى أقصى حد.

بادئ ذي بدء، إنها غالباً ما تشعر بالحرارة وهذا أمر يثير الأعصاب، إذ كانت زوجتي امرأة تشعر بالبرد دائماً وقد أحضرت معها كنزات صوفية إلى جزيرة (مووي) (إحدى جزر هاواي) أما الآن فهي تشعر بالحر الشديد وهذا الشيء أفقدني توازني تماماً فبعد أن أصبحت معتاداً على النوم ومنظومة التدفئة تعمل في شهر تموز، بتُّ أجد نفسي أيام السبت في مخازن الأدوات المنزلية لشراء مراوح عملية.

ثانياً، في الوقت الذي اعتادت فيه على تغيير درجة حرارة جسمها، بدأت تعاني من الإسهال، وهذا أمر قاسٍ جداً، إذ لا شيء تستطيع زوجتي أكله إلا وتكون قد هضمته قبل أن أنهي مضغ طعامي، ويجدر القول: إن معدة هذه المرأة غير قابلة على تقبل كل أصناف الطعام حتى في أفضل حالاتها (مثال توضيحي على ذلك: لقد حاولنا ـ خلال شهر العسل ـ دون جدوى أن نشرح لموظفي الجمارك في مدينة (كازابلانكا) لماذا نصطحب معنا علب التونا والكيك في أثناء سفرنا، وسيضيع نصف عمرك إذا لم يتم استجوابك من قبل خمسة رجال لا يتكلمون إلا العربية).

وفي كل الأحوال، عندما لا تكون زوجتي متعرّقة أو مسرعة إلى الحمام، فهي تكون منشغلة في الصراخ عليَّ بصرف النظر عن الذنب الذي اقترفته، وفي الحقيقة، غالباً ما يكون الصراخ على أمور لم أفعلها، كما أنَّ نغمة صراخها تختلف وفقاً لمستوى انزعاجها، إلا أنَّ الجملة الأخيرة هي دائماً نفسها:

«إنَّك لا تدرك مدى معاناتي».

تلك هي الجملة الأساسية خلال مدة الحمل، فمنذ بداية الزمن، لم يكن الرجال قادرين على فهم ما تعانيه زوجاتهم، وما يزيد الأمر سوءاً هو عدم مرورنا بتجربة مماثلة، لذلك كل ما نستطيع فعله هو المحافظة على هدوئنا قدر المستطاع وتجنب زوجاتنا إذا لم يكن من ذلك بد. ومهما حصل لا تمزح بهذا الشأن.

لقد اكتشفت ذلك نتيجة خطأ ارتكبته الليلة الماضية.

إنَّه حفل عشاء لخمسة أزواج، وعليك أن تعرف أنَّه في مثل هذه المناسبات يُلقى عليَّ ضغط كبير من حيث معرفة كل ما يمكن معرفته عن الرياضة كما يجب أن أكون مسلياً، وليس من السهل دائماً تحقيق هذين الشيئين في الوقت نفسه. وعندما جلسنا لنتناول العشاء مع أصدقائنا الأطباء، بدأ الجميع باستشارتي في قضايا رياضية، وأخذ أحد الأطباء يخبرني أن حضوره مباراة تنافسية في كرة السلة يلعب فيها ابنه هو أصعب أمر وجب عليه القيام به، وقال: إنه يصبح عصبياً جداً لدرجة لا يستطيع معها البقاء في الصالة. وفي المقابل أخبرتهم كيف قام ذات مرّة (فيل جاكسون) بإخباري أن مزاجه العصبي مدرباً فاق كثيراً مزاجه لاعباً، إذ

ليس بمقدوره التحكم في طريقة اللعب. (في الحقيقة، إنَّ فيل لم يقل لي ذلك أبداً، ولكن ما قلته جعل القصة أكثر إثارة). لقد جذبت انتباه جميع من كان على الطاولة، وهكذا أكون قد أنجزت الجزء الأول من واجبي. أما الآن فيجب عليَّ القيام بالجزء الثاني وهو أن أكون مسلياً.

قلت لهم: «هل تعرفون، إنَّ هذا أشبه بحال أب ينتظر مولوداً، إذ لا تشعر إلاَّ بالعجز واليأس، وأحياناً أعتقد أنَّ مدة الحمل أصعب على الزوج منها على الزوجة».

هل تتذكرون الإعلان التجاري عندما يكون (إي إف هاتون E.F.Hutton) على وشك الكلام؟ لقد أطبق الصمت على الغرفة وأصبحت النسوة في حالة من الذهول وكأنَّهن لم تصدّقن آذانهن، فنظرت إلى الرجال الموجودين معي - آملاً في دعمهم - لكنهم فرّوا مني كما فرَّ (بيللي زيني) من التيتانيك، وكانت نظراتهم تقول: «نحبك يا غريني، لكنك هالك لا محالة».

إنَّ وضع الأمور في نصابها لم يكن مناسباً مما يعني أنَّ غضب زوجتي سيطول، فمثلاً في الليلة الماضية في أثناء رحلتها السادسة إلى الحمام، رمقتني بنظرة حانقة من خلال شق الباب، وصرخت قائلةً: «أظن أنَّ هذا صعب عليك حقاً».

إنَّ العبرة التي يجب أخذها من هذه التجربة والتي سأحرص على نقلها إلى الطفل وخاصة إذا كان صبياً هي: (إن الغاية تبرر الوسيلة، لكن أينما تذهب ومهما تفعل، لا تمزح أبداً بشأن آلام المخاض أمام مجموعة من الأمهات).

عندما اعتقدت أنَّ الأمور لن تسوء أكثر من ذلك، كانت عجلة سيارتي قد فرغت من الهواء وأنا في طريقي إلى العمل هذا الصباح، لقد كان الأمر في غاية السوء، إذ كانت الساعة الرابعة صباحاً وكنت عالقاً على طرف الطريق السريع لا حول ولا قوة لي وكان الطقس بارداً، وبدا الجزء السفلي من العجلة الأمامية اليمينية لسيارتي وكأنه طبق من اللحمة المفرومة مع البطاطس.

إنني أعرف أناساً يقومون في مثل هذه الحالة بالقفز من سيارتهم وتبديل العجلة بسرعة مذهلة، ولا أستطيع إخباركم كم أكره هؤلاء الناس.

والمشكلة التي أعاني منها هي أنني أصبح عاجزاً تماماً عندما يتعطّل أي شيء معي، فأنا لا أستطيع إصلاحه، وحتى لا أحاول فعل ذلك: لأنني إذا قمت بإصلاح أي شيء فلن أكون مقتنعاً أبداً بصلاحيته، فمثلاً لن أركب سيارة قمت بتركيب عجلاتها بنفسي؛ لأنني أخشى أن تطير العجلة بعيداً في اللحظة التي أكون فيها ماراً بجوار شاحنة بنزين.

إنَّ أول شيء فكّرت فيه هو الاتصال بمركز الطوارئ (الذي أتبع له) فقامت الموظفة في قسم تسجيل الحالة بتدوين رقمي ووعدتني أن يقوم أحدهم بالرد على اتصالي خلال ثلاثين دقيقة، قالت ذلك وكأن الثلاثين دقيقة هي خدمة سريعة. في الحقيقة، لم أستحسن الأمر، إذ يمكنني الاتصال بالرئيس ويعاود أحدهم الاتصال بي في أقل من ثلاثين دقيقة، لقد بدت مدة الانتظار طويلة جداً ولكن لم يكن في اليد حيلة، فأنا رهين عجزي!

أما المكالمة الثانية التي أجريتها فكانت مع قسم الطوارئ (911) وشرحت لعاملة المقسم أنني موجود على جانب الطريق السريع ومن الضروري أن يساعدني أحدهم، لأنَّ ملايين الناس يعوّلون عليّ.

فقالت: «ماذا تقصد بملايين الناس؟».

قلت لها: «إنني أقدم برنامجاً إذاعياً، ولدي أكثر من ثلاثة ملايين مستمع، فإذا لم أصل في الوقت المناسب فسيكون على هؤلاء تحمّل مشقة التنقل الصباحي إلى عملهم دون التسلية التي اعتادوا عليها».

قالت: «لم أسمع عنك من قبل، أين هؤلاء الملايين الذين تتحدث عنهم؟».

«إنهم في كل أنحاء البلاد».

«حسناً، إنني لا أعرف أحداً منهم».

شرحت لها: «لا أريد الخوض في دراسة إحصائية، لكنه برنامج رياضي والمستمعون له أناس متخصصون» فقالت: «لقد سمعت عن (هاورد ستيرن) فهل أنت هو؟».

مما لا شك فيه أنّ الليلة كانت بطيئة جداً من حيث التعامل مع الحالات الطارئة.

قلت لها: «أصغ إليَّ، لست مضطراً للكذب عليك، فأنا فعلاً لدي الكثير من الناس الذين يعوّلون علي، وإذا لم يتمكنوا من الاستماع إلى البرنامج، فمن المحتمل أن ترتفع وتيرة المشاحنات بين السائقين، وعليَّ الافتراض أنَّ ذلك ليس في مصلحة أحدٍ منَّا».

فكَّرتْ في الأمر دقيقة وقالت: «حسناً، أخبرني عن مكان وجودك».

بذلت كل ما في وسعي؛ كي أصف لها مكاني بدقة ثم شكرتها بحرارة.

قالت: «سيكون الشرطي هناك في غضون ساعةً»، أغلقت السمّاعة.

ساعة!

بدأت السيارات تمر مسرعة واحدة تلو الأخرى، ولم يفكّر أحدهم في التمهّل لدى رؤيتي على جانب الطريق، وهذا لا بأس به، إلا أنّ الأسوأ من وقوفك على قارعة الطريق في الساعة الرابعة صباحاً هو تحمّل أي شخص قد تسوّل له نفسه التوقف وإلقاء التحية عليك.

وعندما لم يعد أمامي سبيل آخر، أسرعت إلى صندوق السيارة وبدأت أفتش بين الأغراض عن صندوق العدة، إلى أن وجدته، إنه صندوق صغير جداً ويكون مرفقاً مع السيارة، وفي أثناء تفتيشي عنه، وجدت مضارب الغولف في متناول يدي، فأخرجتها من الصندوق وأوقفتها على الأرض، فألقى رأس المضرب ظلاً مخيفاً في ضوء القمر.

وبعدها اتصلت بالإستديو وطلبت التكلم مع مخرج برنامجي فهو وغدٌ بارعٌ، إذ بمقدوره تغيير هذه العجلة في وقت أقل بكثير من الوقت الذي أحتاجه لإعادة ترتيب صندوق سيارتي.

قلت له: «إنني على بعد ثلاثين ميلاً ولديَّ عجلة فارغة من الهواء، وأنا أقف خلف السيارة مع صندوق العدة».

«مباركٌ عليك فتح صندوق السيارة».

قلت له: «تباً لك، عليك إعطائي الإرشادات اللازمة لتبديل العجلة».

قال لي: «من المستحيل عليك فعل ذلك، هل اتصلت بالمؤسسة الأميركية للسيارات»؟

فقلت له: «إنَّ ذلك سيستغرق وقتاً طويلاً، ولكن فرصتي الوحيدة في الوصول إليك في الوقت المناسب هي أن تقوم بمساعدتي لتبديل هذه العجلة الآن».

قال لي: «إنَّه لشيء جميل، أخبرني الآن: أي واحدة من الأدوات التي تنظر إليها الآن هي رافعة للسيارة».

أمعنت النظر في مجموعة الأدوات المعدنية وقلت له: «سأعاود الاتصال بك عندما تصل الشرطة إلى هنا».

وقبل أن يعاود مركز الطوارئ ـ الذي أتبع له ـ الاتصال بي رأيت سيارة شرطة تقترب مني (إنَّه لأمر لافت أن تشعر بالابتهاج لدى رؤية سيارة الشرطة، لكن في تلك اللحظة، شعرت وكأنني شخص عالق على جزيرة مهجورة وقد لمح أضواء سفينة سياحية تقترب منه).

فقلت لهم: «أيها السادة، إنني عاجز عن شكركم».

فقال أحدهم: «لنرَ ماذا يوجد لدينا هنا؟».

ثم نزل من سيارته ومشى باتجاهي، وهو يحمل ضوءاً ساطعاً موصولاً مع سترته. لم يرفع الشرطي الآخر نظره عن مقعده، فقد بدا وكأنه يأكل شطيرة.

صاح الشرطي الموجود بجوار سيارتي: «هيه يا سيد! إنَّ ذلك لن يستغرق وقتاً طويلاً».

لم أكن قادراً على فعل أي شيء سوى سحب مضرب الغولف من الحقيبة والقيام ببعض الحركات، نظرت إلى سيارة الشرطة فوجدت الشرطي الآخر مازال على حاله، فهو بلا ريب يأكل شطيرة، وبعدها صاح الشرطي الأول مرّة أخرى: «لست متأكداً من قدرتي على مساعدتك باستخدام هذه الرافعة».

«أوه، كلاً».

فقال: «إنَّ الكثير من هذه السيارات الغريبة تتطلب رافعة هيدروليكية، ونحن غير مزودين بها».

لقد كان ذلك بمنزلة كارثة حقيقية، فنظرت باستعطاف إلى سيارة الشرطة، آملاً في حدوث معجزة. وكان الشرطي الآخر مازال منهمكاً في تناول شطيرته.

قلت لهم: «لا يمكنكم تركي هنا، عليكم فعل أي شيء».

«يا سيدي، ليس بمقدوري أن أفعل لك شيئاً».

توسلت إليه: «أصغ إليَّ، إذا تركتموني هنا، وأتيتم غداً، فستجدونني ما زلت في المكان نفسه، على الأقل اطلب من زميلك أن يعطيني شطيرة؛ كي لا أموت من الجوع».

فانفجر الشرطي من الضحك وقال: «أصغ إليَّ يا صاح، ربما أستطيع أن أقلّك إلى حيث تشاء».

قلت له: «يبدو ذلك رائعاً، لكن ماذا ستفعل بسيارتي؟».

«إنَّ الأمر عائدٌ إليك».

عندما اقتربت منه وهمست في أذنه بشكل تآمري: «ربما يكون بمقدورنا ترك زميلك هنا إلى حين وصول أحد من مراكز الطوارئ، فهو يبدو غير مبالٍ على الإطلاق».

لم تسنح لي الفرصة كي أعرف ردّة فعله على ذلك، إذ قبل أن يتفوّه بأي كلمة، توجهت نحونا أضواء ساطعة وتوقفت شاحنة قطر سيارات خلف سيارة الشرطة.

وقال سائقها: «هل اتصل أحدكم من أجل تغيير عجلة سيارته؟».

لقد تحققت المعجزة عن طريق شاب مزوّد برافعة سيارات هيدروليكية. ولم يستغرق الأمر أكثر من دقيقتين لتغيير عجلة سيارتي، وبعدها غادر دون أن ينطق بكلمة.

فسألت الشرطي: «كيف حصل ذلك؟».

فأجاب: «لقد قام صديقي بطلب المساعدة بينما كنت أقوم بإلقاء نظرة على سيارتك وأعتقد أنه فعل ذلك في الوقت الذي كنت تتدرب فيه على حركات الغولف».

وعندما نظرت إلى سيارة الشرطة كان الشرطي الآخر ما زال يأكل شطيرته، فسألت: «بماذا أدين لكم يا شباب؟».

قال: «إنك مدين لنا بتقديم برنامج جيد يبدأ خلال أقل من ساعة ومن الأفضل أن تسرع، أما عندما تتكلم عن فريق (ريدسوكس) المفضّل لديَّ فقل عنه أشياء جيدة».

وعندما ابتعدت بسيارتي وبدأت الأضواء الساطعة لسيارة الشرطة تخفت في المرآة الأمامية لسيارتي، رحت أفكّر كم هو غريب مجال عملي، ففي حفل العشاء الذي لم يمضِ عليه وقت طويل، سببت لي شهرتي الكثير من المتاعب، أمّا في هذا الصباح فقد أنقذتني في مكان وزمان لم يكونا بالحسبان، فالمكان الوحيد في العالم الذي لا يمكن أن تشعر فيه أنك مشهور هو على قارعة الطريق السريع وتحت جنح الظلام. إنني أتساءل فيما إذا كان الشرطي قد عرف من أنا وفيما إذا كان سيفعل ذلك مع شخص آخر؟. وأتساءل أيضاً، فيما إذا كان الشرطي الثاني قد اتصل فعلاً لطلب النجدة، أو كان ذلك نتيجة الاتصال الذي أجريته مع مركز الطوارئ الذي أتبع له؟ علاوةً على ذلك، ما زلت أتساءل عن نوع الشطيرة التي كان يتناولها ذلك الشرطي الجالس في السيارة؟ إنه لأمر مزعج أن أبدأ يومي بالعديد من الأسئلة التي لا أجوبة لها.

لقد دخلنا الآن مجالاً بالغ الخطورة، فموعد وصول الطفل يقترب منّا بسرعة، ونحن مازلنا لم نقرر اسمه بعد، ويبدو لي أنَّ هذا أهم قرار سنقوم باتخاذه على الإطلاق ممّا يلقي علينا عبئاً ثقيلاً، وبصراحة، إنَّ طريقة تعاطينا مع هذا الأمر، ليست كما يجب.

حسناً، إن زوجتي هي التي لا تتعاطى بشكل جيد مع الأمر، فهي قلقة بشأن تسمية الطفل مما يعني انتقال القلق إليَّ نتيجة تكرار ذلك على مسامعي، ويبدو أنه لا مجال للحد من ذلك القلق على الرغم من الخطة العبقرية التي اعتقدت أنها ستريحني من هذه المعاناة.

لقد قام العديد من أصدقائي بإبرام صفقات مع زوجاتهم ـ لا سيما صفقات تجارية ـ لدى تسمية أطفالهم، فقد حصل أحدهم على مجموعة جديدة من مضارب الغولف مقابل تسمية ابنه (زاتشاري)، وقام آخر بشراء بروش من الألماس لزوجته مقابل تسمية ابنته (إيمانويل) ويجب أن أعترف أنَّ الشق المالي في هذه التسويات لم يرق لي، لكنني أحببت فكرة الصفقة؛ لذلك قدمت الاقتراح الآتي: أن يكتب كلٌّ منا خمسة أسماء مفضلة لديه ويقوم باختيار أحد وجهي قطعة النقود المعدنية، وبعدها نقوم برميها في الهواء وسيكون على الخاسر اختيار اسم من قائمة الرابح. لقد اعتقدت أنني قمت بعمل عبقري وقد أصبت بالذهول عندما وافقت، إذ نجحت أخيراً في إقناعها بشيء. لقد كان كل ما نحتاج إليه هو الأسماء لذلك اتفقنا أن نعطي أنفسنا مهلة ثمان وأربعين ساعة؛ كي نقوم خلالها بالبحث عن الأسماء التي نريدها.

لقد أمضيت اليوم اللاحق في المكتبة حيث اكتشفت أن من السهل التعرض لانهيار عصبي في أثناء اتخاذ القرار بشأن الأسماء، فقد كان تقليص عدد المراجع أمراً صعباً، إذ إنَّ أسماء الأطفال وحدها تقع في اثني عشر مرجعاً؛ لذلك قمت باختيار مرجع القاموس الكامل للأسماء الأولى في اللغة الإنكليزية (The Complete Dictionary Of English First Names) والذي يحتوي على أكثر من أحد عشر ألف اسم، فبدأت من بداية المرجع.

لقد كان اسم (هارون) هو الاسم الأول في اللغة الإنكليزية وفقاً للترتيب الأبجدي، كما ورد في الإنجيل (هارون) هو الأخ الأكبر لـ (موسى)، وأصل الاسم يهودي ومعناه «رائع أو جبل» إنَّ ذلك أربكني على الفور، فأنا لا أتكلم العبرية، ولكن كيف يمكن لكلمة أن يكون لها معنيان في ذات الوقت «رائع أو جبل»؟

وماذا لو أراد أحدهم أن يصف جبلاً رائعاً؟ هل سيكون الجواب هو هارون هارون؟ لم أرغب في اختيار مثل هذا الاسم الغامض، فقلّبت الصفحات حتى وصلت إلى أسماء الإناث، وكان الباب الأول هو (آبي Abbe) لطالما أحببت هذا الاسم على الرغم من اختلاف طريقة كتابته عمَّا كنت أظن. فقد اكتشفت أن الاسم يمكن كتابته بأربعة أشكال وجميعها صيغ مختصرة من كلمة (آبيجيل Abigail) التي كانت بدورها شكلاً مختلفاً للكلمة العبرية (آفيجيل Avigayil) والذي معناه «فرحة الأب، ولكي لا أزعجكم بذكر كل الأحرف الأبجدية، إليكم الأسماء التي اخترتها في النهاية.

الأولاد: غاريد، وجوناثان، (Jonathan) وويليام (William).

الفتيات: آبي، وفيرونيكا (Veronica).

وفي الصباح اللاحق كنت على أهبة الاستعداد للبدء في الأمر، فألقيت نظرة على قائمتها إلا أنها كانت تحتوي على عشرة أسماء، وذلك ضعف المطلوب.

فقلت لها: «لقد اتفقنا على خمسة أسماء».

فأجابتني: «من دون شك خمسة للصبيان وخمسة للفتيات».

«لكنك لم تقولي لي ذلك ».

«ذلك ما كنت أقصده».

أصبحت أدرك مع مرور الزمن أنَّ عبارة: «ذلك ما كنت أقصده» هي أهم عبارة في كلام زوجتي، فهي تتعاطى مع هذه الكلمات الأربعة وكأن باستطاعتها شرح أي شيء، فقد أخبرتني ذات مرَّة أنَّ أمَّها ستزورنا من يوم الأحد إلى يوم الثلاثاء، فقلت لها: إنه لا مانع لدي، وبعد أن أقامت أمَّها في غرفة ضيوفنا لأسبوعين، اكتشفت عندها أي ثلاثاء كانت تقصد؟!

فقلت لها: «لم تخبريني أنَّ أمَّك ستبقى عندنا لأسبوعين، إنَّ كلَّ ما قلته هو أنَّها ستبقى حتى يوم الثلاثاء».

فأجابتني: «ذلك ما كنت أقصده».

وفي كل الأحوال، ما كنت لأدقق على هذا التناقض إلى أن أمعنت النظر في قائمتها:

الأولاد: إيريك، ووكر، وهاريسون، وسكوتي.

الفتيات: كلير وإليزابيت وكيت وليلي وجيل وكلير.

لقد كانت قائمتها تشتمل على أسماء أربعة صبيان وست فتيات، فكيف كان ما تقصده هو خمسة من كل نوع إذا كانت قد دوَّنت في قائمتها أسماء ست فتيات وأربعة صبية؟

فشرحت قائلةً: «لم أستطع التفكير في مزيد من أسماء الذكور المفضلة لديَّ».

فقلت لها: «لقد دوَّنت اسم كلير مرتين».

«لم أفعل ذلك».

فأشرت إلى القائمة.

قالت لي: «إن طريقة كتابة الاسم مختلفة في كلتا الحالتين، وذلك يعطي الاسم إحساساً مختلفاً تماماً».

فقلت لها: «هل تريدين القول إنه على الرغم من تطابق الاسمين باللفظ إلاَّ أنَّك تعدينهما اسمين مختلفين».

«هذا صحيح».

لم تكن لدي نية للشجار معها، لا سيما أنني أحب اسم كيت ويمكنني التعايش مع اسم إريك أو هاريسون. لقد كنت مستعداً للبدء باللعب. وعلى الرغم من شعوري بالاستياء من عدم إلقائها نظرة على قائمتي إلاَّ أنني أخرجت من جيبي قطعة نقود معدنية بقيمة ربع دولار. وعندما كنت على وشك رمي القطعة المعدنية في الهواء. قالت بشكل مفاجئ: «انتظر لحظة».

«ما الأمر؟» .

فقالت: «إنني متوترة ».

«ولماذا أنت متوترة؟».

فقالت: «إنني غير واثقة من انتقائي للأسماء الصحيحة»، عندها خيَّم الصمت علينا ولم أدرك ماذا كانت تنتظر مني، قذف قطعة النقود أو الانتظار حتى تخبرني أنها جاهزة.

لن أستطيع معرفة ذلك دون أن أقوم بفعل شيء ما؛ لذلك قمت بقذف

قطعة النقود في الهواء، وقبل وصولها إلى الأرض سألتني زوجتي: «ما الذي تفعله؟».

فأجبتها: «لم أعرف ماذا أردت مني أن أفعل».

«ولكننا لم نقرر من يريد الوجه العلوي لقطعة النقود ومن يريد اختيار الوجه السفلي».

وفي تلك الأثناء رمقتني زوجتي بنظرة مفادها أنني قد أكون أغبى رجل على وجه الأرض، ومع ذلك خطرت في بالي فكرة لإنقاذ الموقف، ففي اللحظة التي كانت فيها قطعة النقود تترنَّح على الأرض على وشك التوقف، قمت بوضع قدمي عليها. وسألتها وأنا فخور بما قمت به: «أي وجه تختارين، الوجه العلوي أم الوجه السفلي؟».

قالت لي: «لا يمكننا أخذ هذه الرمية في الحسبان؛ لأنك عرفت الوجه الذي توقفت عليه».

«وما المشكلة في ذلك؟ فأنت لم تعرفي الوجه الذي توقفت عليه قطعة النقود وأنت من سيقوم بالاختيار».

قالت لي: «إنه ليس عدلاً أن تعرف الوجه الذي توقفت عليه قطعة النقود».

لم أرغب في الشجار معها لذلك انحنيت إلى الأرض والتقطت قطعة النقود. فسألتني: «على أي وجه كانت متوقفة؟».

«ماذا؟».

«هل كانت متوقفة على الوجه العلوي أو السفلي؟».

«ما الفرق في ذلك؟».

قالت لي: «لمجرد المعرفة، هل ممنوع عليَّ أن أعرف ذلك؟».

فأخبرتها أنَّ قطعة النقود كانت متوقفة على الوجه العلوي، وبعدها وضعت القطعة في راحة يدي المبسوطة.

وقلت لها: «ها هي أمامك، هل تريدين اختيار الوجه العلوي أم السفلي؟».

فقالت: «سأختار الوجه العلوي».

عندها رميت قطعة النقود في الهواء ولدى وصولها إلى الأرض الخشبية رنَّت بقوة، وعندما كانت على وشك التوقف، داست زوجتي عليها.

وقالت: «أظن أنني أرغب في تغيير اختياري؟».

«هل تقصدين الأسماء».

«كلاَّ، أظنُّ أنني أرغب في اختيار الوجه السفلي لقطعة النقود».

لقد استغرق ذلك منَّا طوال الصباح، قلت لها: «خذي وقتك فإذا كنت ترغبين في اختيار الوجه السفلي لقطعة النقود فلا مانع لديَّ».

فأجابتني: «لأنك تظن أنَّ الوجه العلوي هو الرابح، أليس كذلك؟».

«لا مجال لدي لمعرفة ذلك، فهي رمية ذات احتمالين، فلتختاري أحدهما».

وبعد مضي عشر دقائق اختارت الوجه السفلي للقطعة، لكن قطعة النقود استقرت على الوجه العلوي، وبذلك أكون قد ربحت، أشرت إلى قائمتي التي مازالت مطوية في يدها وقلت لها بلطف قدر المستطاع: «كما توقعت يا عزيزتي، آمل أن يعجبك أحد هذه الأسماء».

ولكنها لم تكلف نفسها حتى بالنظر إليها وقالت: «كلاً، لا يمكنني القيام بذلك».

«ولكنك لم تنظري إلى الأسماء، عليك أن تعلمي أنَّ اسم كلير موجود على القائمة».

«لم أعد أحب اسم كلير بعد الآن».

فقلت لها: «ولا بأي طريقة كتابة كان؟».

«نعم».

قلت لها: «حسناً يا عزيزتي، لقد وافق كلانا على هذا الاتفاق، لذلك يجب أن تختاري واحداً من أسماء قائمتي».

«لقد بدّلت رأيي» قالت ذلك ثمَّ غادرت الغرفة.

وبالمناسبة، فإن عبارة: «لقد بدّلت رأيي» تشبه كثيراً عبارة: «هذا ما كنت أقصده».

وفي النهاية، بقيت زوجتي في غرفة النوم مدة طويلة ممَّا دفعني للذهاب إلى النادي الرياضي. كان هذا يوم الأحد، والآن هو يوم الأربعاء، ولم نتوصل بعد إلى اختيار اسم للطفل. لكن سأخبركم بشيء: لو كنت في مراهنة، فإنني سأراهن على اسم كلير.

لقد قام طفلي المنتظر بإنقاذ حياتي في الليلة الماضية.

حصل ذلك في أثناء أسوأ ليلة في حياتي في منتصف رحلة عمل قمت بها إلى واشنطن، فبعد أن أنجزت كل ما هو مطلوب مني وحضرت الاجتماعات وصافحت الآخرين، ارتكبت في هذه الليلة ـ ليلة الأحد ـ خطأً فادحاً عندما تناولت سمك التونا النيئ على العشاء، لا أفهم كيف استطاع شاب بمثل ذكائي أن يفعل شيئاً بهذا الغباء، فبطريقةٍ ما تمكنت طوال هذه السنين ومن دون تحذير من أحد، عدم تناول السمك النيئ يوم الأحد (يبدو أن احتمال حدوث الكوارث معي يتضاعف بعد يوم الجمعة، فقد ألمّت بي تلك الكوارث في الليلة الماضية).

كنت في فندق (القديس ريجيس) نائماً في غرفتي بأمان عندما استيقظت على صوت قرقعة مزعجة في أمعائي، في البداية، لم تكن لدي أدنى فكرة عن المأزق الذي كنت فيه، لذلك اكتفيت باستدعاء كبير الخدم وطلبت منه إحضار شراب غازي من الزنجبيل. ولم أعرف إلا بعد ساعة أنَّ هذه المشكلة لا يمكن حلّها بمشروب غازي، حيث أصبحت منكمشاً على نفسي كسمك القريدس.

لم يكن كبير الخدم رجلاً بل امرأةً شرق أوسطية في مثل سني تقريباً ترتدي سترة رسمية، فسألتني: «ماذا يمكنني أن أحضر لك يا سيدي؟».

قلت لها: «لا أعرف، إنَّ معدتي ليست على ما يرام.ماذا يوجد لديكم؟».

«ربما تريد شيئاً بارداً»، لقد قالت ذلك بلكنة أقرب إلى البريطانية وأضافت: «ربما ترغب في بعض المثلجات».

إنَّ أول شيء تبادر إلى ذهني هو خلل هذه العبارة وخاصةً الجزء الثاني منها، بعدها أدركت أنَّها من دون شك حمقاء جداً، فعلى الرغم من أنني لست طبيباً، إلا أنني أعرف أنَّ المثلجات لا تقدَّم لشخص يشعر بالغثيان.

قلت لها: «يا إلهي، كلاً، أظن أنني بحاجة إلى طبيب».

فقالت: «لدينا طبيب طوارئ هنا».

«جيد»، قلت ذلك ثم نزلت عن السرير بهدوء ومشيت إلى الحمام ببطء وقلت لها: «سأعود في الحال».

وبعد مضي أسوأ عشر دقائق ــ إذ لم يعد في أحشائي أثر للطعام ـ عدتُ وأنا أترنَّح من الألم إلى غرفة النوم، وكانت كبيرة الخدم جالسة على الأريكة وسترتها منحرفة قليلاً عن موضعها وسألتني: «هل أنت على ما يرام يا سيدي؟».

كنت أتلوى من شدة الألم ولم أكن مرتدياً سوى سروالٍ داخلي، وقد أمسكت برأسي؛ خشية أن يسقط على الأرض، كيف يمكنها أن تتصور أنني بخير وقد دخلت إلى الغرفة بهذه الحالة المزرية؟ فأجبتها: «هل أوشك الطبيب على الوصول إلى هنا؟».

«هل ترغب في أن أستدعيه لك يا سيدي؟».

في هذه اللحظة سقطت على ركبتي وقلت: «لم تقومي باستدعائه بعد؟».

«لم أكن متأكدة من رغبتك في ذلك».

في هذه الأثناء شعرت بأنني أكرهها وطلبت منها استدعاء الطبيب على الفور، وأظن أنني استخدمت كلمة (تباً) عدَّة مرَّات، ثم دخلت إلى الحمام، حيث قام طفلي المنتظر بإنقاذ حياتي.

بينما كنت مستلقياً على أرض الحمام الباردة ووجنتي تلامس سجادة الحمام وكنت في حالة تقيؤ جاف لأنني ومن دون شك لم يعد لدي شيء في أحشائي كي أخرجه، نظرت إلى الأعلى فرأيت نافذة، عندها قررت أن ألقي بنفسي منها، لقد كان الأمر في غاية السوء، فبصرف النظر عن الرعب الذي سأشعر به في أثناء سقوطي وعن الألم الذي سيسببه لي الارتطام بالأرض، إلاَّ أنَّ ذلك على الأقل سينتهي بسرعة.

لم أحتمل فكرة البقاء على الأرض بمعدة وأمعاء متخشبة؛ لذا قررت معاينة النافذة،حاولت جاهداً الوقوف على قدمي وأمسكت بستارة الحمام ومشيت بصعوبة بالغة نحو النافذة، ولكن وقبل وصولي إليها وجدت رفاً عليه مجموعة مذهلة من التجهيزات التي لن يكون باستطاعتي المرور من أمامها دون أن ألقي نظرة عليها حتى ولو كنت في مثل هذه الحالة، كان هناك غسول للبشرة وكريم للوجه وسائل منشط لفروة الرأس ومعجون حلاقة ومزيل للروائح الكريهة وثلاثة أنواع من الصابون: واحدة للوجه وأخرى للجسم وثالثة للبشرة الحساسة كتب عليها «يمكن استعمالها للأطفال».

قرأت تلك العبارة ثلاث أو أربع مرات وفي تلك اللحظة بالذات قررت ألا أرمي بنفسي من أي نافذة، إنني وبصرف النظر عن فظاعة التسمم الغذائي الملم بي لن أترك طفلي من دون أب.

وبعد مضي مدة طويلة من الوقت، فُتح الباب ودخل منه مسعفان قاما برفعي عن الأرض ثم وضعاني في كرسي متحرك، وفي هذه اللحظة سمعت كبيرة الخدم وهي تناديني من الخلف: «هل هناك أي شيء يمكنني أن أفعله لك يا سيدي؟».

فأجبتها: «أحضري لي ملابسي».

ركبت مع المسعفين الطبّيين وكبيرة الخدم في سيارة الإسعاف ومن ثمَّ انطلقنا إلى المشفى، وفي طريقنا إلى هناك، سألتهم عن الوقت فأجابت كبيرة الخدم: «إنها الساعة الرابعة صباحاً» كما سمعتها أيضاً بين مُدَد التقيؤ الجاف التي كنت أعاني منها وهي تقدّم قطعة من العلك إلى المسعف، لكنه رفضها وبعدها قدَّمت لي قطعة، يا لها من حمقاء!

فقلت لها: «لا أريد، أخشى أن أتقيأ على حذائي ماركة (برادا)».

ولدى وصولي إلى المشفى قاموا بوضعي على سرير متحرك فنقلوني إلى غرفة الطوارئ حيث بقيت هناك وحيداً مع كبيرة الخدم.

فقالت: «أين أضع لك الملابس يا سيدي؟».

«أحضري الطبيب حالاً».

وأخيراً، ظهر من خلف الستارة شخص يرتدي بدلة زرقاء واسعة وقدّم نفسه لي، إلاَّ أنني لم أسمع الاسم جيداً ولا يهمني ذلك، فكل ما أردته هو الخلاص من الألم المبرح.

فقلت له متوسلاً: «ماذا يمكنك إعطائي أيها الطبيب؟ إذا كان بالإمكان أن تغيبني عن الوعي مدة، فذلك سيكون أفضل».

قال الرجل: «أوه، أنا لست الطبيب، إنني من المكتب الإداري، وكل ما أريده هو جمع بعض المعلومات عن تأمينك الصحي».

«يا إلهي! »، قلت ذلك وأنا أنحني جانباً نتيجة إحساسي بالتقيؤ.

فقال الرجل: «لن أحتاج إلا لبطاقتك فقط».

«ألا ترى أنني لا أرتدي سوى ملابسي الداخلية، فأين تظنني أضع بطاقة تأميني الصحي؟».

قالت كبيرة الخدم وهي تفتش بسرعة في جيوب بنطالي وسترتي: «ربما تكون في إحدى جيوبك يا سيدي»، «كلا يا سيدي، لا يوجد شيء هنا».

في تلك الأثناء نظرت إلى الشاب ذي البدلة الزرقاء فإذا به يحك رأسه بقلم الرصاص، لقد كان ضخماً وأصلع، وفجأة شعرت بأنني أكرهه أكثر من كبيرة الخدم.

فسألني: «يا سيدي، هل تعرف بدقة رقم بوليصة تأمينك؟».

فأغمضت عيني وقلت: «أرجوكم أحضروا لي الطبيب».

«أخشى يا سيدي، أنني بحاجةٍ إلى إثباتٍ فيما يتعلق بتأمينك».

قلت وأنا أحاول الجلوس: «أصغِ إليَّ، هل ترى تلك المرآة التي ترتدي سترة رسمية وتحمل لي ملابسي في الساعة الرابعة صباحاً أنها كبيرة الخدم في فندق (ريجيس) فهل مازال هناك شك بعدم حصولي على تأمين صحي؟».

أعترف أنَّ كلامي كان خطأً إلا أنَّ الطبيب سرعان ما حضر وكل ما أذكره هو أنهم وضعوا أنبوباً في ذراعي، وعلى الفور بدأ الغثيان يخف تدريجياً، أظن أنني نمت مدة وجيزة، وبعدها غادرت المشفى قرابة الساعة الثانية ظهراً، لم أرَ كبيرة الخدم مرَّة ثانية.

لقد قامت بطي ملابسي بشكل أنيق ووضعتها على الكرسي قرب السرير المتحرك.

عندما دفعت الحساب في الفندق تركت لها بطاقة شكر، آمل أن تكون قد رأتها. وبالعودة إلى الوراء، أعتقد أنها فعلت ما بوسعها وربما أكثر. فإذا كانت حمقاء فهذا ليس ذنبها وسيكون من الظلم إلقاء اللوم عليها، وفي كل الأحوال، إنني أشك بوجود حالات مشابهة لمثل حالتي في دليل خدمة كبيرة الخدم.

ملاحظة موجهة إلى الطفل المنتظر: أدين لك بواحدة.

أظنّ أنَّ الأمر لا يبعث على التفاؤل فقد بقي أقل من أسبوعين على موعد قدوم الطفل، ولم أقم بكتابة تلك الرسالة حتى الآن. وفي الحقيقة، إنَّ كل ما أعرفه هو أنني لست واثقاً من قدرتي على فعل ذلك، وما أقصده هو: أنني أريد كتابة الرسالة لكنني لا أعرف ما الذي أريد كتابته.

أظن أنَّ جزءاً من هذه الرسالة سيخصص للحديث عن الرياضة، فبالنسبة لي تشغل الرياضة حيزاً في كل شيء أقوم به، وقد تكون هذه فرصة رائعة كي أصف فيها جمال الرياضة في عالم أصبح من الصعب فيه إدراك ذلك.

إنَّ الرسالة لا يمكن أن تكون عن الرياضة فقط، بل يجب أن تكون عن أبطالها، فذلك هو ما أحببته عندما كنت صغيراً، فأنا أحببت الشبان الذين لعبوا الألعاب الرياضية، وكان لدي أبطال حقيقيون استطعت

رؤيتهـم والتكلم إليهم، إلا أنهم استطاعوا أن يبقوا بعيدين بما يكفي مما جعلهـم خالين من العيوب، وذلك هو السـر في كونك بطلاً، فالأبطال هم أشخاص كاملون ولن يكـون بمقدورك إدراك عيوبهـم في حال وجودها. أما اليـوم، فالمشكلة تكمـن في سهولة الوصـول إلى الرياضيين والتحدث معهـم مما يجعل عيوبهم تبـدو واضحة جداً للآخرين، فنحن الآن نعرف عنهـم الكثير، إذ يصعب إحصـاء القضايا المرفوعة ضدهـم، إما بشأن إثبـات أبوتهـم الشرعية أو تلـك التي تتعلق بحيازة سـلاح غير مرخص، كان الحـال أفضل بكثير قبل أن نعرف عنهم مثل هذه الأشياء، فقد يكون الجهـل نعمة في بعض الأحيان، ولكننـي لا أريد كتابة ذلك في رسالتي إلى طفلي المنتظر.

إذاً، ما الذي أريد كتابته؟

سأكتب عن تجاربي الأولى في تغطية المباريات الرياضية وعن كل الأبطال الذين خيبوا أملي بهم، ويذكرني ذلك بجملة من فيلم أحببته كثيراً واسمه: (سنتي المفضلة) حيث يوجد في الفيلم كاتب شاب حساس جداً أوكلت إليه مهمة الاعتناء بنجم سينمائي خبا نجمه، فقد أراد الكاتب بشدَّة تصديق أنَّ ما رآه على الشاشة ـ والذي كان يعني له الكثير ـ هو شيء حقيقي.

يقول الكاتب الشاب: «لا تقل لي إنَّ هذا هو حجمك الطبيعي، فأنا لا أستطيع التعاطي معك وأنت بحجمك الطبيعي، فأنا بحاجة إلى أن يكون بطلي (آلان سوان) بالحجم نفسه الذي اعتدت أن أتلقاه به».

لقد أحببت في طفولتي (جو ناماث) و (أوجي سيمبسون) و(مايكي مانتل) والمذيع (مارف ألبيرت) فهؤلاء هم أبطالي وقد كانوا نجوماً كباراً، وكان من المؤلم مشاهدتهم وهم يضمحلّون بينما كنت أكبر.

لقد كان من المؤلم النظر إلى (مايكي) وهو يتحطم أمام أعيننا، فقد عاش بطلاً، ولكن موته أصبح مضرب مثل الآخرين.

أما التقارير الصحفية التي تناولت الفشل الذي لحق بـ (مارف ألبيرت) فتعدُّ من أفظع التقارير التي عرفتها في حياتي.

وما تزال عبارة: «إنَّ (أوجي سيمبسون) مسلح وخطر» من أكره العبارات التي سمعتها على التلفاز.

وبعدها قام (برودوي جو Broadway Joe) ـ الذي كنت أعده مثلي الأعلى وبطلي المفضل ـ في إحدى الليالي بالظهور على الشاشة المحلية وهو ثمل جداً وطلب أن يقبّل إحدى زميلاتي وعندها أطفأت التلفاز.

لا شيء مما سبق ذكره ـ باستثناء أوجي ـ قد غيّر من حقيقة إعجابي بهؤلاء الرجال الذين سأبقى دائماً أحبهم، إنَّ نجم هؤلاء جميعاً قد أفل، كل بطريقته ـ ومن المحتمل أن يكون هذا خطئي أكثر مما هو خطؤهم فقد لا ترقى حقيقة أي منهم إلى الصورة الكاملة التي يرسمها المعجبون لهم، إذ كلما عظمت صورة أبطالك كلما تأكد احتمال سقوطهم، وهذا لن يجعل من مشاهدتهم وهم في تلك الحالة أمراً سهلاً. وعلى الرغم من ذلك كله، سأخبركم عن شخص لا يسقط أبداً، على الأقل بالنسبة لي، إنه (مايكل جوردان).

إنَّ أول مرَّةٍ قابلته فيها كانت في كانون الثاني في سنة /1991 / قبل خمسة أشهر من فوزه ببطولته الأولى، ففي تلك الليلة كان فريق (البولز) يلعب ضد فريق (النتس) وكنت قد وقفت مع عشرين صحفياً آخر في صف خارج غرفة تبديل الملابس في إستاد شيكاغو القديم، وعندما تمَّ إدخالنا بشكل جماعي، كنت مذهولاً من ضيق المكان، إذ كانت غرف تبديل الملابس في مدرستي الثانوية أكبر منه، لقد حشرت نفسي بين اثنين من المصورين ولم أتقيد بالأصول المتبعة كما لم أكن مهتماً بذلك، لأنني كنت مذهولاً بمنظر (سكوتي بيبن) وهو عارٍ، حاولت أن أغض بصري ولكن في كل مكان كنت أنظر إليه كان هناك لاعب مشهور (هورس غرانت) و(جون باكسون) و (بي. جي آرمسترونغ) وأتذكَّر حينها أنني تساءلت فيما إذا كنت الوحيد الذي يعد أن ذلك سخفٌ، وبعدها دخل (مايكل جوردان).

كان يرتدي بنطالاً رسمياً مزوداً بحمالات وقميصاً يحمل الأحرف الأولى من اسمه وربطة عنق فضية، لقد كان أضخم مما توقعت وأكثر جاذبية وإثارة من أي شخص رأيته في حياتي. استمعت إليه برهبة أنستني تشغيل آلة التسجيل.

(ولهذا السبب لم أتقاضَ أجراً عن أول مباراة قمت بتغطيتها).

كانت تلك المرّة الأولى في حياتي المهنية التي أشاهد فيها (مايكل) لقد كان ذلك أكثر من مجرد عمل، إنه امتياز، كما يمكنني القول: إنَّه ثقافة؛ لأن (جوردان) لم يكن أعظم لاعب رياضي في تاريخ الرياضة فحسب، بل كان أيضاً مصدر إلهام لأي شخصٍ انتبه فعلاً إلى أسباب عظمة هذا اللاعب.

كان (جوردان) يتمتع برباطة الجأش وبثقة عالية بالنفس وبروح المنافسة والإرادة والتصميم، لقد سافرت معه لعدة سنوات ولم أره يوماً ضعيفاً أو خائفاً، إنه الكائن البشري الأكثر ثقة بنفسه في هذا العالم، وثقته الراسخة بقدراته هي التي جعلته مميزاً واستثنائياً ومكّنته من النجاح.

إنَّ أكثر الصور المشرقة التي أحتفظ بها في ذاكرتي عن (مايكل جوردان) - التي لن أنساها ما حييت - تكوَّنت عندما كان يلعب الغولف، فقد كنت في (ساراسوتا) في فلوريدا و تابعت كل مبارياته مما يعني أنني رأيت الضربة الرائعة التي لم يسبق لها مثيل، فبعد أن استغرقت وقتاً طويلاً لم ينته الأمر بصرخة مدوية بل بصيحة خفيفة، لقد هزم موجه الكرات في مرحلة الجري الثالثة. كان هناك في تلك الليلة الماطرة أكثر من ألف شخص في المدرجات إضافة لبعض الصحفيين الذين شاهدوا تلك الضربة وكنت أنا واحداً منهم، ثم توجهت إلى غرفة تبديل الملابس ورأيت زملاءه في الفريق يرشّون عليه البيرة وهو موجود أمام خزانته ثم أجاب على بعض الأسئلة وبعدها خرجنا بشكل جماعي من الغرفة؛ كي نقوم بتنقيح تقاريرنا إلاّ أنَّ شيئاً ما دفعني كي أنظر خلفي وألقي عليه نظرة أخيرة، تلك هي الصورة التي ستبقى دائماً حيَّة في ذاكرتي، فقد كان جالساً أمام خزانته في غرفة فارغة، لا يلبس شيئاً سوى منشفة تلف خصره وكان مبللاً تماماً بعرقه وبالبيرة الرخيصة التي رشّها زملاؤه عليه وكانت تعلو وجهه ابتسامة عريضة لم يسبق لي أن رأيتها على وجهه من قبل.

لقد رأيت ذلك الرجل وهو يتربع على عرش النجاح ويستحوذ على إعجاب قلَّ نظيره إلاّ أنه لم يسبق لي أن رأيته بهذا الفخر الذي كان يشعر به في تلك الليلة وأعتقد أن في ذلك حكمة ما، حكمة الاحتفال بالنصر على الخصم بصرف النظر عن أهميته.

إنني أعتقد أنّ أياً مما سبق لن يجعلني على مقربة من كتابة رسالة إلى طفلي الموعود، ومن المؤكد أن رسالتي لن تكون كلّها عن الرياضة أو عن (مايكل جوردان) فأنا أرغب في أن يعتقد طفلي أن لدي وجهة نظر خاصة بي حتى ولو كان ذلك غير حقيقي.

من المحتمل أن أكون غير مهيأ لكتابة مثل تلك الرسالة، وذلك لعدم وجود شيء مهم أستطيع الكلام عنه، فمن المؤلم أنني لم أفعل حتى الآن شيئاً مهماً يستحق أن أضيّع وقت طفلي المنتظر فيه، وأظن أنني سأتخطى تلك الرسالة أو على الأقل سأؤجل كتابتها إلى حين حصول حدث مهم معي، وفي كل الأحوال قد يكون ذلك أفضل للطفل، فبالنسبة لي بصفتي رجلاً يكسب عيشه من خلال كتابة التقارير غالباً ما أشعر بالعجز في التعبير عمَّا أريد قوله، ولحسن الحظ أنَّ الطفل لن يكتشف ذلك قبل الأوان. لا أريد أن أكون مخيباً للآمال ولا سيما مع شيء بهذه الأهمية. فتصوروا شاباً ناضجاً يكتب رسالة مهيبة عن الرياضة إلى الطفل المنتظر، إنني محرج حتى من التفكير في ذلك. أعتقد أنني سأواظب على كتابة ملاحظات بين الفينة والأخرى؛ آملاً أن تشكّل في النهاية رسالة كاملة.

ملاحظة أوجهها إلى الطفل المنتظر: أينما تذهب ومهما تفعل ومهما طال بك العمر فإن أمنيتي الأولى لك بصفتي أباً هي أن يكون لديك أبطال كبار إلى الدرجة التي تستطيع تلقيهم بها.

ﮪﮪﮪ

ذهبت اليوم إلى السوبر ماركت وهذا بحد ذاته أمر جدير بالذكر؛ لأنني لا أذهب إلى هنالك أبداً، ولأنه حصلت معي أمور مثيرة للدهشة. يجب عليَّ في البداية أن أعترف بأنني كنت قلقاً للغاية في الأسابيع

القليلة الماضية، فقد وجدت أنني في أي وقت أنظر فيه إلى الناس الذين يصطحبون معهم أطفالاً صغاراً، أرى علامات القلق والارتباك والإحباط بادية على وجوههم، إذ لا أحد منهم تظهر عليه علامات الرضا والقناعة التي أرغب في أن تكون هي المشاعر التي ستجلبها لي الأبوة، وكنت على وشك اليأس من ذلك.

بعد ذلك ذهبت إلى السوبر ماركت.

إن مدبرة المنزل هي عادةً من يقوم بشراء المواد الغذائية وغيرها من لوازم المنزل، ولكنها هذا الأسبوع موجودة في بلدها (باناما) من أجل الاعتناء بعمّها المريض أو بدجاجاتها أو بشيء من هذا القبيل، وأمّا زوجتي فهي كما يقول طبيبها «كالقنبلة الموقوتة». لذلك وجدت نفسي ملزماً بهذا العمل الذي أكرهه كثيراً، إذ لا يوجد شيء لا أفضّله عليه، فأنا أكره في السوبر ماركت شكل ممراته ولا أحب افتقارها إلى الضوء الطبيعي وأكره بشكل خاص الناس البدينين الذين يقومون بشراء الطعام الذي يجعلهم أسمن، كما أنني لا أحب النساء اللواتي يرتدين ملابس منزلية ويطالعون أخبار نجوم السينما في مجلات يقمن بوضعها في العربات الأخرى عندما يحين دورهن لدفع ثمن حاجياتهن، ولا أحب السرعة التي تقوم فيها تلك المرأة بفحص حاجاتي باستخدام الماسح الضوئي، وليس بمقدوري فعل أي شيء حيال ذلك، فقد يكون أحد أغراضي هو عبارة عن أداة منزلية قيّمة وهي تتعامل معها وكأن لا قيمة لها ومع ذلك لا أستطيع فعل أي شيء، كما أنني لا أحب الأسلوب العشوائي الذي يقوم به ذلك الفتى بوضع أشيائي في الأكياس ومن ثم رميها بشكل عشوائي أيضاً، إنني أدرك أنه لا يفعل ذلك بقصد التحدّي ولكنني، في الحقيقة، لا أدري سبباً وجيهاً كي يصب جام

غضبه على أشيائي، فهل حركاته الارتجالية السريعة هو وذلك الشاب الآخر الموجود في الممر المجاور على هذا القدر من الأهمية بحيث لا يمكن أن تستغرق ثلاث دقائق؟

إنني أتمنى أن يكون السوبر ماركت أشبه بمجمّع تجاري متنوع الأقسام حيث يتقاضى فيه العاملون نسبة عن مبيعاتهم، فهل كنت ستشتري الملابس من أولئك العاملين في السوبر ماركت؟ بالنسبة لي، لن أفعل ذلك أبداً، ومع ذلك سنسمح لهم بلمس الطعام الذي يدخل إلى جوفنا، تخيّلوا بائعاً في قسم حبوب الإفطار لديه معرفة وافرة بنسبة الشحوم في أحد المنتجات ومخزون الفيتامينات والأملاح المعدنية الموجودة في منتج آخر، أما كنت لتتسوق من ذلك المتجر؟

على كل حال، شعرت هذا الصباح وأنا أقترب من السوبر ماركت برهبة كبيرة عندما التقيت بصديقة قديمة، التقيتها تحديداً عندما كدت أن أدهسها في كراج السيارات، فقد كنت منتبهاً إلى أماكن صف السيارات وكنت أنظر في كل مكان إلا أمامي حيث ظهرت امرأة جميلة تدفع أمامها عربة تسوّق تضع في داخلها طفلاً صغيراً، كان الولد أكبر من أن يستطيع إنزال ساقيه من شقوق العربة لذلك وضعته في داخلها وكأنها قد وجدته في قسم الأطفال في السوبر ماركت وكانت ذاهبة لتشتري له. (لو قامت تلك السيدة بوضع رموز خطية على فخذ طفلها، أراهن أنّ الشخص الذي سيفحص الأشياء سيقوم بعرضه على الماسح الضوئي دون أن يمعن النظر في ذلك). وفي كل الأحوال، عندما انحرفت عنها واعتذرت لها هيمن عليَّ انطباع بأنني رأيتها سابقاً.

وبعد أن دخلت السوبر ماركت تذكرت أننا كنا سوياً في المرحلة الثانوية وذلك منذ أمد بعيد، لقد كانت من بين أجمل الفتيات في المدرسة وما زالت جميلة حتى الآن برغم أنها لم تعد مثيرة كسابق عهدها.

لقد اكتشفت أنني تذكرت عنها أكثر مما ينبغي، فقد تذكرت الأسماء الأولى لوالديها والصفوف التي درسناها معاً وتلك الحفلة التي رقصنا فيها معاً واعتقدت خلالها أنَّ باستطاعتي تقبيلها إلى أن بدأتْ بتقبيل شاب آخر في الثلاثينيات من عمره.

وبعد أن نزلت من سيارتي وبدأت بالمشي رحت أتساءل ما الذي أتى بها إلى هنا، أردت البحث عنها في السوبر ماركت وسؤالها عن كل شيء حدث معها منذ التخرج، ولا يرجع سبب ذلك إلى لهفتي في معرفة تفاصيل حياتها، بل لأنني أردت أن أعرف كيف قام القدر بجلبها إلى هذه البقعة في هذا الوقت تحديداً، ففي عالم كبير كعالمنا ما هي أرجحية التقاء شخصين بعد غياب دام أربع عشرة سنة في السوبر ماركت نفسه وفي ذات الوقت؟

كيف حدث ذلك؟

كيف اتفق أن قررَتْ القيام بالتسوق في هذا اليوم وفي الوقت نفسه الذي قمتُ أنا فيه بالتسوق أيضاً؟

أخيراً، آثرت عدم العثور عليها، فأنا لا أتخيل أنها ترغب في سرد قصّة حياتها أمام شاب رقصت معه ذات مرة في المدرسة الثانوية، ولا سيّما وهي تضع الأطعمة المجمدة وابنها في عربة واحدة، ولكن عندما اقتربت من الأبواب الأوتوماتيكية وجدت نفسي أتساءل عن شيء آخر، كيف وصلت أنا إلى هنا؟

ما الذي أدى بي إلى هذه البقعة وفي هذه اللحظة تحديداً؟ عندها توقفت في مكاني وأخذت أبحث وأفكّر في سلسلة لا متناهية من الدوافع التي جعلتني أحضر إلى هنا في هذه اللحظة تحديداً، في الحقيقة لقد استمتعت بذلك وأنصحك أن تتوقف أحياناً وتسأل نفسك: (ما الذي جاء بي إلى هنا؟ كيف قادتني الحياة إلى هذا المكان في هذه اللحظة تحديداً؟) ربما ستجد في ذلك علاجاً ناجعاً ولا سيّما في السوبر ماركت.

عندما كنت أتسوق داخل السوبر ماركت وأحاول جاهداً ألا أرتطم بالنساء، وجدت نفسي أحدّق بشخص في قسم الأجبان، لقد كان رجلاً يرتدي ملابس أنيقة ويكبرني ببضع سنوات ويدفع أمامه عربة مليئة بلوازم الأطفال (طعام أطفال ومناديل وحفاظات) والبيرة وكان أيضاً يصفّر بشكل علني، وفي الحقيقة إنَّ أكثر ما يزعجني هو أن يصفّر المرء في مكان عام، إذ ليس هناك على وجه الأرض من لديه صفير موسيقي ينبغي على الآخرين سماعه، لِذا رمقته بنظرة حانقة كفيلة بإسكاته، لكن ذلك لم يُجد نفعاً، إذ اكتفى بالمشي جيئة وذهاباً عبر الممرات وكان ينظر إلى كل شيء دون أن يركّز على شيء بحد ذاته، ودون أن يتوقف عن الصفير، لقد تراءى لي أنه لم يدرك أنه يصفر، فهو يبدو سعيداً لمجرد أنه خارج المنزل في صباحٍ مشمس، يقوم بالتسوق وحيداً تاركاً عائلته في المنزل، وكانت تعلو وجهه ابتسامة عفوية مشرقة ما لبث أن انتقلت إليَّ عندما كنت أراقبه، وقبل أن أدرك ذلك، كنت أتبعه في الممرات.

فجأة ولأول مرّة في حياتي لا أجد نفسي منزعجاً من الصفير في مكان عام، لقد أدركت وأنا أمشي جيئة وذهاباً في الممرات وأصفر في الوقت نفسه أنَّ هذه هي الحياة، فهي ليست معجزة تستمر لوقت طويل، بل هي

سلسلة من آلاف المعجزات الصغيرة، إنها ليست الأيام التي تحدث فيها أشياء لا تنسى فقط كرؤيتك للموناليزا للمرة الأولى أو كحصولك على ترقية من مديرك، إنَّ الحياة أصغر من ذلك بكثير، فهي لحظات كهذه تماماً، عندما تصفر في السوبر ماركت دون أن تدرك ذلك.

الجولة الثانية

إلى السوبر ماركت

تشرين الأول 2001 ـ كانون الثاني 2002

تحت الحصار

مناجاة ذاتية

الإثنين في 18 تشرين الأول.

أحبُّ أن أعد نفسي شخصاً متسامحاً، فأنا أؤمن بمنح الناس فرصة ثانية وثالثة ورابعة وخامسة وعاشرة، وهذا ينطبق على حياتي الشخصية والمهنية، إنّني أقدّر فكرة التسامح، ربّما لأنني أرتكب الأخطاء طوال الوقت.

فمثلاً قمت ذات مرّة بوضع منشفة حمراء جديدة في غسالة مليئة بالملابس البيضاء فقط ولم تأت مرحلة التجفيف إلا وأصبح لونها زهرياً.

وأتذكر لدى لقائي الأول مع زوجتي في عيد الحب أنني استرسلت في الحديث عن ثوب النوم الضيق والمبهرج الذي اشتريته لها من محلات سر فيكتوريا ولكنها تزوجتني على كل حال.

بعدها تحمّلت مني ما هو أسوأ من ذلك بكثير، كتلك المرّة التي حاولت فيها إصلاح المصباح الكهربائي الموجود في حوض الاستحمام (وكان علينا أن ننتقل بعده) أو تلك المرّة التي نسيت فيها جوازات سفرنا في درج غرفتنا في الفندق الذي نزلنا فيه في اليونان (مما أدى إلى تأخيرنا) أو تلك المرة التي أقنعتها فيها بالذهاب معي إلى السينما لحضور فيلم (بيغالو السيئ):

إنَّ التسامح هو ما يميّز الإنسان عن الحيوان، وهذا ينطبق على الرياضة أيضاً لاسيما مع الرياضيين الذين يتعاطون المخدرات، إنني أستحسن منح داريل ستروبيري كل الفرصة الممكنة بصرف النظر عن عدد المرات التي ثبت فيها تعاطيه الكوكائين ومعاشرة الغواني، وكذلك الأمر بالنسبة لـ ستيف هاو، ففي أي وقت كان قادراً على تجاوز أخطائه كنت مستعداً لإعطائه كرة، كي أعرف إذا كان ما يزال قادراً على رميها.

إنني أؤمن بمنح الناس كل فرصة ممكنة لإصلاح أنفسهم، لكن هناك استثناء واحد من ذلك وهو تعاطي المنشطات، فأنا لا أغفر لا ولن أتعاطف معهم أبداً بصرف النظر عن الجدّية التي قد يظهرونها من أجل التعاطف معهم.

هناك اعتقاد كبير بانتشار تعاطي المنشطات في الرياضة بشكل واسع، وذلك يعدّ من وجهة نظري أسوأ من أي عمل مشين قد نتصوره، فهذا العمل يزعجني جداً؛ لأنني أعده عملاً مستهجناً وغير جدير بالاحترام، إنّ هذا ليس من قبيل الرسائل الموجهة لأبنائنا؛ لأننا لسنا قلقين فعلاً بشأن الرسائل التي نوجهها لهم، وفي الحقيقة، لقد تمَّ نسيان المنشطات وسط كل هذا السلوك الوحشي اللامبرر والعنف الراسخ المكشوف على شبابنا السريع التأثر.

كلا، إنَّ الأمر لا يتعلق بأبنائنا، بل يتعلّق بنا نحن المعجبين. ومع ذلك ماذا يمكننا أن نكون سوى مجموعة من المتأثرين بهم؟ فنحن مجموعة من الشبان الذين يحبون كثيراً أن يكونوا لاعبي كرة، ولكن ليس بمقدورهم فعل ذلك.

ربما لأننا غير بارعين بما فيه الكفاية.

إننــي لا أستطيع التعايش مع هــذه الحقيقة وكذلك أنت، إذ يجب علينا تقبلهــا، فقد يكون بعض الشبان أكثر حظاً منا؛ لأنهــم خلقوا أكبر حجماً وأقوى وأسرع وهــم يعملون ويضحّون ويدفعون ثمناً غالياً، فإذا كانوا فعلاً مميزيــن فسيصبحــون أولئــك الشبــان الذين ندفــع لهم نقــوداً من أجل مشاهدتهم ونحسدهم كالمجانين آه لو استطعت لمرة واحدة فقط أن أختبر ذلك الشعور الذي يجلبه ضرب كرة لمسافة طويلة تؤدي إلى الفوز بمباراة، ولكن هذا لا يمنعنا من الإعجاب بهم؛ لأننا نعلم أنهم جديرون بذلك.

ولكن ماذا لو كانوا غير جديرين بهذا الإعجاب؟

وماذا لو كان إخفاقهم هناك وفوزنا هنا سببه الحقن؟

وماذا لو كان الفرق بينهم وبيننا سببه تهمة الخيانة؟ ماذا لو كان فوزهم مزيفاً؟

هذا ما لا نقبله، وفي كل الأحوال، أنا لا أستطيع تقبله، فهذا سيذهب بكل لحظة استمتاع أجدها في مشاهدة تلك المباريات.

لا أستطيع التسامح في هذا الأمر؛ لأنه وبصرف النظر عن عدم أهمية رمي كرة البيسبول بالنسبة لبعضهم، إلا أنه يعني الكثير لبعضهم الآخر، الذين يعتقدون بأهمية الرياضة والرجال الذين يلعبونها، وأفهم أنَّ لعبة البيسبول هي مصدر عيش لأولئك الشباب، لكن عليهم أن يفهموا بدورهم أنها تعني لنا الكثير، وعارٌ عليهم إذا كانوا سيقللون من شأن شيء ثمين، كهذا عن طريق الغش.

إنني أقول للاعبي البيسبول ما يأتي: لا تقولوا لي إنّكم تحبون لعبة البيسبول إذا كنتم ستغشّون فيها مما سيؤدي إلى أن تكونوا أكثر نجاحاً من الآخرين، فإنه وبصرف النظر عن النقود التي تكسبونها وبصرف النظر عن تلك الرميات الطويلة التي تؤدونها، فأنتم لستم بأكثر أهمية من اللعبة ذاتها.

لا يوجد أحدٌ أهم منها.

عارٌ عليكم إذا لم تدركوا ذلك.

حسنـــاً، أظن أنني عدت للكتابة من جديد، فأنا لم أفتح دفتر مذكراتي هذا منذ نحو السنتين، إذ لم أشعر بحاجتي لذلك، فأنا أكتب عندما أكون بحاجة إلى فهم نفسي وأعتقد أنني فهمتها جيداً خلال السنتين الماضيتين، لكنـــي هأنذا أعاود الكتابــة ثانية، وعلى الرغم من عــدم معرفتي بالسبب الحقيقــي من وراء ذلك، فأنا أظــن أنَّ الأمر يتعلق بالبكاء من جهة وبكرة القــدم من جهة أخرى، وهذا أمر يثير الدهشة؛ لأنهما أبعد ما يكونان عن بعضهما.

إنَّ النبأ السار هو أنني لم أشعر بالتعاسة منذ ولادة طفلتي، بل على العكس تماماً، كنت سعيداً للغاية، ولهذا السبب لم أكتب عندما كانت صغيرة. (أمَّا الآن فهي لم تعد كذلك إذ أصبح عمرها نحو السنتين) فبعد ولادة طفلتي لم أشعر أبداً بالحاجة إلى كتابة مذكراتي كما أنني لم أشعر بذلك حتى خلال تلك الليالي الصعبة التي يواجهها الآباء الجدد، عندما

تكون الساعة الثانية صباحاً وأنت في الكرسي الهزاز تحاول إطعام طفل غير جائع وتحاول إيجاد أي شيء على التلفاز، وفي النهاية تقبل بمشاهدة برنامج رودا للمرّة الثانية، ويمكنني القول: إنّ هذه كانت نقطة الضعف الوحيدة في السنة الأولى لطفلتي: ففي الليلة التي كنت أتابع فيها برنامج رودا في الساعة الثانية صباحاً، أدركت أنني قد شاهدت الحلقة نفسها منذ بضعة أسابيع، فقد كانت الساعة الثانية صباحاً وأنا أشاهد عرضاً ثانياً لبرنامج رودا، وكانت ابنتي بين ذراعي تغط في نوم عميق وأسنانها مطبقة على حلمة زجاجة الإرضاع وكنت أخشى أن أقوم بأي حركة: لأنها في حال استيقظت وبدأت بالبكاء مرّة ثانية، فإنني واثق من أنني سأقتل نفسي. ومع ذلك لم أفكّر في كتابة مذكراتي في تلك الليلة ولا في الصباح اللاحق ولا حتى في أي صباح بعده ولا في كل هذه المدة، فانتقالي من وضع إلى آخر قد تمَّ بشكل جيد ، فوجود زوجتي في المنزل خلال الشهور الأولى قد ساعدنا كثيراً، كما قام والداي ووالدا زوجتي بتقديم المساعدة أيضاً، وحصلنا على قدر كبير من المساعدة من لورديس (لا أعني بذلك بركة من البابا، بل لورديس هي مربية أطفال من (باناما) وهي تعيش معنا في البيت).

لقد كان كل شيء رائعاً.

بعدها قمت في الأسبوع الماضي، ومن حيث لا أدري، بصب جام غضبي في ذلك المقال اللاذع والغريب عن المنشطات، لست أنا من يتصرف بهذه الطريقة ولا أدري كيف حصل ذلك معي، إذ لم تكن مسألة المنشطات تعنيني كثيراً، أمّا الآن فأنا مهتم بها؟ لقد بدا لي الأمر خطيراً جداً لدرجة أنني احتفظت بنسخة من المقال: لأريها للدكتورة غراي، ولكن ذلك

وحده لم يكن كفيلاً بأن يجعلني أبدأ الكتابة من جديد، فما فعله ذلك بي بالضبط هو أنّه جعلني أفكّر، وكلما فكّرت أكثر، كلما أدركت كم أصبحت ـ مؤخراً ـ حساساً تجاه كل شيء.

إنني لا أستطيع أن أوقف نفسي عن البكاء، وهذا مخالفٌ لعادتي تماماً، فأنا لا أبكي أبداً، وهذا ليس بدافع القسوة، بل لأنني لا أبكي وحسب، لكنني الليلة بكيت في أثناء إعلان تجاري عن المشروبات وصرخت على مدرب كرة قدم، وبعدها مباشرة فتحت هذه الصفحة وها أنا أعاود الكتابة من جديد، هاهو القلم بيدي مرّة ثانية لقد عدت للكتابة لكن بقلق أكبر من ذي قبل.

(مبللاً أيضاً، ولكن من البكاء هذه المرّة).

إنّ البكاء ظاهرة جديدة علي وكما قلت من قبل فهي لم تبدأ مباشرة بعد ولادة طفلتي، فأنا أعرف الكثير من الشبان الذين يبكون عندما يولد أطفالهم لكنني لست منهم، فقد كنت منهكاً لدرجة لم أستطع معها البكاء، فقد كان ذلك يوماً طويلاً مليئاً بالتعرق والضغط وصيحات التشجيع، إنّ أكثر ما أتذكره عن ذلك اليوم شيئان اثنان: الأول هو صوت أبي الذي سمعته قبل لحظات من ولادة الطفلة، فقد كانت زوجتي تلهث وتنفخ وتتعرق وهي قبالة باب غرفة التوليد، بينما وقفت عند رأسها ورحت أقول لها: كم هي رائعة بما تقوم به (بالطبع لم أعرف ما إذا كانت تبلي حسناً أم لا، فأنا لم أتعرّض لتجربة مماثلة كي أستطيع المقارنة: لكن القول: «يا عزيزتي، لقد شارف الأمر على الانتهاء وإنني متلهف لرؤية طفلنا» بدا أمراً غير وارد).

على كل حال، كان الأمر على وشك الانتهاء ـ ويمكنني معرفة ذلك من خلال التعابير البادية على وجوه الطبيب والممرضة ـ عندما ساد هدوء مدة وجيزة سمعت خلالها صوت أبي، فقد وصل هو وأمي لرؤية حفيدتهما الأولى ويبدو ذلك رائعاً، لكنني شعرت بخوف فظيع كاد يقصم ظهري، فماذا لو دخلوا الغرفة الخطأ؟ وماذا لو قاما الآن بفتح باب غرفة التوليد ظنّاً منهم أنّه باب غرفة الانتظار؟ في تلك الحالة سيلتقون بحفيدتهما وجهاً لوجه باستثناء أنَّ وجه الحفيدة مازال موجوداً داخل زوجتي، ماذا سيحصل عندئذٍ؟ من المؤكد أنهم لن يتمكنوا من رؤيتنا مرَّة أخرى، إذ لن تستطيع زوجتي تخطي ذلك، فإما سيكون علينا الانتقال بعيداً، وإما سيكون عليَّ قتل والديَّ وليس هناك أي حل آخر.

ولحسن الحظ لم يقم والداي بدخول غرفة التوليد، إذ سرعان ما اختفى صوتهما، فهما من دون شك قد وجدا غرفة الانتظار وهما الآن ينتظران قدوم الأخبار السارة، لقد شعرت براحة كبيرة، إنَّ ذلك الحدث هو الشيء الأول الذي سيبقى في ذاكرتي عن ذلك اليوم.

وبعدها حصل انقباض آخر في رحم زوجتي وفجأة امتلأت الغرفة من جديد بصرخات زوجتي الصاخبة وصوت كل الأجهزة الموجودة في الغرفة وصيحات التشجيع من الطبيب والممرضة، وفي هذه الأثناء كنت أشعر براحة تامة لعدم التقاء والديّ بزوجتي (وجهاً لعنق الرحم) الأمر الذي أظن أنني فعلته كثيراً، وبعدها بدأت الصراخ من جديد مشجعاً إياها ولكن بحماس أكبر هذه المرَّة، وعندما تلاشى ذلك الانقباض أمسكت زوجتي بذراعي وجذبتني باتجاهها وهمست بصوت مرتفع لم يسبق لي أن سمعته منها وآمل ألا أسمعه مرَة ثانية: «اخرس يا مايكل، اخرس!».

إنني لا ألومها على ذلك، فربما كان عليَّ أن أخرس.

وفي كل الأحوال، فهذا الأمر هو الحدث الثاني الذي سأتذكره دائماً عن غرفة التوليد، إنَّ هذا الأمر لم يبكني أيضاً (لقد جعلني أرتعش قليلاً، لكن دون أن يبكيني) كما أنني لم أبكِ عندما خرجت طفلتي من رحم أمها أو عندما قال الطبيب: «إنها فتاة» أو عندما قبّلت زوجتي على جبينها وأخبرتها كم أنا فخورٌ بها أو عندما أخبرت والدَيّ أو عندما اتصلت بالعائلة والأصدقاء أو حتى عندما أعطوني تلك الصرّة الزهرية الصغيرة؛ كي أحملها لأول مرّة.

لقد بكيت بعد أسبوع من ذلك، عندما كان عليّ أن أسافر في رحلة عمل بعيدة، فحين رأيت السيارة تقترب من الطريق المؤدية إلى المنزل، قمت بتقبيل فتاتيَّ وتوديعهما وقامت الفتاة الكبيرة بتقبيلي، أما الصغيرة فكانت تغط في نوم عميق بين ذراعي الكبيرين، وكانت تبدو جميلة جداً، وبينما كنت أغادر المنزل، لم يكن بمقدوري سماع شيء سوى هدير جزازات العشب التي تستعملها شركة الخدمات لجزّ عشب حديقتي، إنهم ثلاثة شبان يتكلمون الإسبانية ويركبون ثلاث جزازات عشب قوية وسيقومون بجزّ عشب حديقتي في غضون عشر دقائق، لم يسبق لي أن لاحظت كم كان صوتها عالياً إلا حينها، وعندما هممت بركوب سيارة الليموزين حاولت أن أصرخ بصوتٍ عالٍ: «أحبكن!» لزوجتي ولطفلتي اللتين كانتا تراقبانني من المدخل، لكنني أعرف أنه لن يكون بمقدورهما سماعي بسبب الهدير المنبعث من جزازات العشب وعندما قام السائق بإرجاع السيارة إلى الوراء عبر الطريق المؤدية إلى المنزل من أجل الالتفاف طلبت منه التوقف، ثم فتحت النافذة ورأيت أن زوجتي ما تزال واقفة في المدخل وهي تحمل طفلتي الصغيرة بين ذراعيها وتقوم بمراقبتنا ونحن نبتعد، فلوّحت لها بكل طاقتي، لوّحت بيدي وكأنني أفعل ذلك لأول مرّة.

ثم بدأت بالضحك فقد قام الشاب الذي كان يجزّ العشب من المنطقة الواقعة بين السيارة وبين المنزل، بالتوقف والتلويح لي، في الواقع، لم يلتفت إلى الوراء كي يعرف أنني كنت ألوّح لعائلتي، لقد استمر بالتلويح لي طوال وقت انطلاقنا بالسيارة ومن الواضح أنّه ظنَّ أنني ألوح له كي أودعه، وافترض أنه سيظنُّ ذلك دائماً، عندها بدأت أضحك وفي الوقت نفسه أخذت أبكي بأسى، فقمت بالاتصال مع زوجتي من هاتفي الخلوي فوجدت أنها تضحك وتبكي في الوقت نفسه أيضاً، مثلي تماماً، في الحقيقة كان أمراً لا ينسى عندما بدأت أول رحلة عمل لي بصفتي أباً.

بحسب ما أتذكر، أدركت وأنا داخل السيارة أنها كانت المرة الأولى التي تبكيني فيها ابنتي، وأتذكّر أيضاً أنني ظننت أنها لن تكون المرّة الأخيرة إلا أنك لن تستطيع نسيان المرّة الأولى.

لقد سار كل شيء على ما يرام حتى وقت قريب، فقد بدأت بالبكاء من جديد، لكن هذه المرّة من دون سبب، فقد بدا الأمر وكأنني أقضي حياتي كلها في مشاهدة أفلام رومانسية (أو سماع أغنية برايان التي تذكرني بأول لقاء عاطفي لي مع زوجتي)، ولكنني الآن لم أعد أبكي لدى مشاهدة الأفلام فقط، فقد أخذت الليلة بالبكاء لدى مشاهدة إعلان تجاري يقوم فيه طفل صغير بلعب كرة السلة مع مايكل جوردان لقد ذكرني ذلك بإعلان آخر ظهر منذ سنوات عديدة والذي يقوم فيه طفل بإعطاء مين جوغريني (Mean Joe Green) زجاجة كوكا كولا فشربها غريني ثم قام برمي قميصه الرياضي للولد الصغير، فصاح الصغير: «شكراً»، (مين جو)! هل تتذكرون ذلك؟ لقد كان من أروع الإعلانات التجارية على الإطلاق، لكنّه لا يستدعي البكاء عليه بعد ثلاثين سنة.

وبينما مسحت عيني بمنديل، تم استئناف مباراة كرة القدم التي كنت أتابعها على التلفاز. وهنا فقدت صوابي، ولكنني محظوظ؛ لأنني لم أفقد عملي في الوقت نفسه. لقد كان ذلك من أغرب الأشياء التي حصلت معي، ولا سيما إذا أخذت في الحسبان مدى حبي لكرة القدم.

إنني أعد كرة القدم من أروع الألعاب الرياضية على الإطلاق، فهي أروع لعبة في العالم، كما أنها تعد التسلية الأمير كية الحقيقية. فأنا أحب هذه اللعبة وأحب الشبّان الذين يلعبونها وأحبُّ شكل اللاعبين وهم خاسرون، كما أحب أولئك اللاعبين الذين يرتدون قمصاناً رياضية ذات أكمام قصيرة عندما تكون درجة الحرارة عشرين تحت الصفر. وأحب ذلك الانطباع الذي يرتسم على وجه حكم المباراة عندما يتخذ قراراً لا يعجب الجماهير، وأحب الإحساس الذي يشعرني به يوم الأحد حيث يهبط الليل خارج المنزل ويكون جهاز التلفاز هو الضوء الوحيد داخله، وأحبُّ المعلّقين الذين يشعرون بضرورة تفسير أهمية عدم المجازفة، وأحبُّ مشاهدة الإعادة لركلة طويلة نفّذها حارس المرمى فلامست خط مرمى الخصم، وأحبُّ كل شيء عن كرة القدم الاحترافية. ولكن أكثر ما أفضله فيها على الإطلاق هو المدربون الرياضيون.

ليس هناك في العالم من هو أكثر قساوة وقوة من مدربي كرة القدم، فأنا أظنُّ أنّ بإمكان مايك ديتكا أن يقتحم مكتب أي زعيم ولاية. كما أعتقد أنه كان بمقدور بيل بارسيلز جعل (صدام حسين) يشارك في مسابقات المسافات القصيرة وأعتقد أنه كان يجدر بـ توم لاندري أن يكون رئيس الولايات المتحدة الأميركية.

إنني أعتقد في الحقيقة أنَّ مدربي كرة القدم يتمتعون بكل المواصفات اللازمة لقيادة أي بلد: القيادة والقوة والذكاء والقدرة على انتقاء الأشخاص المناسبين، كما أنَّ لكل مدرّب مجلسه الاستشاري المصغّر: أمين سر الفرق المتميّزة، ورئيس المحكمة العليا لخط الهجوم ورئيس حزب الأغلبية في الدفاع. تخيّلوا معي كيف كانت الأمور ستختلف جذرياً في فيتنام لو كان فينيس لومباردي هو من يتولى زمام الأمور بدلاً من ليندن جونسون، من المؤكد أنَّ ذلك الهجوم كان سيقضي على الشيوعيين، في الحقيقة يجب علينا أن نقرّ أنّه في حقبة الستينيات كانت الكفة راجحة لصالح لومباردي على (LBJ) وفي حقبة السبعينيات كانت كفة تشانك نول راجحة على كفة (جيمي كارتر) وفي حقبة الثمانينيات، لم يكن هناك فرق يذكر بين بيل والش ورونالد ريغان أما في حقبة التسعينيات فسأرجح كفة بيل كلينتون على كفة جيمي جونسون لكن ليس في الهروب، كما أنني سأرجح كفة بيل بيليتشيك على كفة (بوش) في هذا العقد الحالي، لكن سنرى كيف ستسير الأمور.

إنَّ أهم ما في الأمر هو أنَّ مدربي كرة القدم يستحقون الشيء الأكثر أهمية في هذا العالم ألا وهو الاحترام، فإما أن نحترم المدرّب وإمّا أن يقود الفريق إلى التهلكة، إلاّ أنَّ ذلك لا ينطبق على باقي الألعاب الرياضية، ففي لعبة البيسبول، من المهم جداً أن تكون هناك علاقة ودّية بين المدرّب ولاعبيه، وليس العكس، أما في كرة السلة فيقوم المدرّب بإيصال خدمة الغرف من طعام وشراب إلى اللاعبين، لكن مع مدرب كرة القدم فلا مجال للمناقشة فيما يفعل وإلاّ قادك إلى الهلاك، كم هو رائع أن تشعر بذلك النوع من السلطة.

إنَّ الفكرة الأساسية هي أنَّ المباراة انتهت بعد مدة وجيزة من توقفي عن البكاء وبعدها كانوا يجرون لقاء مع المدرب وكان يقول: إنَّ أطفاله هم أهم شيء في حياته، عندها صرخت على التلفاز دون أن أعي ذلك: «مخادع!»

في الحقيقة، إنها مجرد ردَّة فعل طبيعية، كحالك عندما يقوم الطبيب بضربك بعنف على ركبتك مستعملاً مطرقة مطاطية، لم أستطع ضبط نفسي، ماذا لو حدث ذلك معي وأنا على الهواء؟ لابدَّ وأنني كنت سأطرد قبل الانتقال إلى الفاصل الإعلاني الثاني، ومن المؤكد أن ينتهي المطاف بطفلتي الصغيرة كشخص فقير لديه بطاقة حكومية تخول له الحصول على الطعام من الدولة، وسيلحق العار بها لكونها ابنة ذلك المعلق الذي قال: «مخادع».

لقد صادف وأن عرفت ذلك المدرب، وأعرف أنه يصل مكان عمله بشكل روتيني في الساعة الخامسة صباحاً ولا يغادره قبل الثامنة مساءً، وغالباً ما ينام على أريكة موجودة في مكتبه، فكم مرّة حضر حفلة موسيقية! وكم حفلة عيد ميلاد لم يقم بحضورها! وأتذكَّر أنَّه قال ذات مرَّة: إنه لم يتمكن من إلقاء نظرة الوداع على جثمان أمه قبل دفنها؛ لأنه كان مشغولاً في التحضير لمباراة، فهل كانت عائلته هي أهم شيء بالنسبة له؟

إنَّ هذا ليس من قبيل الحكم على أولويات أي شخص، فإذا كنت تريد أن تولي عملك أهمية أكبر من الأهمية التي توليها لعائلتك فهذا شأنك، لكن لا تخدع نفسك وتقول: إنَّ العائلة هي الأولى في سلّم أولوياتك، بينما الواقع يظهر عكس ذلك، فهنالك الكثير من الطرق التي تستطيع فيها دعم الزوجة والأولاد من دون أن تنام في مكتبك أمام جهاز عرض أفلام سينمائية.

إنَّ ما لا أستطيع فهمه هو عدم امتلاك أحدنا الجرأة على مواجهة المدربين الرياضيين بتلك الحقائق فعندما يقول المدرب: إنَّ العائلة هي أهم شيء في حياته، يقوم الشاب الذي يجري المقابلة بإظهار استحسانه، وكأنه أمر مدهش أن ترى رجلاً ناجحاً كهذا استطاع ترتيب أولوياته بشكل صحيح، كم كان ذلك سيئاً!

إليكم كيف كان من الأفضل إجراء تلك المقابلة:

المراسل الصحفي: تهانينا على الفوز الرائع، كيف استطاع فريقك اليوم أن يحقق ذلك؟

المدرب: حسناً، عملنا بجد طوال الأسبوع، لقد وضع المدربون الخطط اللازمة لكسب المباراة وقام اللاعبون بتنفيذها.

المراسل الصحفي: ما هو شعوركم وأنتم تفوزون بمباراة مهمة كهذه؟

المدرب: حسناً، عليك أن تعيد الأمور إلى نصابها، فأنا عندما أرى ابنتيّ فإنهما لن تباليا سواء فزنا أم خسرنا ـ فذلك النوع من الأمور لا يستحوذ على اهتمامهما، وابنتي هما أهم شيء في حياتي.

المراسل الصحفي: متى كانت آخر مرّة رأيتهما فيها؟

المدرب: ماذا تقصد؟

المراسل الصحفي: أقصد، أنَّ ابنتيك الآن في سن الرابعة وسن السادسة، فهل رأيت إحداهما هذا الأسبوع؟

المدرب: حسناً، أظنّ أنني لم أفعل.

المراسل الصحفي: إذاً، كيف تعد عائلتك هي الشيء الأكثر أهمية في حياتك؟

المدرب: هاه!

المراسل الصحفي: هل تتذكر حتى اسميهما؟

(هنا يبدأ المدرب يبكي على ما حصل معه على الملأ في اليوم الذي ربح فيه فريقه بطولة (السوبربول) وعدّ ذلك أعظم يوم في حياته، متجاهلاً بذلك أيام ولادة ابنتيه).

المدرب: إنك على صواب ! ففي ليلة ليست ببعيدة وبينما كنت أتكلم على الهاتف، سألت عن إحداهما مستخدماً عبارة: «تلك الشقراء»، في الواقع، إنَّ هذا العمل يستحوذ كل حياتي بكاملها، إنَّ عائلتي ليست أهم شيء في حياتي، لكن من الآن وصاعداً سيتغيّر ذلك.

ما المقابل الذي ستدفعونه لرؤية تلك المقابلة؟ تخيلوا مدى الإزعاج الذي سأتلقاه من الجماهير الغفيرة.

لذلك جزمت بأنني أتصرّف بطريقة جنونية، فهذه الأفكار ما كانت لتخطر على بالي فيما مضى من حياتي، فأنا أعشق مدربي كرة القدم وأوافق من دون تفكير على كل كلمة يقولونها. وها أنا الآن أصرخ على أفضل مدرّب رياضي لعدم قضائه وقتاً كافياً مع أولاده، كنت أظنُّ دائماً أنَّ الأبوة ستغيّر من وجهة نظري، ولكنني لم أتخيل أبداً أنها ستفسد عليّ مشاهدة مباراة كرة قدم.

إنني سأبدأ من جديد بتدوين مشاعري في هذا الدفتر، وذلك ليس بدافع الاعتقاد بأن هذا الأمر ساعدني سابقاً بل لأنني غالباً ما أستمتع بقراءة مذكراتي، فليس لدي ما أخسره، أما الآن فأنا أبكي على إعلانات تجارية.

إلى أي مدى يمكن أن تسوء حالتي أكثر من ذلك؟

آه، هالوين[1].

إذا كان هناك شيء يمكنه أن يُذهِب هذه الكآبة ـ هذا الميل السخيف للحك والبكاء وانتقاد حكام كرة القدم ـ فهو الرائحة المنبعثة من اليقطين المجوّف ورائحة الحلوى وصوت الأطفال وهم يطرقون الأبواب؛ طلباً للحلوى.

لقد كان يوم (هالوين) هو عطلتي المفضلة دائماً عندما كنت ولداً صغيراً، وأظن أنَّ ذلك ينطبق على باقي الأولاد الصغار، فحصولك على حقيبة مليئة بالحلوى أمر يستحق أن تفعل لأجله أي شيء حتى لو كان ارتداء أكثر الملابس التنكرية سخافة، لقد كانت أيام الاحتفال بـ (هالوين) خيالية ورائعة، فإذا كان هناك مكان مثالي في العالم كي تحتفل فيه بعيد (هالوين) فهو يشبه حتماً ذلك المبنى في مانهاتن حيث نشأت، فالمباني السكنية هي المكان الأنسب لذلك، إذ يوجد أكثر من /180/ شقة وليس عليك ارتداء معاطف شتوية.ليس هناك ما هو أفضل من ذلك.

(1) هو يوم عطلة في الحادي والثلاثين من تشرين الأول حيث يلبس فيه الأطفال ملابس تنكرية ويذهبون من منزل إلى آخر: طلباً للحلوى.

إنَّ أولى الذكريات الموجودة في ذاكرتي هي عن عيد (هالوين) فقد ارتبطت تلك الذكرى بسيدة كانت تعيش في الطابق الخامس من المبنى الذي كنت أسكن فيه، وهي امرأة مسنَّة وكريهة، كما أنها سريعة الغضب وكان أبي قد أطلق عليها حينها لقب «العانس» كان عمري ست سنوات وكنت أقوم مع صديقة لي (لا تقلقوا من كلمة صديقة) اسمها سارة ماكسويل بطرق الأبواب طلباً للحلوى، كانت سارة ذات شعر أحمر ووجه مليء بالنقش وترتدي زياً تنكرياً على هيئة عروس، أما أنا فكنت مرتدياً سترةً جلدية سوداء، وقد ملّست شعري إلى الوراء. أتذكر تماماً صوت جرس الباب (كا ـ تشينغ!) وأتذكّر أنَّ العانس فتحت بابها ولكنها لم تمعن النظر فيَّ وقالت: «ماذا يُفترض بك أن تكون، مجرماً؟».

قلت لها: «كلاّ، إنني الشخص الشهير فونز (Fonz)».

لقد كلّمتني بازدراء ثم وضعت في حقيبتي ثلاث قطع حلوى على شكل جنود وبعدها التفت إلى سارة وقالت لها:

«وأنت، ماذا يفترض بك أن تكوني؟».

«إنني عروس جميلة».

عندها ساد صمت طويل تبعته تنهيدة تعاطف من العانس وقالت:

«إنّك تبدين جميلة حقاً يا عزيزتي لكن، هل تعلمين، أن تكوني عروساً فذلك ليس السبيل الوحيد كي تشعري بجمالك».

«ليس السبيل الوحيد!».

قالت العانس:«بالطبع لا وليس عليك أن تتزوجي إذا لم تكن لديك رغبة ﴿ ذلك».

«ليس عليَّ ذلك!».

قالت العانس: «كلاّ، فعندما تصلين إلى سن الزواج وتريدين اتخاذ القرار بهذا الشأن، ستجدين نفسك لست مضطرة حتى إلى اختيار رجل «ماذا؟».

قالت العانس: «هناك طرق عديدة كي تشعري فيها بأنك امرأة دون الحاجة إلى الارتباط برجل، حتى إنك قد تكبرين وتعتقدين أنَّ الرجال هم أعداء لك، وإذا كان الأمر على هذا النحو فلا بأس أيضاً» .

«لا بأس!».

قالت العانس: «بالطبع لا بأس، الآن خذي قطعة الحلوى هذه واخرجا من هنا».

وبعدها أغلقت العانس الباب ﴿ وجهينا.

إنني أتساءل ما إذا كانت سارة ماكسويل تتذكر ذلك؟

على كل حال، إنَّ الاحتفال بعيد (هالوين) فقد بهجته بالنسبة لي منذ عقدين إلى أن ولدت طفلتي، عندها عاد (هالوين) بزخم أكبر من ذي قبل، ففي السنة الأولى، ألبسناها زياً جميلاً على شكل وردة زهرية قامت حماتي بتفصيله لها، أمّا هذه السنة، فقد كانت المرة الأولى التي ستقوم فيها ابنتي بالاحتفال وطلب الحلوى، وقد اشترينا لها زي الديناصور (دوروثي) الذي يظهر ﴿ برامج الأطفال. كانت ابنتي متلهفة لتلك الليلة الكبيرة كحالي تماماً وعندها بدأت المشكلة.

هل تعلمون؟ لقد نسيت أن أذكر أهم فكرة في مقدمة هذه القصة: فقد احتفلنا بعيد (هالوين) مع شخص ثري جداً.

إنَّ المنطقة التي أسكن فيها يعيش فيها أغنياء آخرون إضافة إلى نخبة المجتمع من أولئك الذين يملكون من النقود مالا نستطيع نحن الأغنياء.

كانت زوجتي قد تعرّفت في النادي على امرأة من فئة النخبة وقامت بمصادقتها، وقد تبيّن أنها متزوجة من رجل ثري جداً أصبح مليارديراً في أثناء إدارته لشركة تأمينات، وبحسب ما أبلغت به: (إنك لن تلحظ ذلك أبداً).

بصراحة، إنني أحاول جاهداً أن أفهم كيف لا يمكن لأحدهم ملاحظة ذلك لا سيّما عندما تتم تحيته أمام باب الملياردير من قبل كبير الخدم أو عندما يلعب أحدهم الغولف في الساحة الخلفية الفسيحة لمنزله، وعلاوة على ذلك هو شخص مغرور إلى درجة كبيرة، ويتظاهر بالاستماع إلى برنامجي مع أنني واثق تماماً من أنه لا يفعل ذلك لأكثر من خمس دقائق عندما يعرف أنه سيراني، وهكذا يكون بإمكانه دائماً أن يستشهد بشيء قلته على الرغم من عدم إدراكه للفكرة الأساسية بشكل صحيح.

ولكن تلك العائلة الثرية لديها ابنة في مثل سن ابنتنا تقريباً، لذلك لم يكن مستغرباً أن يقوموا بدعوتنا لقضاء ليلة (هالوين) في منزلهم، بحيث يمكننا أن نحتفل بتلك الليلة معاً. في الحقيقة كنت متلهفاً لذلك اليوم إلى أن أرسل لي السيد الملياردير رسالة بالبريد الإلكتروني جاء فيها:

«إنني أتشوق للقائكم يوم الأحد

سأرتدي زي الرجل العنكبوت

من فضلكم، ممنوع التصوير».

لقد قرأت تلك الرسالة أربع مرات قبل صراخي بصوت عالٍ: «أوه، تباً إنّه ومن دون شك: كتب تلك الرسالة؛ كي يعلمني بأنّه سيرتدي ملابس تنكرية، كان ذلك آخر ما يمكن أن أتوقعه. هل أصبح من المفروض عليّ الآن أن أرتدي زياً تنكرياً لمجرد أنه سيفعل ذلك؟ ما هذه اللباقة؟ إنني رجل في السابعة والثلاثين من عمري ولا أملك مليار دولار؛ لذلك سيسخر الناس مني كثيراً إذا ظهرت بهيئة مضحكة.

قرأت تلك الرسالة عدّة مرّات، لكنني لم أجد سبباً من وراء كتابتها إلّا لكي ينبهني بأنه سيرتدي ملابس تنكرية، لكن لِمَ؟ فهل كانت الرسالة واضحة لدرجة لا تستدعي هذه الدهشة، أم كانت تعلمني بشكل غير مباشر أنه يتوقع مني أيضاً ارتداء زي تنكري؟ لقد أمضيت معظم عطلة نهاية الأسبوع، وأنا أسأل كل شخص ألتقيه: هل أنا ملزم بارتداء ملابس تنكرية للاحتفال بـ (هالوين) لمجرّد قيام صاحب الدعوة بذلك؟ (علاوة على ذلك، هل كنت سأنزعج إلى هذه الدرجة لو كان مضيفي هو سائق سيارة أجرة؟ عليك عدم الاستخفاف أبداً بالرغبة في ترك انطباع لدى شخص ثري).

وأخيراً قررت ألا أرتدي زياً تنكرياً، وإنّ ما سهّل عليَّ اتخاذ مثل هذا القرار هو قلة الخيارات الموجودة في متجر الأزياء التنكرية.(وفي حال سئلت عن عدم ارتدائي زياً تنكرياً فسأجيب بأنني تنكّرت بزي معلق رياضي جذاب). لقد شعرت بالارتياح لدى وصولنا إلى هناك حيث وجدت أنَّ الملياردير كان الشخص الوحيد الذي ارتدى ملابس تنكرية، وتحسنت الأمور أكثر بعد تناول الشراب.

وعلى كل حال، وصلنا منزلنا للتو وكانت ابنتي قد أحبت ذلك الاحتفال كحالي تماماً، كما أنني أمضيت وقتاً ممتعاً مع الملياردير، وأرفض أن أتخذ من ارتدائه ملابس تنكرية ذريعة لانتقاده، فقد لا أكون ذلك النوع من الآباء الذين يلبسون زياً تنكرياً مع أولادهم في احتفال (هالوين)، لكنني لا أريد أن أكون ذلك النوع من الآباء الذين يسخرون من الآباء الآخرين الذين يفعلون ذلك، إذ يجب أن يقتصر ذلك على العوانس المسنّات الكريهات.

دعني أسألك سؤالاً: هل أنا ملزم اجتماعياً بتذكر الشاب الذي صمم التيراس المنزلي؟ بالطبع، إنني لست المعني الوحيد بذلك، فهل تتذكر أنت أيضاً الشاب الذي صمم لك تيراس منزلك؟ وإن لم تتذكره فهل يكون من الأفضل أن تشعر بالاستياء؟

إنني أؤكد لك أنه ليس عليك فعل ذلك، فأنا أقول هذا الكلام من وجهة نظر شخصية، فقد تمَّ إفساد مسائي الجميل والمثالي؛ لأنني لم أتذكر الشاب الذي قام بتصميم تيراس منزلي.

إليكم ما حصل: لقد أقمنا صداقة مع العائلة الثرية، فبعد احتفالنا معهم بعيد (الهالوين) كنا ملزمين بدعوتهم إلى منزلنا، وقد فعلنا ذلك وسارت الأمور على خير ما يرام، ثم دُعينا في الليلة الماضية لحضور حفلة مميزة في عزبتهم وما أعنيه دُعينا لحضور حفلة خيالية، فكل الناس الجميلين كانوا هناك، وهذا أمر لطيف؛ إذ ليس هناك من لا يحب الجمال.

أما بالنسبة للناس المدعوين فقد طلب منهم ارتداء ملابس «سبور شيك» مما يعني بالنسبة للرجال «عدم ارتداء ربطات العنق» أما بالنسبة للنساء فهو يعني التفكير ملياً بهذا منذ لحظة تلقيك الدعوة، وانطلاقاً من هذه النقطة، فإن تحديد اللباس للمدعوين أمر يؤذي مشاعر الآخرين، لكن ذلك هو الشيء الذي يمكنك فعله عندما تكون ثرياً؛ لأنه وبصرف النظر عمَّا تلبسه، سيتمنى الجميع لو كانوا يرتدون مثل ملابسك، فلو ارتدى الأثرياء ملابس من الخيش أو القنّب في حفلة عشاء، فستجد في الصباح اللاحق أنَّ جميع الملابس المصنوعة من الخيش أو القنّب فقدت من أسواق البلدة. ولا داعيَ للقول: إنَّ اهتمام جميع الحضور سيتركّز على معرفة ما الذي سيرتديه الأثرياء في حفلتهم الخاصة. إنَّ الجيد في الأمر هو معرفتنا لبعض المدعوين الآخرين، وبذلك استطاعت زوجتي أن تنتقي ملابسها وفقاً لملابسهم، بحيث لن تتمكن أي من صديقاتها أن تكون أكثر أناقة من الأخريات.

لقد ارتديت سترة سوداء من الصوف الناعم ماركة لورو بيانا (Loro Piana) وقميصاً فضياً ماركة ليفاينز / 501 / (Levi s 501) كما انتعلت جزمة بنية مصنوعة من الجلد ماركة (Gucci).

أودّ إخباركم أنها كانت أول مجموعة أخرجتها من الخزانة، لا بل كانت من بين أول عشر مجموعات، وفي الحقيقة، أصرّت زوجتي على أن تنال ملابسي رضاها؛ لذلك طلبت قبل أسبوع من موعد الحفلة رؤية تلك الملابس وبتلك الطريقة - كما شرحت لي - يكون أمامي متسع من الوقت كي أتسوق ملابس أخرى في حال لم تنل ملابسي الرضا المطلوب. لا أخفيكم سراً أنني شعرت بالإهانة إلى حد ما، لكن على الأقل حصل هذا

الأمر فيما بيننا، فلقد رأيت في الحفلة شاباً أرسلته زوجته إلى المنزل؛ لأن ملابسه عملية جداً. (وكان آخر ما قاله: «ماذا تعني كلمة عملي»؟ إذ لم يكن بمقدوري ارتداء جينز).

بدا المكان رائعاً، كما هو دائماً من حيث البالونات التي زيّنته وعازفي الغيتار الذين تجولوا بين المدعوين، ومائدة العشاء المفتوحة والضخمة والفرقة الموسيقية المتخصصة بالألحان الشعبية.

توجّهت مباشرة إلى البار، حيث كانوا يقدمون شراباً من النوعية الفاخرة، فطلبت قدحاً من شراب غري غوس بينما أخذت الفرقة الموسيقية في العزف وظهر مدرب الرقص من حيث لا أدري وأمسك بيدي، في الحقيقة، لم يكن هناك مجال لتفادي ذلك، فقد تمَّ إنزال جميع الرجال إلى ساحة الرقص لتعلّم رقصة الميرينجو فأعطيت قدح الشراب لزوجتي وقلت لها: «اطلبي لي واحداً آخر، سأعود حالاً».

وجدت نفسي فجأة في صف مكوّن من ثلاثين رجلاً أبيض، يتعلمون رقصة الميرينجو من قبل شاب فنزويللي مخنّث يدعى جورج، شعرت برغبة في الضحك على ذلك الرجل الموجود خلفي وهو يرفرف بذراعيه كالدجاجة، لكنني تذكّرت أنه قد باع شركته منذ وقت قريب بمئة مليون دولار وأدركت أيضاً أنني قد لا أكون أفضل حالاً منه وأنا أحاول أن أهزَّ أوراكي مثل (ريكي مارتن) كنت بحاجة للخروج من الحلبة، لكنني كنت أنتظر مبادرة أحدهم بفعل ذلك، لقد بذلت ما في وسعي؛ كي أرقص جيداً إلى أن قام محاميان في الجهة المقابلة بالتوجه إلى الحمّام، فلحقت بهما وتوجهت بسرعة نحو البار. وعندما استرجعت كأس الشراب من زوجتي، قالت لي: «كنت تبدو جذاباً وأنت ترقص هناك».

كان بمقدوري أن أشكرها وأترك الوضع على ما هو عليه، لكنني عوضاً عن ذلك سألتها ما إذا كانت تعني ما تقوله فعلاً، واقتصرت ردّة فعلها على ابتسامة ارتسمت على وجهها وبعدها شربت ما تبقى من قدح الشراب بجرعة واحدة وقلت: «أعتقد أنه من غير الملائم إجبار الرجال البيض على الرقص».

ثم تنهّدت: «ألم يكن ميخائيل باريشينكوف أبيض؟

تباً.

لقد كان ميخائيل باريشينكوف بالنسبة للرقص مثل روكي مارشيانو بالنسبة للملاكمة، ويعد هذان الرجلان الأبيضان مثلاً يحتذى بهما.إذ لم يأت ملاكم أبيض بعد مارشيانو إلا وتمّت هزيمته. كما كان باريشينكوف هو الأبيض الوحيد الذي برز في ساحة الرقص منذ اعتزال الراقص فريد آستير.

بعد أن تناولت الحلوى كنت في طريقي إلى الحمام عندما أوقفني شاب شعرت بأنني أعرفه لكن لم أتذكره بدقة، فقد بدا وجهه مألوفاً لي إلاّ أنني لم أتذكره، وقد استرسل في الحديث عن فريق يانكيز إلى أن عزفت الموسيقى من جديد وطغت على صوته، قلت لزوجتي وأنا أحاول لفت انتباهها عن طريق لمسها بمرفقي: «هل ترين ذلك الشاب الذي يلبس السترة الخضراء؟ أجابتني دون أن ترفع بصرها عن صحن الحلوى: «لا تدل عليه».

فسألتها: «يوجد هنا مئة شخص فكيف ستعرفين أي واحد أقصد إذا لم أدلك عليه؟»

«صفه لي فقط».

كان الشاب في هذه الأثناء قد اختفى بين الحشود فقلت لها: «أعتقد أن لديه شعراً غامقاً قصيراً ولحية صغيرة مشذبة».

فسألتني: «ما لون عينيه؟»

«لا أعرف ما لون عينيه، ولماذا سأهتم بلون عينيه؟»

قالت: «هل تقصد ذلك الشاب الواقف هناك؟»

وأشارت برأسها إلى الرجل الصحيح وقد فعلت ذلك ببراعة فائقة.

فقلت لها: «هذا صحيح، كيف عرفت عمن أتحدّث؟»

«إنَّ لون عينيه بني، ماذا عنه؟»

فشرحت لها أنني لم أستطع تذكره وبذلك سأبقى منزعجاً طوال الليلة إذا لم أتمكن من معرفة هويته.

فقالت: «إنه الشاب الذي صمم لنا التيراس»

«هذا صحيح! الآن تذكرته: إنه مشجع لفريق (يانكيز)وصديق لبرنامجي، إنه الشاب الذي صمم لنا التيراس!»

وبعدها ذهبت زوجتي إلى الحمام وفي أثناء عودتها منه رأيتها تتوقف للمشاركة في حديث كان يدور بين مجموعة من الأشخاص بمن فيهم ذلك الشاب الذي يرتدي السترة الخضراء، أما أنا فتوجهت إلى البار؛ لأن الموسيقى بدأت تعزف من جديد وكان جورج يبحث عن متطوعين للرقص، عندها أمسكت بي زوجتي من الخلف وقالت: «إنَّ الشاب الذي صمم لنا التيراس يتكلم عنك بالسوء».

«ماذا؟»

قالت: من الواضح أنه لم يعرفني؛ لأنه أخذ يشتمك في حضوري مباشرة وقال لشاب آخر: إنَّ ذلك السيّد الشاب الرياضي العظيم الواقف هناك لم يتذكرني، فبعض الناس يعتقدون أنهم مهمون جداً.

فسألتها: «ماذا قلت؟»

«أنا لم أقل شيئاً»

فقلت: «شكراً لدفاعك عنّي»

«إنني ذاهبة إلى الرقص» قالت ذلك ثم انصرفت.

بدأت أشعر بالغضب، ما العيب في عدم تذكري لشخص قام بتصميم تيراس منزلي، فهل هذا يجعل مني شخصاً سيئاً؟ وهل يجب على جميع الناس الذين صمم لهم أن يتذكروه بعد ثلاث سنوات؟ وما أزعجني فعلاً هو قوله عني السيد ـ الشاب ـ الرياضي ـ فذلك يعد تلميحاً جائراً. فأنا أضمن لك أنني لن أستطيع تذكر الشاب الذي صمم لي تيراس منزلي حتى لو لم يكن لدي برنامج إذاعي.

رأتني زوجتي وأنا أتقدم نحوه فاعترضت طريقي وقالت: «إنَّ الأمر لا يستحق كل هذا الانزعاج».

في الحقيقة، إنه خلال عملي في هذا المجال، كانت زوجتي قد قرأت وسمعت الكثير من الأمور السيئة عني مما قد يجعلها تستخف بما قاله ذلك الشاب. (أو ربما تكون غير مهتمة مطلقاً وحسب).

قلت لها: «لن أتشاجر معه فأنت تعرفين ذلك جيداً».

بالطبع، ما كنت لأفعل ذلك، فأنا لا أتشاجر مع أحد أبداً، لا سيما عندما لا أكون على الهواء، وبدلاً من ذلك، فعلت ما أفعله دائماً: لقد بقيت غاضباً طوال المساء.

وبعدها حلمت حلماً رائعاً، حلمت أنني مشيت نحو ذلك الشاب الذي يرتدي سترةً خضراء وقلت له: «هيه ألست الذي صمم لي تيراس منزلي؟»

فأجاب: «نعم»

«آسف؛ لأنني لم أتذكرك من قبل».

وفي الحلم، شعرت بالاستياء كثيراً من أسلوبه المتعالي معي وقلت له: «كلاً، إنَّ ذلك لا يحدث معي دائماً، فأنا لا أخلط بين عملي وبين علاقاتي الاجتماعية، وإنني أؤكد لك أنه لو كان بيني وبينك أي صلة لكنت سأتذكرك حتماً».

«حسناً، لكنني تذكرتك»

فقلت له: «ربما لأنك تشاهدني على التلفاز».

قال: «كلا، فأنا أتذكَر زبائني دوماً».

تلك هي الكلمات التي كنت أنتظر سماعها منه، فقلت: «إذن لماذا لم تتذكّر زوجتي؟»

عندها انخطف لونه.

فقلت له وأنا أدل عليها: «هذه هي زوجتي، لقد كانت معي في المرتين اللتين أتينا فيهما إلى متجرك، وقد تكلمت معك أكثر مما تكلمت أنا».

لقد أحببت أن أراه وهو يحاول جاهداً تبرير ذلك فقال:«من قال إنني لم أتعرف عليها؟»

«أنا من قال ذلك» نطقت هذه الكلمات واقتربت منه و تابعت حديثي: «والا لما قلت أمامها مثل هذه الأشياء السيئة عني، ولو أنَّ بمقدورك التخلص من هذا النفاق، فإنني سأشتري من متجرك كرسي شاطئ لكل شخص في هذا المكان ».

لقد كانت زوجتي في الحلم متأثرة إلى حد كبير، إذ استهلّت جميع مكالماتها الهاتفية في الصباح اللاحق بقصة التيراس، يا لها من مأساة حقيقية! فهذه الأشياء لا تحدث معي إلا في الأحلام فقط، إلاَّ أنّ ذلك جعلني أفكّر ملياً، فربما يكمن الجواب في عملي، حيث يعتقد الناس أنني يجب أن أكون ذلك المذيع الشاب الذي يظهر في الإذاعة حتى ولو لم أكن فيها.

لقد تبيّن لي عندما كنت أتمعّن منذ قليل في تلك الحادثة الأخيرة أنَّ هناك الكثير من المصاعب التي تواجه الشخص المشهور، وهذا يعني أنني كنت مخطئاً طوال هذه السنوات، فقد كنت أدافع دائماً عن اعتقادي بأنه ليس هناك أفضل من أن تكون مشهوراً إلى حد ما، لكن ما جرى معي في حفلة الأثرياء جعلني أصرُّ على أنه من الأفضل أن تكون مشهوراً جداً أو أن لا تكون مشهوراً على الإطلاق.

وإليكم السبب: عندما تكون مشهوراً إلى حدٍ ما عندها يمكنك حجز

أفضل الطاولات في المطاعم المزدحمة، أما عندما تكون مشهور جداً، فإنك لن تستطيع الذهاب إلى تلك المطاعم؛ لأن الناس سيتسببون في إزعاجك، وفي حال لم تكن مشهوراً على الإطلاق، فإنك لن تقدر على الدخول إلى تلك المطاعم؛ لأنَّ مالكيها سيخشون من أن تقوم بإزعاج المشاهير.

لذلك أن تكون مشهوراً إلى حد ما فهذا أمر رائع، إلا أنه في حالة شخصٍ مشهور جداً مثل الممثل (براد بيت) فإن أياً من مصممي التراسات لن يتوقع أن يتذكره، وإذا لم أكن مشهوراً على الإطلاق، فلن يبالوا في حال لم أتذكرهم، وهكذا فقد عرضتني شهرتي المحدودة للكثير من المشكلات.

ها أنا الليلة أتعرض للمشكلات من جديد.

فهذا مساء آخر يفسد عليّ بسبب شهرتي المحدودة، إذ كان بالإمكان انقضاء هذا المساء دون حدوث مشكلات تُذكر لو كنت مشهوراً جداً أو غير مشهور على الإطلاق.

لقد خرجنا لتناول العشاء، وهذا أمر لا نقوم به غالباً، على الرغم من أنني أتطلع إليه دائماً ولذلك فأنا أشعر بخيبة أمل كبيرة؛ لأن الأمور سارت على نحو سيئ وأنا لا أتوقع أن يمر مساء دون أن يحدث فيه مشكلة ما، لكن أن أتعرض للإهانة ثلاث مرات في المساء نفسه، فهذا كثير.

لقد سارت الأمور في البداية على نحو جيد: إذ قابلنا أصدقاءنا الجدد مارتن ولوتشيا في مطعم إيطالي جديد وصغير في الجوار، إنه ذلك النوع من المطاعم التي أحبها، فالمطعم صغير ومعتم والطعام إيطالي شهي (وبقدر ما أستمتع بالأشياء الفاخرة، إلا أنه ليس هناك بالنسبة لي ما أفضله على صلصة اللحم الشهية).

لقد شعرت بالسعادة وأنا أتناول تلك الصلصة كما شعرت بالبهجة أيضاً لوجودي مع (مارتن ولوتشيا)، إذ تعرفنا عليهما في حفلة الأثرياء. (بالأحرى، زوجتي هي التي تعرفت عليهما؛ لأنني كنت مستاءً من حادثة التيراس).

إنهما من إيطاليا، ويتكلمان اللغة الإنكليزية بطلاقة لكن بلكنة إيطالية، وهذا أمرٌ أحبه فيهما، وبما أنهما أوربيان، فهما يتصفان بالهدوء ويأخذان الأمور ببساطة أكثر من الأميركيين. (فهما لا يكترثان لشيء وإنني أتساءل: متى يقومان بإنجاز أعمالهم، وأظن أن أجندتهما مليئة بالأعمال المؤجلة) لكن صحبتهما على العشاء رائعة.

إن أول موقف مهين تعرضت له حصل معي عندما كنا جميعاً منهمكين في الحديث عن مأساتنا المشتركة، وقد بدأت الحكاية عندما قام شابان يجلسان إلى طاولة مجاورة بالتحديق بنا، وليس في ذلك ما يثير الدهشة، كنت واثقاً من أنهما تعرفا علي ولكنني عادةً أتجاهل أموراً كهذه، لكنني اليوم كنت ثملاً قليلاً، وشعرت برغبة في نيل إعجاب صديقيَّ الأوروبيين الجديدين الظريفين بشهرتي فقلت لـ (مارتن ولوتشيا) وأنا أحاول أن أبدو حكيماً قدر المستطاع: «هل تريان هذين الشابين اللذين ينظران إليَّ؟ من الواضح أنهما من معجبي برنامجي؟».

فقالت لوتشيا بلكنتها الرائعة:«هذا مثير جداً».

ثم قمنا نحن الأربعة بالنظر إليهما تباعاً وبشكل متهور، ولم يكن هناك أدنى شك في أن الشابين لم يتوقفا عن النظر إلى طاولتنا، وعندها أتى

النادل، وقبل أن نتمكن من طلب الطعام، قام بتقديم ضيافة منهما وقال وهو يشير إلى الشابين: «إنها مقدمة لكم من قبل أولئك السادة هناك ».

فقلت: «أوه، إنهم في غاية اللطف».

فقمنا جميعاً برفع قبعاتنا نحوهم وقاموا بدورهم برفع قبعاتهم، لكن لم تكن هناك أي إشارة إلى أنهما سيقتربان من طاولتنا، فقلت:«أظن أنهما لا يريدان إزعاجنا، سأذهب إليهما وأشكرهما. «وهذا ما فعلته بالضبط».

قمت بالتوجه إلى طاولتهما وأنا تعلو وجهي ابتسامة عريضة غبية وقلت: «أيها السادة، أود أن أعرب عن شكري وامتناني لكم وأقدر لكم لطفكم».

كنت سأرغب في إخباركم بما قالوه ولكن ذلك ليس في استطاعتي: لأنني لا أتكلم الإيطالية.

فقد بدأ الاثنان يتكلمان اللغة الإيطالية بسرعة كبيرة ودون توقف، حتى إنني لم أعرف ما إذا كانا يتكلمان مع بعضهما أو يتكلمان معي، ولكنهما استمرا في الكلام حتى بعد أن غادرتهما، ولست متأكداً من الوقت الذي استغرقاه كي يدركا أنني غادرتهما.

وعندما عدت إلى طاولتنا، وكانت زوجتي تغمس قطعة من الخبز الساخن الشهي في طبق فيه زيت زيتون وسألتني وهي تأكل: «هل كان الشابان لطيفين؟»

قلت لها: «يبدو أنهما كذلك، لا أعرف!»

وعندما كنت على وشك أن أشرح ما حدث معي، قاما بالاقتراب من طاولتنا وبعدها أخذا يتكلمان الإيطالية مع (مارتن ولوتشيا) بسرعة أكبر من ذي قبل، وفي هذه الأثناء انضم رفاقنا إليهم وبدأ الأربعة يتكلمون في الوقت نفسه، وبما أنه لم يعد هناك شيء آخر كي أقوم به، فقد قمت بغمس قطعة من الخبز في زيت الزيتون.

وفي النهاية، وقفت (لوتشيا) وقبلت كلاً منهما على خديه وبعدها قالوا جميعاً: «إلى اللقاء» ثم رحل الرجلان.

قالت لوتشيا لزوجها باللغة الإنكليزية: «لقد كانا في غاية اللطف».

فسألتها: «ماذا قالا؟»

قالت وهي تنزع وشاحاً حريرياً ملوناً عن رقبتها: «لقد تعرفا إلى هذا، فهذه الأوشحة فريدة في إيطاليا، وهي تدل على أنك من بلدة صغيرة محددة هناك، وهذان الرجلان هما من بلدتي نفسها».

قلت لها: «ما رأيك في ذلك؟»

قالت: «أخبراني بأنني أجمل امرأة شاهداها في الولايات المتحدة الأميركية طوال مدة زيارتهما».

فقلت لها: «ألا يعني ذلك لك شيئاً» ثم سألت مارتن: «ألا يزعجك ذلك أبداً؟»

فابتسم وقال: «بالطبع لا»

لقد اندهشت عندما سمعت صوتاً صادراً عن يميني، إذ في البداية لم

أستوعبه، لكن سرعان ما أدركت أن زوجتي كانت تضحك بشكل هيستيري، إذ لم يسبق لي أن رأيتها وهي تضحك على هذا النحو.

«إنني متأسفة» قالت ذلك عندما استطاعت التقاط أنفاسها إلاّ أنها لم تتوقف عن الضحك، فذلك لم يكن في وسعها، وأخيراً استأذنت لنفسها وذهبت إلى الحمام، لقد استطعت سماع ضحكتها، حتى بعد أن أغلقت الباب وراءها.

وهكذا، بدلاً من نيل إعجاب أصدقائي الأوربيين بشهرتي، جعلت زوجتي تضحك عليّ بشدة لدرجة شعرت فيها بحاجة إلى التبول.

أما الموقف المهين الثاني، فقد كان أقل وطأة من الأول: لأنه على الأقل شاركنا فيه جميعاً، فقد حصل ذلك بعد ثلاثين دقيقة من الموقف الأول. فبعد أن تناولنا المقبلات، كنا ننتظر طبق المكرونة، في هذه الأثناء كنت قد عدت إلى حالتي الطبيعية وتناسيت الإهانة التي تعرضت لها وبدأت أشعر بحال أفضل.

أظن أننا كنا جميعاً نشعر بتلك الحالة، وأخذنا نتحدث عن الاشمئزاز الذي يسببه لنا أطفالنا طوال اليوم، فأنا لا أعرف مدى خبرتك عن الأطفال والإسهال، ولكن دعني أؤكد لك أنّ هناك بعض الأمور التي لا تبعث على السرور، وعلى الرغم من ذلك، فإن التحدث عنها يجعلك تشعر بحال أفضل لا سيما مع أشخاص يعانون من المشكلة نفسها، فآباء الأطفال الصغار يقومون عادةً بالمشاركة في أحاديث مطولة حول فضلات أطفالهم، وهكذا أخذنا نحن الأربعة نضحك على ذلك ونناقش بالتفصيل الممل حجم ولون وقوام ورائحة وتركيبة وإجمالي كمية الفضلات الصلبة التي تعاطينا معها طوال اليوم.

كنا نمضي وقتاً ممتعاً ولكنني لم أستطع منع نفسي من الانتباه إلى أنّ الزوجين الجالسين إلى الطاولة المجاورة استمرا في التحديق بنا، ومرة ثانية كنت متأكداً من أنهما من المعجبين بي، ولكن كان من المستحيل أن أفصح عن ذلك، فاكتفيت بتجاهل نظرات الزوج برغم أنه كان ينظر إليَّ بطريقة لا لبس فيها، ثم قمنا ـ نحن الأربعة ـ بمتابعة كلامنا وضحكنا وشربنا، وعندما لاح النادل من المطبخ حاملاً معه الطعام اقترب منّا ذلك الشاب الذي كان يجلس إلى الطاولة المجاورة ـ والذي كان يحدق إليَّ ـ بالاقتراب منا وقال بغضب:

«لو سمحتم، هل تمانعون؟ إننا نحاول تناول طعامنا».

وعلى الفور صمتنا جميعاً، فكوننا آباء لا يعني ألا نكون على دراية بالأصول والآداب العامة، وجميعنا يعرف أنَّه من غير اللائق التحدُّث بصوتٍ عالٍ عن الحفاظات المتسخة في أثناء تناول الطعام.

ثم قالت زوجته: «لقد أفسدتم علينا مساءنا».

كان ذلك هو الموقف المهين الثاني الذي تعرَّضت له، وممّا لا شك فيه أنَّ المجموعة بكاملها قد تعكَّر مزاجها، ثم تناولنا طعامنا بهدوء ولكن صلصة اللحم لم تبد شهيَّة كالمعتاد.

لقد شعرنا براحة كبيرة عندما قام الزوجان بدفع حسابهما استعداداً للمغادرة، وبينما أخذا يمشيان على مهل تظاهرت بأنني منهمك في تناول المكرونة، كنت أعتقد أن الأمر انتهى عند هذا الحد ولكن الشاب قال وهو يمر بجانبي:

«بالمناسبة سأخبر الجميع بأن هذا المعلق الرياضي الجذاب ليس أكثر من قذر مثير للاشمئزاز».

لقد كان ذلك هو الموقف المهين الثالث، فالشخص الوحيد الذي استطاع التعرُّف إليَّ أمام صديقيَّ الأوربيَّين اللطيفين كان ذلك الشاب الذي استهجن تصرفنا.

عندما وصلنا إلى المنزل كنت ما أزال محبطاً بينما أخذت زوجتي بالضحك مرة ثانية لدى تذكرها للشابين اللذين أرسلا الضيافة، فهي تناست تلك المواقف المهينة التي تعرضنا لها في المطعم. إنَّ كل ما أعرفه هو أنني أردت فعلاً أن أقضي ليلة ممتعة خارج المنزل لكن ذلك لم يتسنَ لي.

وبينما كنت أمشي بتثاقل نحو السرير وأفتح دفتري هذا، كان صدى ضحكاتها يتردد من داخل الحمام، وأظن أنني أشعر بالسعادة؛ لأنها في مزاج جيد، وأتساءل فيما إذا كانت ستبقى على هذه الحالة حتى الغد، كما أتساءل أيضاً ما إذا كانت ابنتي ستتعافى من التهاب الأمعاء، وفوق ذلك كله، أتساءل ما هذا الهراء الذي اعتدنا التحدث عنه في أثناء الغداء قبل أن نتعرض لمثل هذا الموقف السخيف؟

أوه، إن الشهرة ظاهرة غريبة حقاً.

من الواضح أنني تطرقت لهذا الموضوع أكثر من مرة وذلك بسبب توالي أحداث تتعلق به، فأولاً كانت حادثة ذلك الشاب مصمم التراسات وبعدها حصلت تلك المواقف المهينة التي تعرضت لها في المطعم والآن هذه الحادثة السخيفة التي حصلت معي مؤخراً.

حدث ذلك البارحة، عندما كنت أقلِّب بتكاسل في المحطَّات الفضائية إلى أن عثرت على برنامج إلين ديجينيريس The Ellen Degeneres فأخذت

أتابعه؛ لأنني أحب إلين، لكنها استضافت البارحة ممثلة لم أعد أذكر اسمها وقد أسهبت كثيراً في الحديث عن كلبها مما جعلني أشعر بالملل، وعندما عرضت إيلين صورة الكلب على شاشة العرض شهق الجمهور الموجود في الصالة تلك الشهقات اللطيفة التي لا تسمعها إلا في البرامج الحوارية.

كل هذا الشهيق من أجل كلب من فصيلة الراعي الألماني «هو كلب ضخم يشبه الذئب ويستخدم من قبل الشرطة وفي حماية الممتلكات».

دعني أوضح لك الأمر: لا يوجد في هذا النوع من الكلاب ما يلفت الانتباه إليه أو يميزه عن غيره، فهو أشبه بالنازيين، وليس هناك كلب من هذه الفصيلة يستحق شهقة الحضور، إلا أن هذا الكلب تحقق له ذلك وهذا يرجع إلى هوس مجتمعنا بالمشاهير، ومن المؤكد أنه لو صادف أحد هؤلاء الحاضرين ذلك الكلب في الشارع فإنه سيفر منه ويتجاهله، ولكن عندما تقول ممثلة معروفة: إنها تحبه فيبدو الأمر وكأنها منحت إحدى كليتيها.

يمكنني أن أتخيل تماماً تعليقات الحضور عندما نزلت الممثلة إليهم من أجل توقيع اسمها على أوتوغرافاتهم.

«لقد أحببت ذلك الكلب فعلًا! من المدهش أن يجد شخص مشهور مثلك الوقت كي يعتني بحيوان مدلل».

«إن هذا الكلب من أجمل الكلاب التي رأيتها في حياتي؛ لذا سأقتني واحداً منها في نهاية هذا الأسبوع».

«لقد قام أحد كلاب هذه الفصيلة بقضم ساق عمي هيرمان، لكنني الآن وبعد أن علمت أنك تقتنين واحدًا منها، قررت أن أحبها».

كل ذلك من أجل ممثلة ظهرت بعد ممثل كوميدي.

إن هذا الأمر يحصل دوماً، حتى معي أنا، إذ يخبرني الناس كم هو رائع قضائي لمعظم الوقت مع ابنتي، وما العجيب في ذلك؟ ألا تقوم أنت بقضاء الوقت مع أطفالك؟ إن حياتي أبعد ما تكون عن الشهرة، لكن حتى لو كانت كذلك فإنني لا أفضل أن يتم إطرائي على عدم العبث بمحتويات غرفة الفندق أو إزعاج النزلاء.

إن المشاهير لا يختلفون عن أي شخص آخر، فهم يستيقظون وفي زوايا عيونهم فضلات صفراء، كما يعانون من الغازات في بطونهم بعد تناول الفلفل الحار، وحياة المشاهير ليست جذابة كصورهم.

إن هذا ينطبق على الرياضة أيضاً بقدر ما ينطبق على أي مجال فني آخر، والإعجاب الذي نمنحه لنجوم الرياضة هو أمر محير لكن لا يلام عليه المشاهير؛ لأن العيب فينا وليس فيهم، فنحن من يمنحهم كل الإعجاب والرعاية والنقود، ومن السهل عليك لوم وسائل الإعلام أو المسوقين، لكن عندما تختار الوقوف في صف طويل لأكثر من سبع ساعات من أجل الحصول على توقيع على كرة بيسبول، فعندها لا تلم صاحب التوقيع إذا بالغ في الاعتداد بنفسه.

وهذا ما وقع فيه بو جاكسون Bo Jackson.

فمن بين جميع المشاهير من الرياضيين الذين غطيت أخبارهم بمن فيهم مايكل جوردان، كان بو جاكسون هو أكثر شخص ترك لدي انطباعاً واضحاً عما تعنيه الشهرة بالنسبة للمشاهير، غير أن هذا الانطباع كان سيئاً.

حصل ذلك عندما كان بو يلعب البيسبول بورك صناعي، فقد خضع لعملية جراحية بعد معاناة مع المرض الذي منعه في النهاية من مزاولة كرة القدم وحرمنا بصفتنا معجبين من مشاهدة أعظم لاعبٍ في أيامنا.

يمكنك اختيار أي شخص تريد، لكنني أعد بو جاكسون أعظم لاعب رياضي على الإطلاق، ولو أنه بقي سليماً معافىً لكان باستطاعته أن يكون أعظم مهاجم في المنافسات التي ينظمها الاتحاد الوطني لكرة القدم في أمريكا NFL بالتزامن مع كونه لاعب بيسبول عظيم الشأن، ولو كان لديه المزيد من الوقت لأصبح أيضاً بطلاً أولمبياً في المباراة العشارية[1]، ربما لم يسبق أن ظهر لاعب ما لحملة التسويقية لماركة نايكNike التي ارتكزت عليه، فإذا كنت في مرحلة عمرية متقدمة نسبياً فلا بد أن تعرف الإعلانات التجارية BoKnows بما فيها ذلك الإعلان الرائع الذي جمعه مع عازف الغيتار الأسطوري الذي يحمل اسمه نفسه، وكان عنوانه جو، أنت لا تعرف شيئاً أبداً.

لم يكن بمقدور بو جاكسون بعد خضوعه لعملية جراحية في وركه العودة إلى لعب كرة القدم، لكنه سرعان ما عاد إلى لعب البيسبول؛ ليكون بذلك أول رجل بورك صناعي ينافس في لعبة رياضية احترافية مهمة، وفي تلك المدة قمت بتغطية أخباره، حيث كان يلعب مع فريق وايت سوكس وقد استطاع أن يبقى من بين أكبر النجوم في العالم لكنه لم يعد حيوياً ومثيراً على أرض الملعب كسابق عهده، فمشاهدته وهو يعرج على أرض الملعب تبعث على الحزن أكثر من الإثارة، وقد شعرت بأنَّ الحزن يسيطر

(1) المباراة العشارية هي مباراة مؤلفة من عشرة سباقات متنوعة من الجري والقفز والرمي ويعد المتباري الذي يحرز أكبر قدر ممكن من النقاط هو الفائز.

عليه أيضاً، فقد كان معظم الوقت كئيباً ومنعزلاً، ومن الطبيعي أن تزيد شخصيته الانطوائية الأمور تعقيداً.

بعد ذلك وفي أواخر موسم مباريات البيسبول سنة 1993، جاء اليوم الذي أصبح فيه فريق وايت سوكس على وشك إحراز البطولة، فسافرت معهم إلى ولاية أوكلاند Oakland وأقمت في الفندق الذي ينزل فيه الفريق، وهكذا وجدت نفسي مع بو جاكسون على متن باص متجه إلى الملعب الرياضي ولم يكن فيه أحدٌ سوانا.

في البداية لم أكن مندهشاً، فأنا تجاوزت تلك الرهبة التي يشعر بها الآخرون لدى اقترابهم من المشاهير، وبصراحة أكثر، كان بو شخصاً قليل الكلام ومعظم كلامه تافه، ولكن عندما دخلنا إلى موقف السيارات وشاهدت الحشود تتهافت علينا، شعرت ببهجة عارمة، وربما كلمة بهجة لا تكفي، فقد شعرت بالذعر.

لا أعرف كيف أبدأ بشرح حالة الهرج والمرج التي كانت تسود المكان، فقبل وصول عناصر الأمن كان المكان في حالة فوضى عارمة، وأتذكر بشكل خاص أنَّ إحدى الفتيات ـ التي لم تكن قد تجاوزت العشرين من عمرها ـ كان وجهها مضغوطاً على زجاج نافذة الحافلة بشكل مثير للاشمئزاز، ولم تكن قادرة على التراجع نحو الوراء بسبب الجموع المحتشدة خلفها، عندها التفت نحو بو، وقلت: «هل تسير الأمور دائماً على هذا النحو؟»، لكنه لم يجب على سؤالي ولا حتى بإيماءةٍ من رأسه، ولست أدري ما إذا كان مصدوماً لدرجة لا يستطيع معها الكلام أو أنَّه كان معتاداً على مثل هذه الفوضى العارمة لدرجة أنه لم يلحظها.

فسألته: «ما رأيك بذلك، وهل يحصل هذا معك دائماً؟» فالتفت نحوي

ونظر إليَّ بازدراء،(لقد كان من بين أكثر لاعبي الكرة في العالم شهرة وحيوية، ولكن في تلك اللحظة بالذات لم يكن بمقدوره أن يبدو أقل قوة وعلى الأرجح بدا متعباً) وتنهَّد، ومازال بإمكاني أن أشعر بوطأة تلك التنهيدة.

ثم قال في اللحظة التي أخذ طاقم من الشباب الذين يرتدون زياً موحداً بإبعاد الناس عن طريق الحافلة، بحيث تستطيع شق طريقها بعيداً عن الجماهير المحتشدة: «يا صديقي، لن تتمكن أبداً من إدراك ذلك ما لم تضع نفسك مكاني».

أتذكر حينها أنني فكَّرت بأنني لا أرغب في أن أكون مكانه ولا حتى مقابل كل موهبته وثروته، وما زلت عند هذه الرغبة حتى الآن.

إنَّ ذلك يعيدنا إلى يوم البارحة، فبعد أن انتهيت من مشاهدة برنامج إلين ديجينيريس Ellen Degeneres، خرجت لشراء قرص مدمج يتضمَّن أغاني لفرقة الناس القرويين The Village People «وهي فرقة تغني الطرب الشعبي»، قد يبدو تصرفي غريباً، ولكن لن يكون كذلك عندما ترى ابنتي وهي ترقص على أغنية « واي. إم. سي. إي Y.M.C.A.» إذ تقوم بتحريك ذراعيها وتردد كلمات الأغنية بصوتٍ عالٍ، فهي تحبها كثيراً، لذا خطر في بالي أنها ربما تستمتع بالأغاني الأخرى لهذه الفرقة. (هل تعلمون، إنني أتذكر أغنية «واي. إم. سي. إي». قبل أن تصبح مشهورة، ولا أعتقد أنها أفضل أغانيهم، فأنا أفضّل أغانيهم الآتية: «الرجل القوي Macho Man» و «في البحريَّة In The Navy» و «ارحل غرباً Go West»).

وهكذا ذهبت إلى مكان يسمى (برج التسجيلات) وبينما كنت واقفاً أنتظر دوري ومستغرقاً في تذكر منافسات الرقص التي جرت عندما كنت في الصف السادس، سمعت صوتاً من ورائي.

«هيه، ألست أنت الشاب الذي يعمل في الإذاعة؟».

«نعم».

فقال الشاب: «إنني أحب برنامجك».

وعلى الفور بدأ يصف لي كيف نجح في جعل كافة أفراد عائلته يستمعون إليَّ، وكم يكره هاورد ستيرن وكم يحب فريق يانكيز، وأخذ يقص عليَّ بالتفصيل ذكرياته عن المرَّة الأولى التي قام فيها والده بأخذه إلى مباراة كرة.

ثم قام بعد ذلك بطرح سؤال بسيط عليَّ: «إذن ما الذي اشتريته؟».

اكتفيت برفع القرص المدمج وقد اندهش قليلاً لدى رؤيته، لكنني لا ألومه، فهو قد صادف ذلك الشاب الذي يستمع إليه كل صباح عبر المذياع وهو يقوم بشراء أغاني الناس القرويين، وأظن أنَّ هذا الحدث لا يتكرر كل يوم.

تمنيت له حظاً طيباً وتوجهت إلى المحاسب لأدفع الثمن، وبعد وصولي إلى المنزل نسيت كل شيء عن ذلك الشاب؛ لأن الدهشة أخذتني لدى رؤيتي لابنتي وهي ترقص على أغنية (الرجل القوي).

لكن عندما وصلت إلى مكان عملي، كان الوضع في غاية السوء، لقد سألني المخرج بارتياب:

«أين كنت البارحة؟».

«ماذا تعني بذلك؟».

«لقد أصبحت حديث الناس، هل كنت في محل دعارة للشاذين جنسياً؟»

«ما هذا الهراء الذي تقوله؟».

وعندها قام بإعطائي كومة كبيرة من الورق المطبوع من مواقع الإنترنت وأحاديث غرف الإنترنت، كانت كلها تتكلم عنّي بالسوء.

فسألني المخرج ثانيةً: «أين كنت البارحة؟».

«لم أذهب إلى أي مكان، لقد أمضيت معظم مدة ما بعد الظهر هنا»، وبعدها خطر في بالي برج التسجيلات، فشخص يقول عن نفسه: إنه جذاب ويلبس ماركة برادا يقوم بشراء أغاني الناس القرويين، ثم قلت له: «هذا أمر سخيف».

فقال المخرج: «يجب عليك مناقشة هذا الأمر على الهواء».

فأجبته: «كلا، لن أفعل ذلك».

وبالفعل لم أقم بمناقشة الموضوع على الهواء، بل قدمت برنامجي كالمعتاد ولم أقم أبداً بقراءة رسائل البريد الإلكتروني.

رنَّ هاتفي الخلوي خلال طريقي إلى المنزل، وكانت عمتي إيدا هي المتصلة:

«مايكل، ما الذي يحصل؟».

قلت لها: «لا أعرف يا عمتي، فهذا يعتمد على ما تقصدين».

«إنَّ صديقتي فيرن كوهين تراهن على أنّك شاذ جنسياً وما زواجك إلاّ غطاء تتستر به وهي لا تتطرق أبداً إلى موضوع كهذا ما لم يكن لديها معلومات من مصادر موثوقة، هل هناك ما تخفيه عني يا عزيزي؟».

قمت ولأول مرّةٍ في حياتي بإغلاق سماعة الهاتف في وجه عمتي،

وتابعت طريقي إلى المنزل بدأت أشعر أنني أتصرّف مثل بو جاكسون، لكن ليس لدرجة كبيرة بل إلى حد ما، كما أظن أنني فهمت تصرفه.

حسناً، أظن أنّ اليوم كان تذكيراً مهماً بأنَّ هناك أشياء تتعلق بعملي هي أكثر قساوة من إحراجك من قبل الغرباء أو مواجهة التحدي مع مصمم التيراسات.

وتكمن الصعوبة الحقيقية عندما يتحول البرنامج إلى مسألة شخصية، كما حصل معي في هذا الصباح عندما اتصلت بي سيدةٌ على الهواء.

لقد حصل ذلك في الصباح الباكر، وهذا أمر سيئ؛ لأن مزاجي سيتعكر طوال اليوم، فقد أشرت دون نية سوء مني إلى أنَّ السبب الوحيد لمشاهدة الألعاب الأولومبية هو تلك الملابس التي ترتديها لاعبات الكرة الطائرة الشاطئية،(فأنتم تعرفون ملابس السباحة تلك التي قد تصلح خيطاً لتنظيف الأسنان). وقد استرسلت في الحديث عن ذلك إلى أن ختمت بقول أشياء فيها تحامل على السيدات أكثر من المعتاد، وكان الجميع قد أحبّ ذلك، فقد أخذت أنا وطاقم البرنامج بالضحك وكانت الأمور تسير على نحو جيد.

بعد ذلك اتصلت بي امرأة لم تسبق لي معرفتها وأفسدت البرنامج عليّ، كان اسمها سيلي وكانت تتصل من مدينة بروكلين، قالت لي بصوت حزين:«ماذا سيكون شعورك إذا تكلّم الناس عن ابنتك بهذه الطريقة؟».

أصبت بالذهول وحاولت بعد ذلك أخذ الأمور ببساطة، لكن الأمر لم ينتهِ عند هذا الحد، فقد أصبح البرنامج فاتراً، إنها تجربة قاسية بالنسبة لشابٍ مؤيدٍ داعم للنساء أكثر من كونه كارهاً لهن، والأهم من ذلك كله أنه كان أباً. فأنا لا أتمنى أن تسمعني ابنتي أتكلم بهذه الطريقة وهي في طريقها إلى المدرسة، وإنني أتساءل ما إذا كانت بنات هاورد ستيرن يستمعن إلى برنامجه؟ وأتساءل كيف سيتعاطى مع مسألةٍ كهذه؟»

إنَّ ابنتي تكبر في مجتمع يوفر لها فرصاً أكثر من تلك الفرص التي أتيحت للأجيال السابقة، فقد كانت جدتها أول امرأة في عائلتنا تذهب إلى الجامعة وأما والدتها فقد نالت درجة الماجستير، ومن المحتمل أن تصبح ابنتي ذات يوم رئيسة للبلاد. فالتغيير يحدث بهذه الطريقة، وهو لا يتحقق بين ليلة وضحاها، بل يستغرق زمناً طويلاً، إنه يحدث من جيل إلى آخر.

لنأخذ الرياضة مثلاً، فعندما كنت طفلاً صغيراً لم أكن أعلم بوجود كلية نسائية لكرة السلة، أما الآن فهي واسعة الانتشار، إذ توجد كرة سلة احترافية للسيدات، وأنا لا أملك سبباً يحملني على الاعتقاد بأنَّ ابنتي الصغيرة ستكون لاعبة رياضية أو حتى ستنجذب إلى الرياضة، لكنني سعيد؛ لأن ذلك متاح لها إن رغبت به.

عندما كنت في طور النمو، كنت أعرف ثلاث لاعبات رياضيات فقط (بصرف النظر عن اللاعبات الأولمبيات اللواتي لمع نجمهن خلال مدة الأولمبياد ثم اختفين عن الأنظار)، وتلك اللاعبات هنَّ كريس إيفيرت و بيلي جين كينغ ومارتينا نافراتيلوفا، والحقيقة أنني عرفت كلاً منهن نتيجة لسببٍ ما يربطها بعالم الرجال بشكل أو بآخر.

فقد عرفت كريسي؛ لأنّ جميع الرجال أحبوها. وعرفت بيلي جين؛ لأنها هزمت رجلاً.

أما بالنسبة إلى مارتينا فقد عرفتها؛ لأنها كانت تبدو كالرجال.

(عندما أرسلت مارتينا كرة سريعة قوية عبر الشبكة اعتقدنا أنها ذكر، ولو أننا رأينا العضلات على ظهر سيرينا ويليامز أو إيميلي مورسيمو فلا بدَّ أن نستدعي رجال الشرطة، وهذا يدل إلى أي مدى تطورت الأمور).

بالعودة إلى ما سبق، فمن المؤسف ألا يتم التطرق إلى لاعبات الرياضة إلاّ من خلال ارتباطهن بعالم الرجال، وفي كل الأحوال إنه لأمر عجيب أن تستطيع ميا هام Mia Ham و ديانا توراسي Diana Taurasi التألق، فأمثال هؤلاء اللاعبات هنَّ نتاج تلك الحقبة من الزمن، وأنا أتساءل من كان مثلهن الأعلى؟ كما أتساءل لمن كانت صور الملصقات على جدران غرفهن؟ سأقوم بشراء ملصقات تحمل صور لاعبات رياضيات وأعلقها على جدران غرفة ابنتي، وسأبادر إلى ذلك ابتداءً من اليوم، فقد أوشكت ابنتي على إكمال سنتها الثانية وآمل ألاّ أكون قد تأخرت كثيراً.

مناجاة افتتاحية

اليوم اللاحق

قمت هذا الأسبوع بشراء بعض الملصقات التي تحمل صور لاعبات رياضيات؛ كي تلصقها ابنتي (على جدران غرفتها، فقد اشتريت لها صوراً لـ ديريك جيتر وتشاد بينينغتون وآنا كورينكوفا، ويمكنني سلفاً سماع النسوة وهنَّ يصرخن عليَّ من سياراتهن، «كورنيكوفا ؟ هل أنت

جاد في ذلك؟ لماذا لا تشتري لابنتك صورة لنجمة إباحية؟ ألا تعلم أنّ كورنيكوفا تستمد شهرتها من شكلها المثير أكثر من طريقة أدائها؟ ولماذا اخترتها من بين كل النساء في عالم الرياضة؟».

سأخبركم بالسبب.

لأنّ الإثارة أمر مشجع.

في الحقيقة ستكبر ابنتي وهي ترغب أن تبدو مثيرة للآخرين، فجميع الفتيات ترغبن بذلك؛ لذا سيكون من الطبيعي أن تكون ابنتي واحدة منهن، هل أخبركم بشيء؟ آمل أن تفكر ابنتي بهذه الطريقة: أرغب أن أبدو مثل آنا.

هل سبق وأن نظرتم بشكل فعلي إلى آنا كورنيكوفا؟ إنها امرأة جميلة دون شك؛ لكنها تبالغ في لعب الرياضة، فهي عريضة المنكبين ولها ساعدان وساقان مفتولتان ولو أنها خُلقت في جيلٍ سابق لقيل عنها: إنها تتمتع بصفاتٍ رجولية، أما الآن فهي تعدُّ مثيرة وهي كذلك بالفعل.

سأخبركم شيئاً آخر أكثر أهمية عن آنا.

إنها تتمتع بصحة جيدة.

وأنتّن لن تصبحن مثلها عن طريق التقيؤ بعد تناول الطعام أو مراقبة وزنكن ابتداءً من سن التاسعة أو إذا كانت وجبتكم عبارة عن قهوة صرفة وسجائر وبياض البيض وحبوب النشوة. فتلك ليست الطريقة المثلى لكي تكبرن وتبدون مثل آنا كورنيكوفا، فلكي تصبحن مثلها، يجب عليكن أن تأكلن كثيراً وبشكل صحي وتمارسن الرياضة، ولا أعني بذلك المشي مدة

ساعة على جهاز المشي الثابت، بل ما أعنيه هو القيام برفع الأوزان وتكريس النفس للّياقة البدنية.

كم يصبح حال بناتنا أفضل لو كان هذا مفهومهن عن الإثارة؟

إذا كنت تظن أنه من الصواب أن تعتقد بناتنا بأن جينيفر آنيستون ممثلة مثيرة، فسيمكنك شراء ملصق يحمل صورتها، فأنا لا أنكر أنها مثيرة، لكنها هزيلة جداً، فهي نحيلة لدرجة تبدو معها أنَّ تناولها لشطيرة كاملة سيعرّض حياتها للخطر. وفي اعتقادي لو أن أحد العاملين معها طرد الغازات من أمعائه فستجد نفسها ملتصقة على الحائط، كما أنّ نحافتها تجعلك تظن أنها لو جرّدت من ملابسها الفاخرة، فإنك لن تتوانى عن تقديم التبرعات لصالح أي مؤسسة خيرية تكافح المجاعة تتخذ من صور جنيفر دعاية لها، وفي الحقيقة، هذا ما تبدو عليه جنيفر آنيستون، وأنتِ لن تبلغي هذه الدرجة من النحافة عن طريق تناول الأطعمة الصحية لا بل عن طريق الامتناع عن تناول الطعام بالكامل.

وهكذا، سأقوم بإلصاق صورة لـ آنا كورنيكوفا على جدران غرفة ابنتي، وربما أحضر لها لاحقاً صوراً لـ ميا هام و سيرينا وليامز وماريّا شارابوفا أو أي امرأة تحذو حذوهن، وهذا يعني ألا تكون مجرّد رياضية عظيمة الشأن بل جميلة أيضاً، فالفرصة ضئيلة في أن تصبح ابنتي لاعبة رياضية عظيمة، لكن الاحتمال قوي جداً بأن ترغب في أن تبدو جميلة كواحدة منهن، وبتلك الطريقة ستحافظ على حياتها.

وبما أنني أناقش هذا الموضوع، فإنني لن أتوانى عن التكلم عن جمال بعض اللاعبات الرياضيات، فلماذا يجب علي الامتناع عن ذلك؟ وهل يعني هذا أنني لا أقدر مهارتهن الرياضية، إن ما يعنيه ذلك أنني شخص

طبيعي، فلماذا تعد الكثير من السيدات أن اللاعب الرياضي ديريك جيتر هو لاعب الكرة المفضّل لديهن، هل بسبب مهارته؟ بالطبع لا، فذلك يعود إلى كونه شاباً جميلاً، وليس هناك أي عيب في ذلك، أيضاً.

لذلك لا تتصل كي تخبرني بأنَّ علي المحافظة على بناتنا من خلال الفصل بين مواضيع الرياضة والإثارة. وفي نهاية المطاف فإنني أقدم لهنَّ خدمة كبيرة.

في الحقيقة، يحب بعض الناس ما أقوله عن ابنتي في البرنامج، لكن بعضهم الآخر لا يحب ذلك، وهذا أمرٌ لا بأس به، فأنا معتاد على ذلك، إذ نادراً ما يتفق الناس على رأي واحد، لكنني اليوم وبعد أن أخبرتهم بما قلته لابنتي في الليلة الماضية، أجمع الجميع على رأي واحد، هو أنني إنسان سيئ للغاية.

وفي معرض الدفاع عن نفسي، فإنني نادراً ما استطعت النوم في الآونة الأخيرة، إذ كنت أستيقظ مع ابنتي كل ليلة؛ لأنَّ زوجتي كانت مسافرة، وهذا الإنهاك الذي شعرت به بدأ يلقي بظلاله على عملي أيضاً، فقد ناديت شاكيل أونيل بـ تاتيوم وهذا الخطأ لا يسمح لك بتكراره أكثر من مرّة.

وأخيراً عادت زوجتي؛ لذلك قمت في الليلة الماضية بتشغيل جهاز مراقبة الطفلة الخاص بها ولم أقم بتشغيل جهازي، ثمَّ غططت في نوم عميق وحلمت حلماً رائعاً، حيث قامت إليزابيت هارلي بمنحي جائزة الأوسكار وبعدها رأيت نفسي في الحفلة التي أعقبت المهرجان مع ستيفن تايلور وشيلسي كلينتون، ولم أكن واثقاً من أنَّ ذلك سيكون ممتعاً، لكن لن

يتسنى لي معرفة ذلك أبداً؛ لأنني استيقظت على ضربات خفيفة من يد طفلة في الثانية من عمرها، ولم يكن ذلك حلماً:

«أبي، إنني مبللة».

كانت ملابسها مبللة تماماً، وهي في الآونة الأخيرة تنام في سرير للفتيات الكبار وكانت سعيدة بتلك الخطوة، بينما أنا لا أشعر بالسعادة مطلقاً.

«لا بأس يا حبيبتي، لا تخافي».

عندها توقفت ابنتي عن البكاء وقالت لي: «إنَّ سريري مبلل أيضاً يا أبي».

لم يكن أمامي سوى خيارين، فإما أن أعيدها إلى غرفتها وأغيّر لها ملابسها وأستبدل بشراشف سريرها المبللة أخرى جافة، ثم أضعها فيه كي تنام ـ وهذه العملية ستستغرق عشرين دقيقة كحد أدنى ـ أو وضعها إلى جانبي في السرير، حيث ستخلد إلى النوم فوراً. وبالطبع إذا فضلتُ الخيار الثاني فإنني سأصبح مبللاً تماماً.

إنه قرار صعب.

وبعدها خطرت في بالي فكرة ثالثة، لا أعرف كيف ولماذا؟ بل كل ما أعرفه أنني لم أستطع مقاومتها.

«لماذا يا حبيبتي، لا تذهبين للنوم مع أمك، فهي مشتاقة إليك كثيراً بعد هذه الغيبة الطويلة كما إنها ستسعد كثيراً إذا نمت إلى جانبها».

فانفرجت أسارير ابنتي واتجهت بسرعة نحو الطرف الآخر من السرير الكبير؛ لكي تنام قرب أمها، وفي تلك الأثناء كانت تفصلني عن السعادة

الحقيقية خمس عشرة ثانية، فإذا استغرقت ابنتي في النوم دون إيقاظ زوجتي، فلن يكون لأحد أن يكتشف أمري لو لم أفصح عنه في برنامجي، ورحت أعدُّ في ذهني بشكل عكسي إلى أن وصلت إلى الصفر، لقد غطت الطفلة في نوم عميق، وأما زوجتي فلم تكن قد حركت ساكناً، وبما أنني نجحت في ذلك عدت إلى نومي ثم استيقظت في الموعد المحدد وشعرت بطمأنينة افتقدتها لأكثر من شهر.

كان يمكن بقاء الأمر سراً لو لم أفصح عنه في برنامجي؛ رغبة مني في زيادة شعبية البرنامج، والأمر ببساطةٍ هو أنني وجدت القصة جيدة فاسترسلت في الحديث عنها على الهواء، وكانت ردة فعل جمهوري تماماً كما ستتوقع، فقد قررت أمريكا أنني قذر مقرف.

لقد كنت في مزاج جيد عندما رنَّ هاتف سيارتي وأنا في طريقي إلى المنزل.

«مايكل، سمعت أنَّ زواجك على وشك الانهيار».

«ماذا؟ من المتكلم؟».

«ومن تعتقد، ليني كازان؟».

إنَّ عمتي إيدا هي الوحيدة التي قد تفكر بـ ليني كازان.

«ما الذي جعلك تظنين أن زواجي على وشك الانهيار؟».

«وهل تظن أنني لا أعرف أخبارك؟» فهي دائماً تجيب السؤال بسؤال وأضافت: «لقد سمعت شيئاً يتعلق بتبول ابنتك الصغيرة على زوجتك».

«لكن يا إيدا، إنها مجرد قصة قمت بسردها خلال البرنامج، ولا علاقة لها بزواجي».

أخذت توبخني، قائلة: «ألا تتذكر أنني بقيت متزوجة مدة أحد عشر شهراً؟ أعرف ذلك من الزيجات التي هي على وشك الانهيار، كما أعرف ذلك عندما تأمر ابنتك بالتبول على زوجتك، إنها مسألة وقت فقط».

«عمتي إيدا، إنَّ زواجي على خير ما يرام».

«قالت لي: أصغِ إلي الآن، لقد فهمت من فيرا كوهين أنَّ زواجك قد يستمر مدة ستة أشهر قد تزيد أو تنقص قليلاً، لذلك عليك أن تتصل بي وتعلمني قبل الإقدام على أي خطوة».

«وهل تنبأت فيرا كوهين بانهيار زواجي؟».

فأجابت: «نعم، وأنا مدينة لها بألفي دولار منذ بطولة وورلد سيريز وهي تطالبني بالمبلغ كل ليلة ثلاثاء، مايكل إنني بحاجة ماسة إلى المبلغ».

«لا أستطيع أن أصدق أنها تتنبأ بانهيار زواجي في غضون ستة أشهر».

قالت: «كانت تعتقد أن زواجك سينتهي خلال سنة، لكن بعد سماع تلك القصة هذا الصباح غيّرت رأيها».

«وهل تطلبين مني الانفصال عن زوجتي كي تكسبي رهاناً؟».

قالت عمتي: «بالطبع لا، عليك أن تخجل من نفسك على مثل هذا التلميح، إنَّ كل ما قصدته أنه إذا كنت ستنفصل عن زوجتك في كل الأحوال، فلماذا لا أكسب بعض الدولارات من وراء ذلك؟».

فقلت لها: «أظن أنني أفهمك».

«هذا جيد يا عزيزي، هل تأكل بشكل جيد؟ فأنت تبدو نحيلاً على شاشة التلفاز».

«إنني بخير يا إيدا».

«هذا جيد، كيف حال فتياتك؟».

«إنهن بخير، في الواقع، البارحة فقط....».

قاطعتني قائلة: «عزيزي، عليَّ الذهاب الآن، فالشرطة موجودة هنا».

«ماذا؟ ولماذا أتت الشرطة؟».

فأجابت: «إنها قصة طويلة يا عزيزي، هل يمكنك أن تسدي لي خدمة، إذا لم أتكلم معك حتى نهاية الأسبوع، فاطلب من أحدهم أخذ كلبي جيمي الإغريقي إلى الطبيب البيطري».

«ماذا؟» .

«أريد أن أخصيه، أحبك يا عزيزي، بلّغ تحياتي للعائلة».

وبعدها أغلقت السماعة.

إنَّ جيمي الإغريقي هو كلب عمتي وهو كلب أبيض وصغير من فصيلة بولدوغ (كلب قوي وله رأس كبير ورقبة وأرجل قصيرة) ويبدو وجهه وكأنه ضُغِط بعنف على باب زجاجي، لا بد أن عمره الآن عشر سنوات وربما أكثر، إنني لا أعرف الكثير عن الكلاب، لكنني واثق تماماً من أنَّ خصي هذا النوع يتم أبكر بكثير.

لم يكن أمامي سوى الاتصال بوالدتي، فهي الشخص الوحيد الذي يمكنني أن أشكو له جنون عائلتنا، لكن لن يتاح لي ذلك اليوم، إنها قادمة

وأستطيع معرفة ذلك من الوقت الذي استغرقته كي ترد على الهاتف، وهذه هي مشكلة أمي.

«مايكل، لقد قطعت للتو الاتصال مع أبيك، انتظر لحظة».

كان هناك صوت طقطقة ثم صمت طويل وبعدها نغمة تدل على أنَّ الهاتف لم يعد مشغولاً، فهذه المرآة لا تستطيع أبداً الانتقال من مكالمة إلى أخرى دون أن تغلق الخط في وجه أحد المتصلين، وعادةً ما تقوم بقطع الاتصال مع الاثنين معاً، وإن أبقت الاتصال مع أحدهما، فهذا يعد نصراً معنوياً له.

قمت بالاتصال مرة ثانية، وأجابتني وهي ما تزال مرتبكة: «مرحباً؟».

«أمي، هذا أنا».

فقالت لي: «مايكل، أرجوك لا تتصل بي عندما أكون على الخط الآخر».

«وكيف يفترض بي أن أعرف أنك على الخط الآخر؟».

فأجابت: «اتصل بي لاحقاً». وأنهت المكالمة.

وعندما وصلت إلى المنزل، كان في انتظاري رسالة وصلت إليَّ بالبريد الإلكتروني.

فيما يتعلق بالمكالمات الهاتفية:

(لا تتصل قبل الظهر؛ لأنّ والدك يتصل في هذا الوقت أحياناً، ولا تتصل أيضاً بعد الظهر. حاول قبل العشاء).

ولم تمضِ عشرون دقيقة على الرسالة الأولى حتى وصلتني رسالة ثانية:

فيما يتعلق بالاستفسارات العاجلة:

(نعم أجيب عليها، فأنت ولد جيد؛ لأنك تفكر في والدك، الأمر الذي قد ينقذ حياته).

كان ذلك كل شيء.

كانت الكلمات مطبوعة باللون الأزرق مما يعني أنها إجابة عن سؤال كنت قد سألته، لكن أيا كان ذلك السؤال فلا بدَّ أنها مسحته، وأنا الآن أحاول جاهداً تذكره، وأياً كان ذلك السؤال فربما ينقذ حياة أبي، وهكذا لم يكن أمامي سوى خيارين فإما أن أجازف وأتصل مرة ثانية؛ لكي أستفسر منها عن الأمر أو أتخلى عن الفكرة تماماً وآمل ألا يعرض ذلك حياة والدي للخطر، فتلك هي القرارات التي نتخذها في عائلتنا.

إنني أشعر بالراحة؛ لأنني أعرف أنَّ فكرة قتل والدي من قبل أمي هي فكرة غير محددة، فذات مرة قالت: إنها ستقتله إذا لم يلبس سترته في ليلة باردة، وفي مرَّة أخرى اتهمتني بمحاولة اغتياله؛ لأنني شجّعته على طلب مخلل حامض، في الحقيقة إنني مندهشٌ من بقائه على قيد الحياة وهو في السبعينيات من عمره.أظن أنني سأتجاهل تلك الرسالة وآمل ألا يصيب أبي مكروه، وإن حصل فإني آمل ألا تتصل أمي لإخباري إلاَّ بعد مدة طويلة، بحيث تكون قد نسيت أنه خطئي وعلاوة على ذلك، إنني متلهف لليلة جيدة أخرى، فقد أصبح ذلك صعباً جداً في الآونة الأخيرة.

في الواقع إنَّ القيام برحلة عمل الآن هو الحل الأمثل لأفكاري المضطربة، فأنا أشعر برغبةٍ في البكاء ليومين.

إنني الآن موجود في مدينة هيوستن، لقد وصلت إليها بعد ظهر هذا اليوم، وتناولت العشاء في وقت متأخر من المساء، ثمَّ عدت إلى الفندق متعباً وثملاً، ولم يبقَ على موعد استيقاظي سوى ست ساعات، وعندما استلقيت على السرير قمت بتشغيل جهاز التلفاز، فأنا أشعر بأنني غير قادر على النوم دون تلفاز عندما لا أكون مع زوجتي، وهذا أمر يبعث على السخرية؛ لأنه عندما أكون معها في المنزل وترغب في مشاهدة التلفاز، فإنها تبقيني مستيقظاً، فالمعادلة تبدو على النحو الآتي:

زوجة + تلفاز = لا نوم

لا زوجة + لا تلفاز = لا نوم

زوجة + لا تلفاز = نوم

لا زوجة + تلفاز = أفلام

أظن أنَّ الجميع يعرف ذلك الشعور الذي يشعر به المرء، عندما يكون وحيداً ويقلّب بالقنوات الفضائية آملاً في إيجاد برنامجٍ له علاقة بالحب والآن، أصبحت الأمور ميسرة جداً في الفنادق، إذ لا تستطيع إلا أن تأخذ فكرة عن الأفلام التي يعرضونها، وإنني في أغلب الأحيان لا أحاول حتى التفكير في ذلك، لكن القيّمين على الفندق ماكرون فهم يضعون تلك القائمة على الشاشة مباشرة وبعدها تظهر بشكل مفاجئ تلك المشاهد، وعندها حتى لو لم يكن لديك نية في مشاهدة تلك الأفلام، فإنك لن تستطيع منع نفسك من الشعور بالإثارة، لذلك تنتقي ما تريده منها من خلال عرض باقة من الصور ووصف موجز.

على أي حال، يكفينا كلاماً عن الأفلام.

لقد حصل معي في هذه الرحلة ما هو أهم بكثير مما حصل معي في الفندق، شيء يستحق النقاش وهو مرعب بلا ريب: فقد أدركت أنني أتقدم في السن. إنَّ هذا الإدراك هو أهم بكثير من التقدم في السن بحد ذاته، فجميعنا يكبر في السن بالوتيرة نفسها، وبعضنا يكون أكبر سناً من الآخر، وها أنا أخيراً أدرك أنَّ العمر يمضي بي.

لقد أدركت هذه الحقيقة بشكل تدريجي في أثناء رحلتي هذه، وبدأ ذلك معي على متن الطائرة عندما قرأت خبراً في صحيفة نيويورك تايمز

اليوم اللاحق:

(مازلت في هيوستن)

عندما انتهيت هذا الصباح من تقديم برنامجي، لم تكن فكرة تقدمي في السن قد فارقتني، وهذا سبب لي نوعاً من الإحباط؛ لذا قررت الترويح عن نفسي بتناول المثلجات، فمشيت وحيداً إلى محل المثلجات بن وجيري الموجود في نهاية الشارع، وكان هناك مجموعة من المراهقين الذين يتسكعون أمام المحل، كانوا يركبون ألواح التزلج ويدخنون السجائر تماماً كما كنت أفعل عندما كنت في مثل سنهم، فأحياناً أتفهم مشاعر هؤلاء الصبية إذ ما زلت أظن نفسي واحداً منهم. وبعدها وجدت نفسي أرقص مع أحدهم، وكانت تنقصه البراعة فهو يقلّد كل حركاتك والعكس صحيح، وأخيراً تراجع للوراء مع ابتسامة خفيفة وقال: «إنك تبلي حسناً يا سيدي».

عندها تسمّرت في مكاني.

سيدي؟

إنَّ تلك الكلمة تعني لي الكثير، فهي تقول: «يا رجل، إنك لم تعد واحداً منَّا بل أصبحت واحداً منهم، وإذا قمنا بتدخين الماريجوانا فإنك الوحيد الذي سنخفي عنه ذلك».

إنَّ المأساة تكمن في أنه على صواب، فأنا لم أعد واحداً منهم، وذلك ليس بسبب العمر فقط، بل لأنني ببساطة ما عدت أفهم شبان هذه الأيام، فأنا لا أستطيع تقبل فكرة الوشم وقدح الآذان، كما لا أفهم لِمَ أصبحت سراويلهم تحت الورك وأنا قطعاً لا أفهم الموسيقى التي يحبونها، إذ كل ما أسمعه اليوم عبر محطات الإذاعة على موجة FM هو عبارة عن ضجيج تام، وهذا أمر يبعث على السخرية؛ لأنَّ أبي أيضاً كان يظن أنَّ الموسيقى التي كنت أستمع إليها ليست سوى ضجيج، وأنا واثق من أنَّ والده كان يشعر بالطريقة نفسها، وربما يكون فتيان القرن الثامن عشر الذين كانوا ينصتون إلى موزارت قد سمعوا التعليمات نفسها من آبائهم.

«لا أعرف كيف يمكنك الاستماع إلى موزارت هذا، فموسيقاه ليست إلا ضجيجاً تاماً، ففي أيامنا كان هناك باخ، وتلك هي الموسيقى الحقيقية».

أظن أنَّ الأمر له علاقة بالتعوّد، إذ لا يستطيع معظمنا التمييز بين باخ و موزارت من حيث الحقبة التي عاشوا فيها، وهذا يعود إلى مضي حقبة زمنية طويلة على ذلك، وبعد مئتي سنة من الآن، سيظن الناس أنَّ فرقة بيرل جام كانت معاصرة لفرقة الـ بيتلز وكذلك الأمر بالنسبة لعازفي موسيقى الجاز لويس آرمسترونغ وباقي كومبس، وقد يبدوالأمر مثيراً للسخرية أن تقول: إنَّ هناك تشابهاً كبيراً بين مايكل جاكسون وإيمينيم

أكثر مما هو عليه بين باخ وموزارت، لكن عامل الزمن هو الذي جعل الأمور غير واضحة، وعلى الرغم من أنَّ كل الآباء الذين كبروا على موسيقى لويس أرمسترونغ كانوا يقولون لأبنائهم: إن موسيقى بي.ديدي ليست إلا ضجيجاً، فذات يوم قد لا نتمكن حتى من التمييز بين موسيقى كل منهما.

أظن أنَّ النقطة الأساسية تكمن في ثبات بعض المشاعر برغم مرور الزمن، إذ إن هناك دائماً حمقى كباراً في السن وشباناً تافهين وسيظل الأمر كذلك إلى الأبد، ولكن الغريب في الأمر بالنسبة لي هو أنني اعتدت أن أكون واحداً منهم، أما الآن فبدأت أظن أنني قد أكون الاثنين معاً.

إنّه لمن السار أن أتقدم في السن دون أن أشعر بالارتياب، فقد أكون يائساً لكنني لست مرتاباً، وما أعنيه بذلك أنني لا أظن أنَّ شكوكي قد ازدادت، بل عوضاً عن ذلك أيقنت بعجزي التام عن إحداث أي تغيير.

والخلاصة هي:

عندما كنت أصغر سناً، كنت أعتقد أنَّ هذا هراء.

أما الآن، فاعتقد: أنَّ هذا هراء وليس بإمكاني فعل أي شيء بهذا الشأن.

لقد بدأت أشعر أنَّ العالم يضيق عليَّ شيئاً فشيئاً، وهذا أمر غير منطقي؛ لأنه من الأجدر بك أن تزداد خبرة ومعرفة في هذا العالم كلما تقدم بك العمر، لكن ما يحصل معي فعلاً هو أنني بدأت أدرك أن معظم مشكلات العالم لن تغيّر في حياتي شيئاً، فمثلاً، إنني أتعاطف فعلاً مع الأنواع المهددة بالانقراض في القارة القطبية الجنوبية، لكنني مستعد فوراً للتضحية بواحد أو اثنين منها إن كان ذلك سيقي قنواتي المشفرة من التعطل أحياناً.

وإذا كان ذلـك يبـدو سخيفاً، فهنـا تكمن الفكرة الأساسيـة، إذ بدأت التفاصيـل التافهة تحل محـل الأمور الجوهرية بالنسبـة لي، فعلى الرغم من تعاطفي مع إضراب عمال مصانع السيارات، إلا أنني سأولي قضيتهم اهتماماً أكبر لو قام أحدهم بإحضار ملابسي من المصبغة أحياناً، إنَّ هذه الأحاسيس تجعلني وغداً سطحياً وأنانياً، ولكنها في أغلب الأحيان تجعلني أشعر بأنني إنسان.

بعد أن تناولت المثلجات، كان هناك غداء مع الفائزين في إحدى المباريات، مما يعني أنه سيتم دفع نقود لي؛ كي أجلس في المطعم وأتحدث عن الرياضة مع أحد المستمعين المحظوظين وأحد عشر من أصدقائه. لقد استغرقت الرحلة إلى المطعم وقتاً طويلاً. ولم أدرك أين نتجه إلا عندما قرأت اللوحة الطرقية:

خارج هيوستن

عندمـا أخـذت سيارة الليموزين تشـق طريقها عبر بلـدة نائية، تبيّن لي أنَّ جميـع مـن رأيتهـم كانوا يحملون بنـادق، وهذا لم يكـن مستغربا؛ نظـراً لأنّ أغلـب المحلات التجاريـة الموجودة في البلـدة هي محلات لبيع البنـادق فقط، فقد بدا الأمر تماماً على النحـو الآتي: محطة إيكسون / متجـر لبيع البنادق، مطعم آربي / متجر لبيع البنادق، مطعم القريدس الأحمـر/ مكتب البريد/ متجر لبيع البنادق. (لقد شعرت باستياء شديد لقرب مكتب البريد من محل لبيع البنادق، إذ من السهل جداً على موظفٍ ساخطٍ من مكتب البريد أن يتحول إلى مجرمٍ خطير).

وأخيراً عندما وصلنا إلى المطعم كان الفائز في المباراة جالساً إلى

جانب زوجته وثلاثة من الرجال الآخرين، وكان جميعهم يرتدون ملابس مموهة، بمن فيهم الزوجة، لقد بدا منظرهم وكأنهم فصيلة من الجند (لم أستطع تحديد من كان مظهره أكثر سخافة، هل هي المرأة التي كانت ترتدي زياً مموهاً أم أنا الذي كنت أرتدي قميصاً ماركة إيترو وحذاء ماركة غوتشي).

وعلى الفور شرحوا لي أنهم وصلوا للتو من الميدان، قلت لهم: «هذا أمر غريب، إنني ألعب الغولف منذ مدة طويلة ولم يسبق لي أن رأيت أحداً يرتدي مثل هذه الملابس».

اكتشفت بعد انخفاض أصوات ضحكاتهم أنني كنت برفقة أعضاء نادي الرماية للحمائم الطينية والحائزين على بطولة ولاية تكساس، فجميعهم كانوا رماة بمن فيهم المرأة، فقد كانت قائدة الفريق وحائزة على بطولة الولاية للسيدات لسبع سنوات متتالية، لقد بدأت الرمي في سن مبكرة وقابلت زوجها ـ الجالس الآن إلى يسارها ـ ليلة حفل التخرج من المدرسة الثانوية حيث لم يشعر أيٌّ منهما برغبة في الرقص؛ لذلك قاموا بالتسلل إلى حقل الرماية معاً.

إنَّ هذه القصة ليست من تأليفي.

سألتها: «هل كنت ترتدين ملابس سهرة في تلك الحفلة؟».

فأومأت برأسها في إشارةٍ إلى ارتدائها فستان سهرة.

ثم سألت زوجها: «وأنت هل كنت ترتدي بدلة رسمية؟».

ابتسم وقال: «شيئاً من هذا القبيل».

فسألته: «زياً مموهاً؟».

قال: «كلا، فهذه الملابس لم تكن دارجة في تلك المدة.

عندئذٍ حاولت تغيير الموضوع.

«إذاً، هل تأكلون الحمام الذي تصطادونه؟».

فضحك الجميع مرة ثانية وبعدها شرحوا لي أنَّ الحمائم الطينية ليست صالحة للأكل وهي ليست طيوراً أصلاً، فهي مصنوعة من الطين. فسألتهم: «وهل هي مصنوعة على شكل حمائم؟».

فقالت المرآة: «كلا».

«لماذا تسمى بالحمائم؟».

بدا الارتباك واضحاً على الجميع، لذلك استأذنت منهم وذهبت إلى الحمام بينما كانوا ينتظرون وصول باقي زملائهم، وعندما عدت إليهم كان الشاب الجالس أمامي في الجهة المقابلة من الطاولة راغباً في التحدث إلي، فبذلت ما في وسعي.

حاولت أن أسأله بلكنة محلية: «هل تعيش بالقرب من هنا؟».

فقال: «ولدت هنا، ونشأت هنا وأتمنى أن أموت هنا».

فقلت له: «إنني من ولاية نيويورك».

«من أي منطقة في نيويورك؟»

«من مدينة مانهاتن».

فسألني: «وهل هذه تتبع مدينة نيويورك؟».

«هذا صحيح»

عندها نظر آندي إليَّ بدهشة وقال: «دعني أسألك شيئاً أ صحيح ما يقال: إن وسائل النقل في نيويورك ليست مزودة بمكيفات هواء؟».

لقد أحببت الطريقة التي نطق بها عبارة: «وسائل النقل».

فسألته: «عذراً، ماذا قلت؟».

«هل وسائل النقل في نيويورك مزودة بمكيفات هواء؟».

فقلت له: «إنَّ الكثير من الناس في نيويورك ليست لديهم سيارات لكن جميع من ركبت معهم كانت سياراتهم مجهزة بمكيفات هواء». قال آندي: «إنه لشيء مثير».

ليس تماماً.

لكن بعد ذلك حصل ما هو مثير حقاً، فالزملاء الذين كنَّا ننتظر مجيئهم دخلوا إلى المطعم سوياً، وأخذ الجميع يتصافحون ويتعانقون وكان بينهم ثلاثة زنوج، ثم قام الفائز بتقديمي إلى المجموعة، وكل ما استطعت فعله هو التحديق بصمت وذهول إلى الزنوج الثلاثة، لقد كانوا أعضاء في فريق الرماية أيضاً؛ لذلك كانوا يلبسون زياً مموهاً ويتكلمون كبقية زملائهم، إلا أنهم كانوا زنوجاً.

وبينما أخذوا يطلبون الطعام، أدركت لوهلة أنَّ أولئك الساذجين هم دون أدنى شك أكثر انفتاحاً مني، فقد ذهلت بفكرة صداقتهم مع زنوج، وبالطبع فإن ذلك لم يكن في واردهم على الإطلاق، وكان من الواضح

أنني الوحيد على تلك الطاولة الذي وضع افتراضات مسبقة، وإذا كان هناك من متحيّز ـ فهو ليس هؤلاء الساذجين ـ بل هو ذلك التحرري المتسامح من نيويورك.

وهكذا أفترض أنني تعلمت درسين قيّمين من هذه الرحلة، الدرس الأول: إنه وبصرف النظر عن كيفية تفكيرك بنفسك، فإنَّ الناس لا يرون إلاّ حقيقتك، والدرس الثاني: إنه، وبصرف النظر عمّا تملكه من ملابس فاخرة من ماركات أرماني وبرادا، فيجب عليك ألاّ تتظاهر بأنك تعرف أكثر من الشاب الذي يرتدي سترة مموّهة.

لم تتكلم زوجتي معي خلال الثماني والأربعين الساعة الماضية سوى ثلاث دقائق فقط، وأظن أنها كانت أفضل ثلاث دقائق في عطلة نهاية الأسبوع.

بدأ ذلك في وقت مبكر جداً من صباح يوم السبت، إذ رنَّ الهاتف، فالتقطت السماعة لأجد أنَّ المتصل هو صديقي هاري، وهو طبيب عرفته من خلال مباريات كرة القدم، فنحن نحضر المباريات معاً منذ عدة سنوات.

قال هاري: «لقد تركت ليسلي المنزل».

إنَّ ليسلي هي زوجته منذ عشر سنوات، وهي من أكثر المشجعات حماسة لكرة القدم.

فسألته: «ماذا تعني بذلك؟».

فأجاب: «لقد رحلت، حزمت حقائبها وقالت: إنَّ هناك شخصاً آخر في حياتها....».

وعند هذه الجملة اختفى صوته، فجلست صامتاً وأدركت بأسىً كم هو متعب، ثم أضاف: « لقد تركتني ».

لم أعرف ما ينبغي عليَّ قوله، لذلك لم أقل شيئاً أبداً، ومن ناحية ثانية لم يقل هو أي شيء أيضاً، فبدا الوضع محرجاً.

عندها سألته: «هل ما زلنا سنذهب إلى مباراة الغد؟».

فقال لي: «أظن ذلك، فهي لم تأخذ البطاقات معها».

قلت له: «حسناً، سألتقيك هناك».

وبعد أن أنهيت المكالمة، استلقيت في فراشي وأخذت أحدق في السقف وأفكر: أظن أنَّ عدم إنجابهما للأطفال كان في مصلحتهما، لقد تعرفا على بعضهما على المدرجات في أثناء حضورهما لمباراةٍ لفريق النسور Jets ولم يفوتا عليهما مشاهدة أي مباراة منذ سنوات، نادراً ما التقيت بهما خارج المباريات، لكن تلك المباريات كانت تشكل جزءاً مهماً في حياتنا مما جعلني أعدهم من أصدقائي المقربين.

وعندما أوشكت على النوم، وجدت أنَّ زوجتي تحدق بي، فقلت لها: «آسف لأنه اتصل في وقت مبكر، حاولي العودة إلى النوم ».

«هل تهزأ بي؟».

«ماذا؟».

فقالت: «إنني لست منزعجة؛ لأنه أيقظنا، لقد سمعت المكالمة بأكملها».

«أوه».

«إن زوجته قد تركته للتو».

فقلت لها: «نعم ».

«وهل ترغب أن تقول لي: إنك لا تعرف سبب انزعاجي الآن؟».

فقلت: «في الحقيقة، كلا، إنك بالكاد تعرفينهم».

«دعنا نستعرض ما حدث منذ قليل، هل يمكننا ذلك ؟».

«آمل ألا نفعل ذلك، فأنا لا أحب الخوض في أحداث مضت ».

لكن ذلك لن يُجْدِيَ نفعاً، فهي ستعود إلى الموضوع بصرف النظر عن التعب الذي كنت أشعر به.

«إنَّ صديقك اتصل بك في السادسة صباحاً؛ ليخبرك أنَّ زوجته قد تركته، فماذا قلت له؟».

فكرت قليلاً لكنني لم أستطع أن أتذكر ما إذا كنت قد قلت شيئاً.

قالت: «دعني أعيد لك ما قلته بالضبط: هل ما زلنا سنذهب إلى المباراة غداً؟ وأجابك بنعم، أي أنَّ ما حصل هو أنَّ صديقك اتصل ليقول لك: إنَّ زوجته قد تركته وأنت تسأله ما إذا كان سيذهب معك إلى مباراة كرة القدم».

قالت ذلك بهذه الطريقة، وبدا الأمر مختلفاً عن لحظة حدوثه.

فقلت لها: «وماذا كان يفترض بي أن أقول؟».

«وماذا كان سيحصل لو أنك أخبرته بأنك حزين لأجله؟».

فقلت: «أظن أنَّ ذلك أمرٌ بدهي ولا يحتاج إلى توضيح».

وضعت يديها فوق عينيها وقالت: «وماذا كان سيحصل لو سألته ما إذا كان بحاجة إلى مساعدتك؟».

قلت لها: «إنني أكره عندما يقول الناس ذلك، لقد تركته زوجته للتو، فماذا يمكنني أن أفعل لأجله، أحضر له ملابسه من المصبغة؟».

«كان بإمكانك أن تعرض عليه المساعدة فقط، فذلك ما يفعله الناس».

«إنني أعلم وأنت تعلمين أنَّ الناس يبدون استعدادهم لتقديم خدمات يعرفون سلفاً أنها غير مجدية؛ لذلك إنَّ أفضل شيء يمكنني أن أفعله من أجله هو أخذه إلى مباراة كرة القدم غداً؛ كي أجعله يتوقف عن التفكير في ذلك الموضوع».

«أنت لست معقولاً !».

فسألتها: «أنا لست معقولاً؟».

«هذا صحيح».

لقد انتهى الأمر على هذا النحو، وبعد دقيقة سمعت صوت الماء المنبعث من الدوش، وعلى الفور بدأت أركز على المسألة الأساسية والملحَّة وفقاً لبرنامجنا، إنّ صباح السبت يُعدُّ أفضل وقت لنلهو به كزوجين مع بعضنا، وفجأةً بدا احتمال حصول ذلك ضعيفاً جداً.

وهكذا لم يكن أمامي سوى المبادرة إلى مصالحة فورية، فدخلت الحمام وقلت لها بصوتٍ مرتفع: «سأعاود الاتصال به بعد قليل، سأمنحه بعض الوقت، وقد أذهب إلى منزله بعد ظهر هذا اليوم».

بقيت صامتة مدة دقيقة وبعدها فتحت ستارة الدوش وأشارت إليَّ بإصبعها كي آتي إليها، يا له من أمر مريح!

بعد ثلاث دقائق عدت إلى غرفة النوم وبدأت أحدّق في الهاتف ثم صحت قائلاً: «سأتصل الآن».

فأجابتني من الحمام: «كم أنا فخورة بك».

انتظرت كي أسمع صوت مجفف الشعر، إذ وجدت أنه أفضل محاولة للخروج من هذا المأزق بسلام هو ألا تسمع زوجتي المكالمة الهاتفية، فحالما تقوم بتشغيل مجفف الشعر سيكون أمامي عشر دقائق جيدة من الخصوصية، لكن ذلك لم يحدث أبداً، فقد خرجت من الحمام وهي تضع على رأسها قبعة بيسبول، طالما أحببت شكلها وهي تضع قبعة البيسبول على رأسها، ولكن ليس هذه المرة.

وسألتني: «هل ستتصل؟ إنني جائعة».

قلت لها: «يمكننا تناول الطعام أولاً، ويمكنني الاتصال به لاحقاً»

فقالت: «اتصل به الآن، فأنت تعلم أنه مستيقظ».

تنهدتُ في داخلي ثم اتصلت به، كان بإمكاني سماع الدهشة في صوته عندما أجابني على الهاتف فسألني «ما الأمر؟».

قلت له: «لا شيء، أردت فقط أن أعرف ما إذا كان بإمكاني مساعدتك في شيء؟».

فضحك قائلاً: «مثل ماذا؟».

نظرت إلى زوجتي وتذكّرت أنَّ بإمكانها سماع كلا الطرفين؛ لذا حاولت رفع صوت ذلك الهاتف اللعين.

قلت بتردد: «هل ترغب في أن أحضر معي أحداً ليأخذ مكانها في المدرجات؟».

عندها أغلقت زوجتي باب غرفة النوم بعنف قبل أن يتمكن من الإجابة.

فقال لي: «في الحقيقة، اعتقدت أننا سنترك مقعدها شاغراً على الأقل هذا الأسبوع».

فأجبته: «كما تشاء».

«حسناً، أراك غداً».

«إلى اللقاء».

عندما نزلت إلى الطابق السفلي، رفضت زوجتي التكلم معي، فحاولت أن أشرح لها أنني كنت متفقاً معه على ترك مقعدها شاغراً، على الرغم من اعتقادي أنَّ ذلك لن يجدي نفعاً، لكنها لم ترغب في سماعي، وبما أنه لم يبق لي ما أفعله، ذهبت إلى النادي، وعندما كنت على جهاز المشي الثابت، أخذت أفكر في ذلك الفشل الذريع، أولاً، ما هي الغاية المرجوة من ترك كرسي شاغر؟ إنَّ ذلك ليس بعشاء عيد الفصح، بل هي مباراة كرة قدم، ولماذا يجب أن يقل تشجيع الفريق لمجرّد أنَّ علاقة زوجية قد انهارت؟ ثمَّ أخذت أفكّر في الاضطهاد الذي أعاني منه مع زوجتي، فهي تريد مني أن أعرض عليه المساعدة، ومن ناحية أخرى فهي لا تحب المساعدة التي أقدمها له. كيف يفترض بي أن أحقق ذلك؟.

يبدو أنه لا يوجد حل أمامي سوى أن أسألها: ماذا عليّ أن أفعل وكيف عليّ فعله؟ وإلا سيكون هناك المزيد من عطل نهاية الأسبوع الصامتة.

اليوم اللاحق

إنَّ التتمة المأساوية لهذه الكارثة هي أنَّ فريق النسور قد خسر، كما أنّ أحد مشجعي الفريق الآخر جلس في المقعد الفارغ، الأمر الذي أدى لانزعاجنا طوال مدة ما بعد الظهر، وفي أثناء عودتنا إلى المنزل سألت هاري عن شعوره، فقال: «لقد فكرت مليّاً ووجدت أنَّ ما حصل معي اليوم كان أسوأ مما حصل البارحة»، وعندما سألته ما إذا كان بإمكاني مساعدته في شيء، طلب مني أن أخرس.

سأخبر زوجتي بما قاله لي وآمل أن تلحظ حس الدعابة في ذلك، مع أنني لست واثقاً من أنها ستفعل.

الاستسلام

مناجاة افتتاحية

18 كانون الأول، سنة 2001

تلقيت اليوم بطاقة دعوة جميلة جداً.

فقد دعيت لحضور حفل افتتاح دورة الألعاب الأولمبية في مدينة (سولت ليك) الأمريكية، إذ لم يعد يفصلنا عن تلك الدورة المقامة في بلدنا سوى بضعة أشهر.

سيتم عما قريب توزيع الميداليات وسيكون السؤال المطروح: من هو نجم هذه الدورة؟

من ذا الذي سيستأثر باهتمام الأمريكيين؟

من ذا الذي سيجعل معظم علب الأطعمة الصباحية المصنوعة من الحبوب تباع بسرعة كبيرة؟

أليس ذلك محزناً؟ ألا تشعر بالأسى في أعماقك؟

في الحقيقة إنَّ ذلك يحزنني، ولهذا السبب رفضت الدعوة بشكل لطيف، فقد أصبحت دورة الألعاب الأولمبية شيئاً مزيفاً، ويؤسفني أن أقول: إن الألعاب الأولمبية أصبحت تجلب لي الكآبة والإحباط سواء بصفتي مشجعاً رياضياً أو أباً، فقد أوشكت ابنتي الصغيرة أن تتم سنتها الثانية من العمر، ويؤسفني أنها لن ترى تلك الألعاب بالشكل الذي رأيته عندما كنت صغيراً.

سأشرح لها ذات يوم بالتفصيل كم كنت أحب الألعاب الأولمبية وكم كنت أظنّ أنها مهمة، وسأذكر لها كيف قمت في صغري بقص صورة ميدالية من الجريدة، كما قمت بتدوين النقاط التي أحرزناها في دورة مونتريال، وكيف أنَّ اللاعبة دورثي هاميل هي أول رياضية أحببتها، وكيف أنني لن أنسى أبداً أولغا كوربا ناديا كومانتشي ومارك وبروس جينر ، ويجب عليَّ أن أشرح لها كيف كانت الألعاب الأولمبية تبدو رائعة ونزيهة.

وإن استطعت شرح ذلك لها، فإنها ستدرك حجم المأساة عندما ترى كيف أصبحت الألعاب الأولمبية مكرَّسةً تماماً لخدمة المال، يا له من إثم كبير أن يتمكن التسويق والمال من حرماننا من المعجزات التي لا يمكن أن نراها إلا في الألعاب الأولمبية، ولا سيَّما أولئك الرياضيين الذين لن ينساهم أحد أبداً!

كنت في الثانية عشرة من العمر عندما أذهل فريق الهوكي الأمريكي السوفييت في الدورة المقامة في مدينة ليك بلاسيد، ما زلت أذكر بدقة المكان الذي تابعت منه المباراة، وأذكر تماماً يوم الإثنين الذي أعقب المباراة حيث كنا في غرفة تبديل الملابس في المدرسة وبدأنا نردد معاً أمريكا ! أمريكا ! أمريكا ! وأخذ جميع من في الغرفة يهتفون ويضربون بأيديهم على الخزائن، كحال آلاف الأولاد الأمريكيين في ذلك اليوم، لكن في حالتنا كان الوضع مختلفاً تماماً؛ لأنَّ معظمنا لم يكن أمريكياً، فقد كنت طالباً في مدرسة تابعة للأمم المتحدة وكان أكثر من نصف طلابها أبناء دبلوماسيين في الأمم المتحدة، وكان رفاقي في الصف ينتمون إلى معظم أنحاء العالم فقد كانت لوين من الصين وجوستين من فرنسا و جين فرانسيس من كندا وهنري من مدغشقر وأنا كنت من نيويورك،

وهتفنا جميعاً في ذلك اليوم واحتفلنا معاً بنصر لا يعود إلى دولة بعينها، بل إلى جميع من يؤمنون بالمعجزات.

لم تكن تلك اللحظة هي أعظم لحظة في تاريخ الرياضة فحسب، بل كانت أكثر من ذلك بكثير، إذ استطاعت تقريب الناس من بعضهم بطريقة لا يمكن أن تحصل إلا من خلال الرياضة. أما الآن فلم يعد لذلك وجود، وهكذا لن يتمكن أطفالنا أبداً من رؤية شيء مماثل لما كان في أيامنا. يا له من أمر مخجل!

إليكم ما أتعهد بفعله: عندما تصبح ابنتي في الخامسة من عمرها، سأقوم بزيارة بعض الأصدقاء القدامى وسأبحث عن لوين و جوستين وكل أولئك الشبان وسأعرف ما إذا كان لديهم أولاد أيضاً. وسوف نجلس سوياً مع أبنائنا لمشاهدة شريط مسجل لتلك المباراة، عندها قد يدرك الأولاد كيف كانت الألعاب الأولمبية، وأظنُّ أنَّ ذلك سيكون مسلياً لي أيضاً، وبالتأكيد سأرغب في ترديد ذلك الهتاف مع رفاقي الأمريكيين مرة أخرى.

لقد قمت اليوم بالذهاب إلى الدكتورة غراي وأخبرتها أنني أشعر بالنقص.

فسألتني: «من أي ناحية تشعر بالنقص؟».

هنا تكمن المشكلة، فلو كنت أعرف لما كنت موجوداً هنا.

فقلت لها: «أظن أن الأمر يتعلق بالألعاب الأولمبية».

«قل ما عندك».

«حسناً، عندما كنت في الليلة الماضية مستغرقاً في التفكير بالألعاب الأولمبية كانت ابنتي تشاهد برنامج (افتح ياسمسم)، ثم ظهرت في البرنامج تلك الأغنية التي تردد فيها الحيوانات بأنهم متساوون على الرغم من الاختلافات فيما بينهم، لقد جعلتني تلك الأغنية المسماة «جميعنا أبناء الأرض» أفكر أنه ربما سيصبح حالنا أفضل لو نظرنا إلى الأمور من هذه الزاوية بدلاً من محاولة الفوز بميداليات أكثر من الألمان والصينيين.

«ماذا تعني؟».

ما أعنيه، أنه في عالم مليء بالزيف، ألم نترفع بعد عن فكرة الانتقام من الدول الأخرى عن طريق المنافسات الرياضية، وأظن أننا إذا كنا نخوض حرباً مع أحد البلدان، فهذا لا يعني بالضرورة أن نخوض معها معركة أخرى في لعبة كرة الماء.

قالت: «مايكل، ألا يتعلق الأمر بابنتك أكثر من الألعاب الأولمبية؟».

اكتفيت بابتسامة، فلو كنت أعرف لما كنت موجوداً هنا.

شعرت بحاجة ملحة لتغيير الموضوع، لذلك خطر في بالي مشهد تلك السيدة التي رأيتها اليوم خارج مكانها المعتاد، كانت تعبر الشارع من أمام محل ستاربكس وشعرت أني أعرفها من مكان ما، لكن لم أستطع تذكره بدقة، لقد أزعجني ذلك طوال اليوم إلى أن أدركت فجأة أنني كنت أشاهدها في محل دنكين دوناتس ـ إذ كنت أتوقف فيه كل صباح لتناول قهوتي، وفي كل صباح أيضاً ـ ومدة ست سنوات ـ كنت أرى امرأة طاعنة في السن ربما في السبعينيات من عمرها تجلس وحيدة في الزاوية وتحيط

بها الكتب من كل جانب. في الحقيقة لم أكن قد تحدثت إليها أو حتى لوحت لها بيدي طوال تلك السنين.

«من هي تلك السيدة؟» لم أسأل نفسي هذا السؤال إلى أن رأيتها اليوم خارج مكانها المعتاد. إنني أتحرق شوقا لمعرفة قصتها.

إن الدكتورة غراي لم تولِ أي اهتمام لتلك القصة وقالت: «ما الذي جئت لتتحدث عنه اليوم يا مايكل؟».

«لا أعرف».

لا بد أن القصة تركت أثراً سيئاً، ويمكنني القول: إن الدكتورة غراي كانت محبطة؛ لذلك حاولت أن أقول شيئاً هادفاً:

«أحياناً أظن أنه قد يحصل معي عشرة أمور مهمة، لكنني دائماً أركز على الشيء الذي أنا قلق بشأنه».

فأجابت: «قد يكون لديك يا مايكل، أعراض ما نسميه (الشيء الحادي عشر)».

في تلك الأثناء سألت نفسي: لماذا أقوم بتلك المحادثات؟ فأنا لا أشعر مطلقاً بالرغبة في الكلام، ولذلك جلست صامتاً إلى أن ربتت على كتفي وقالت: «هيه ما هو الشيء الذي يشعرك بالنقص؟».

هيا أيتها الطبيبة، فلو كنت أعرف لما كنت سأكتب هذا.

بعد ساعة

حسناً اعذروني؛ لأنني عدت إلى الكتابة بهذه السرعة، فقد كنت

مستلقياً في سريري على وشك النوم عندما جلست فجأة، إن ذلك يُعَدُّ بالنسبة لي أمرا استثنائياً جداً - فقد جلست كشخصٍ قام بضبط منبهه على الساعة الثالثة والخمس والأربعين دقيقة صباحاً، وأنا بالطبع لست واحداً من أولئك الذين تأتيهم الأفكار المذهلة فجأة في منتصف الليل، فالفكرة المذهلة الآتية التي قد تخطر في بالي في أي وقت من اليوم ربما تكون تكراراً للفكرة الأولى. لكنني الليلة ربما أكون فعلاً قد توصلت إلى شيء ما.

لقد أجريت اتصالين هاتفيين قبل ذهابي إلى النوم، وكان اتصالي الأول مع زوجتي التي كانت تعمل حتى وقت متأخر في مكتبها، وسأحاول ما في وسعي؛ كي أستذكر تلك المكالمة.

«سأخبرك يا عزيزتي، بأنني أجد صعوبة بالغة في التعاطي مع العلاج النفسي، فأحياناً أشعر أنه مجرد مضيعة للوقت وأنه غير مجدٍ أيضاً، إذ غالباً ما أجد نفسي أتطرق فجأة إلى مواضيع تافهة فقط؛ لكي أعرف فيما إذا كان العلاج النفسي يجدي نفعاً في عملي. إن الجهود التي تبذلها الدكتورة غراي للتعمق في شخصيتي لم تؤدِ إلى نتيجة، وهذا ما يشعرني بخيبة أمل، فأنا أظن أنها تحاول بذل ما في وسعها وأظن أنها مؤهلة لذلك إلا أنني لا أشعر أن هذه الجهود مجدية وأعتقد أنني سأتوقف عن الذهاب إلى الطبيبة النفسية».

(صمت طويل استطعت من خلاله أن أسمعها وهي تطبع، وأخيراً.....)

«أشعر بالأسف لأجلك يا عزيزي، يبدو أنك تواجه يوماً عصيباً، هل يمكنني أن أطرح عليك سؤالاً: لماذا يدعون الأولاد الشقر بـ «ذوي الشعر

الكتاني»؟ لقد قامت بيج وهي زميلة لي في المكتب بالإشارة إلى ابنها على أنه ذو شعر كتاني، ولذا عليّ الدخول إلى برنامج (غوغل) كي أعرف ما الذي تعنيه بذلك، فأنا اعتقدت أنها كانت تخبرني عن مشكلة يعاني منها وأظن أنني أخبرتها بمدى تعاطفي معها ولا بد أنها اعتقدت أنني مجنونة، لكن لماذا يستخدمون ذلك التعبير، هل تعرف؟».

أجبتها: «لست لدي أدنى فكرة عن ذلك يا عزيزتي. سأذهب إلى النوم، أراك غداً».

لم أشعر بالرضا: لذلك اتصلت بوالدي، لا من أجل إطلاعه على مشاعري تجاه العلاج النفسي، بل لاعتقادي أننا قد نستطيع التحدث قليلاً عن الحياة، فعلى الرغم من كل شيء، كان أبي محامياً كثير العمل ولديه ولدان، لذلك ربما يتمكن من إدراك مشاعري.

قلت له: «سأخبرك يا أبي، إن الأمور ربما تبدو معقدة جداً في بعض الأحيان، فأنا أعمل بجدٍ ولساعات طوال، ولدي رحلات عمل والتزامات، وبعد ذلك كله عندما يتوافر لدي وقت فراغ، أشعر بأنني ملزمٌ بقضائه مع طفلتي، وهذا لا يعني أنني لا أحب البقاء معها، لكنني لم أرَ فيلماً منذ سنين، حتى إنني لا أتكلم عن مشاهدة فيلم في دور السينما فأنا لا أملك الوقت الكافي كي أجلس على الأريكة وأشاهد فيلماً منذ ولادة طفلتي، وما كان سيتسنى لي مشاهدة مباريات الكرة لو لم يكن ذلك من صلب عملي، فأي شيء أقوم به من أجلي يشعرني بالذنب، فمثلاً إذا تسللت خارج المنزل لألعب الغولف، فلن أستطيع التخلص من ذلك الشعور الذي يحتم عليّ قضاء الوقت مع طفلتي، وقد يؤدي ذلك إلى القضاء على أي متعة

خلال وجودي خارج المنزل، فهل كنت تشعر الشعور نفسه عندما كنت أنا صغيراً؟.

(صمتٌ أطول من صمتها ولكن دون طباعة) وقال: «يبدو أنك تواجه يوماً عصيباً يا مايكل، آسف لسماع ذلك، لكن بما أنك معي على الهاتف دعني أسألك شيئاً: ما هي الأغنية الشعبية التي يغنيها شخص اسمه سايروس ـ Cyrus وتتألف من ثلاثة عشر حرفاً وأظن أنها تبدأ بحرف القاف؟».

«قلب مكسور وحزين».

فأجاب: «ماذا؟».

«قلب م ـ ك ـ س ـ و ـ ر ـ و ـ ح ـ ز ـ ي ـ ن».

«إنها ملائمة».

فقلت: «هذا صحيح يا أبي، سأذهب للنوم».

هذا ما قمت به فعلاً إلى أن جلست فجأة في سريري وآذيت رقبتي، فقد عرفت سبب ذهابي الأسبوعي إلى الدكتورة غراي على الرغم من اعتقادي بعدم جدوى ذلك أحياناً، وإنه لأمر يبعث على السخرية أن يستمع إليّ ملايين الناس وأنا أتحدث كل يوم ولكن أحياناً أظن أن الدكتورة غراي هي الوحيدة التي تصغي إلي فعلاً، وأنا لا أستطيع تحديد ما إذا كان ذلك سبباً جيداً أو سيئاً كي أذهب لرؤيتها، أو إذا كان ذلك يعني التوقف عن الذهاب إليها أو عدم المثابرة على ذلك، أظن أن الأمر يستحق الكتابة.

إنه لأمر يبعث على السخرية أن أعيد قراءة ذلك الجزء الأخير مرة ثانية، إذ كل ما أفكر فيه في هذه الليلة هو كم سأكون في حال أفضل عندما لا يصغي أحد إلي، فمن المؤكد أنني سأقضي أسبوعاً خالياً من المشكلات لو أن زوجتي فضلت عدم الاستماع إليّ على عدم التكلم معي.

وعلى الرغم من كل شيء، قد يكون هذا الشجار خطئي أنا، وربما يكون خطأنا نحن الاثنين، أو ربما لا نستطيع العيش دون شجار، حالنا كحال جميع الناس، وأظن أنني أعرف السبب.

إن الكواكب هي السبب في كل ذلك.

فقد أصبحت في الآونة الأخيرة أفكر كثيراً في ذلك الكتاب. هل تذكرونه: الكتاب الذي يقول: إن الاختلافات بين الجنسين أمر حتمي؛ لأن الرجال ينتمون إلى كوكب المريخ والنساء ينتمين إلى كوكب الزهرة، فقد قرأت ذلك الكتاب ذات مرة بناءً على طلبٍ من زوجتي وظننت حينها أن هذا الكلام مجرد هراء، لكنني الآن وبعد عشر سنوات من الزواج أقرّ أن الفكرة بدأت تلقى قبولاً لدي، فأنا لا أستطيع إيجاد أي تفسير منطقي لسلوكها سوى أنها من كوكب آخر وأنا على ثقة تامة من أنها تبادلني القناعة نفسها.

إن أكثر ما أتذكره عن ذلك الكتاب هو حاجة المرأة الماسة للمواساة عندما تكون منزعجة، ويقول الكتاب أيضاً: إن الرجال فاشلون في تلك المهمة؛ لأنه عندما تأتي النساء إلينا بمشكلاتهن فإننا نحاول حلها. (بالطبع نحاول حلها، فلماذا ستخبر شخصاً ما بمشكلتك إذا كنت لا تريده أن يساعدك في إيجاد حل لها؟) إن ذلك يظهر الفرق الأساسي بين الجنسين، فعلى المريخ يقومون بحل المشكلات وعلى الزهرة يتكلمون

عنها، وبحسب ما ورد في الكتاب، فإن الشيء الوحيد الذي تريده زوجتي مني عندما تشتكي أمامي هو أن أقول لها: «إنني حزين لأجلك يا عزيزتي، فهذا يبدو سيئاً جداً».

أظن أني رأيت في الآونة الأخيرة المزيد من الأدلة عن الأشخاص الذين ينتمون إلى كوكب آخر، فأحيانا يتجلى ذلك بطرق واضحة جداً، وأحياناً أخرى يظهر بطرق تافهة جداً، فلنأخذ الملابس الداخلية على سبيل المثال، إنني لا أستطيع أن أصدق كم تقضي زوجتي من الوقت وهي تتكلم مع النساء الأخريات عن الملابس الداخلية، فهن يتحدثن عن فوائد السراويل الداخلية التي تشبه الخيط أو عن حمالة الصدر الجديدة التي اشترتها إحداهن أو عن القمصان الداخلية التي يلبسنها تحت القمصان الشفافة، إنهن لا يتوقفن أبداً عن النقاش بشأن تلك الملابس التي لا ينبغي أن يراها أحد سوى أزواجهن، لكن يا للسخرية! فهن لا يناقشن ذلك مع أزواجهن أبداً.

وعلى الرغم من تفاهة ذلك الأمر إلا أنه مهمٌ؛ لأنه يُظهر مدى التناقض الموجود بيننا، وكذلك الأمر بالنسبة للمناشف، إذ يمكنني ببساطة استعمال منشفة واحدة مدى الحياة، أما زوجتي فهي تستخدم أربع مناشف يومياً، وليس لدي فكرة عما تفعل بها، إن كل ما أعرفه هو أنها تمتلك قدرة فريدة على تثبيت المنشفة حول جسدها وإبقائها في مكانها مدى الحياة، إنه لأمر مذهل كيف تستطيع النسوة فعل ذلك، إذ عندما أقوم بوضع منشفة حول خصري فإنها ستسقط على الأرض خلال خمس خطوات، ولكن حتى المرأة التي تملك ثديين صغيرين يمكنها الاحتفاظ بالمنشفة ملفوفة على جسمها، حتى وهي تلعب حركات أرضية رياضية.

تلك هي الاختلافات الصغيرة، أما التباين الكبير فيما بيننا فهو يظهر في مجالات أهم بكثير من المناشف والألبسة الداخلية.

فمثلاً، إذا كنتُ حقاً من المريخ وهي حقاً من الزهرة، فإنني مقتنع تماماً بعدم وجود الرياضة في كوكب الزهرة، وأنا لا أقول ذلك انطلاقاً من كوني معلقاً رياضياً، بل من كوني شاباً قبل كل شيء، إذ ليس لدى زوجتي أي إحساس بأهمية الرياضة، وذلك جليٌّ جداً، فأنا أؤمن أن حصولك على بطاقات لحضور مباراة كرة قدم هو سبب وجيه كي تفوّت عليك حضور حفل زفاف، حتى ولو كان لأبناء عمومتك. (أما بالنسبة للإخوة فالأمر مختلف، على الرغم من اعتقادي أن أي أخ يجب عليه أن يكون حكيماً ولا يتزوج في أثناء مباراة لفريق النسور، وبالنسبة للجنازات، أظن أن الأمر مربك، لكن بالنسبة لحفلات الشراب، فالأمر لا يحتاج إلى نقاش، إذ تعد بطاقات كرة القدم بالنسبة لي، سبباً وجيهاً كي أفوت عليّ أي حفلةٍ للشراب).

تعتقد زوجتي أن ذلك يبدو سخيفاً، فقد قالت لي ذات مرة: «لديهم مباراة أخرى الأسبوع المقبل، فلتذهب إليها». هل تفهم ما أعنيه؟ إن نساء كوكب الزهرة لا يفهمن ذلك وإنهن لا يدركن أن الرياضة مختلفة تماماً عن باقي أشكال التسلية، كما أنهن لا يدركن أن كل مباراة كرة قدم هي حدث لا يحصل سوى مرة واحدة في العمر: فإذا لم يتسنَ لك مشاهدته، فإنك لن تتمكن من ذلك مرة أخرى.

إن هذا الاختلاف في وجهات النظر أدى إلى نشوب حرب عالمية ثالثة في منزلنا هذا الأسبوع؛ لأن ابنة عم زوجتي تزوجت مرة ثانية هذا الصباح ـ صباح الأحد ـ في فيلادلفيا.

واليكم كيف سارت الأمور:

سألتني زوجتي يوم الأربعاء ودون سابق إنذار: «كم سنستغرق من الوقت لنصل إلى فيلادلفيا في الساعة العاشرة؟».

عندها قلت: «تباً، ولماذا علينا أن نكون في فيلادلفيا في الساعة العاشرة؟».

كان ذلك أول خطأ ارتكبته، فقد استخدمت كلمة تباً في بداية الحديث.

فقالت زوجتي: «إنه حفل زفاف شيلا».

«تباً، ومن تكون شيلا هذه؟».

وهنا ارتكبت خطأين معاً: الأول عندما ذكرت كلمة تباً مرة ثانية والخطأ الثاني عندما نسيت اسم قريبتها، ربما أكون قد تذكرت ابنة عمها هذه: فعندما تزوجت أول مرة كان على زوجتي انتعال حذاء أخضر، ويجب أن أشير في معرض الدفاع عن نفسي إلى أن ابنة العم هذه، أحبّت في الآونة الأخيرة أن تسمي نفسها ياسمين، وهكذا لم ينادها أحد باسمها الأصلي منذ سنوات، وكانت قد تزوجت مرة أخرى بعد حادثة الحذاء الأخضر، ولديها ولدان وهي ما تزال في الثامنة والعشرين من عمرها.

«إنك تعرف تماماً من هي شيلا، وأنت تعرف أنها ستتزوج صباح الأحد».

عندها شعرت بالذعر ثم قلت: «تباً، ماذا تقصدين بصباح الأحد؟ إن فريق النسور سيلعب مباراته يوم الأحد».

إنها آخر مرة يُسمح لي فيها بقول «تباً»، فالسياسة المتبعة هي ثلاث كلمات تباً وبعدها يتم طردك.

قالت لي: «لا أريد نقاشاً في هذا الأمر، ببساطة شديدة ستذهب إلى حفل الزفاف».

في الواقع، لقد ندمت على الطريقة التي تعاطيت فيها مع هذا الأمر، ولو كان بمقدوري إعادة عقارب الساعة إلى الوراء لأنقذت الموقف.

فالزواج يبدو مثل لعبة الغولف، إذ سيكون من السهل تحديد الفائز بعد ضرب الكرة من بعد ستة أقدام من الحفرة.

قالت: «كيف يمكنك حتى التفكير في أن تفوّت عليك حضور أهم يوم في حياة ابنة عمي؟».

«وكيف نعرف ما إذا كان هذا أهم يوم في حياتها، فهي تتزوج كل سنتين، وسيكون عليها عندما يصبح عمرها ثلاثين سنة العودة إلى اسم عائلتها غابور».

فأجابت: «هذا ليس عدلاً، فأنا لا أسخر من أي حفلة تخص عائلتك».

قلت لها: «ليس لدي حفلات عائلية أصلاً، فعائلتي كلها عبارة عن ستة أشخاص».

«حسناً على من يقع اللوم في ذلك».

أكره منها هذا التصرف، فهي غالباً ما تلجأ إلى قول شيء لا علاقة له بالموضوع، وعندما أحاول جاهداً ضبط نفسي، تدلي بتعليق أخير ثم تغادر الغرفة....».

«كن جاهزاً للسفر في الساعة السابعة».

قالت تلك العبارة وأغلقت الباب وراءها بعنف.

«عندما أفكر فيما سبق، أجد أن هذا كثير جداً، فقد بدأت المشكلة بكاملها عندما سألتني عن وقت انطلاقنا، مع أنه بدا واضحاً أنها خططت لكل شيء منذ البداية.

وهكذا، كنت في طريقي إلى مدينة فيلادلفيا، وبالمناسبة إنها أسوأ مكان تنطلق إليه من نيويورك؛ لأنها ليست بعيدة بما يكفي لكي تبرر سفرك جوّاً، لكن في الوقت الذي تقود فيه السيارة عبر مدينة نيوجرسي تورنبايك فإنك تشعر وكأنك طرت إلى سيدني.

إن أكثر ما أدهشني هو أن فريق النسور سيلعب مع فريق صقور فيلادلفيا، وهكذا سيتمنى جميع الموجودين في الحفلة لو كانوا في المباراة، وسنقوم بالتزاحم حول التلفاز الصغير الموجود لدى الساقي، إذ سنشجع ونستنكر معاً، بينما يقوم الزوجان السعيدان بتقطيع قالب الحلوى. هل ذلك ما أرادته شيلا؟ أن تتقاسم فرحتها مع اللاعبين دونوفان ماكناب وتشاد بينينغتون.

إنني بصراحة لا أفهم أولئك الذين يختارون الزواج في أثناء الأحداث الرياضية المهمة كأولئك الذين يتزوجون في ليلة سبت تجري فيها المباراة الختامية وحتى ولو لم يكونوا مشجعين رياضيين، فلا بدّ أن يدركوا أن الآخرين قد يكونون كذلك، إن ما يقوله هؤلاء:

«أعرف أن باستطاعتي اختيار أي يوم آخر لهذه المناسبة، لكنني لا أبالي، فأنا أريد أن يكون معظم الرجال في حفلتي ذاهلين ومنزعجين».

أو ربما يتعلق الأمر بالنفقات، فمن المحتمل أنهم يقدمون حسومات مغرية إذا اخترت الاحتفال بمناسبتك في هذه التواريخ الرهيبة، مثل يوم الأحد من بطولة السوبر بول، وإلا من ذا الذي سيتزوج في يوم أحدٍ تحدث فيه هذه المباريات، لا أستطيع حتى التصور أنهم يقيمون حفلات زفاف في ذلك التاريخ.

على كل حال، إن أول شيء اكتشفته لدى وصولي هو أنّ والد العروس كان سيغادر بعد مراسم الزفاف مباشرة، فهو لديه بطاقات لحضور المباراة.

قال لي: «أظن أنه سيكون أمامي متسعٌ من الوقت كي أصل مع بداية المباراة، إذا استطعت الخروج من هنا في الساعة الحادية عشرة».

قلت له: «لا بدّ أنك تمزح، كيف نجحت في ذلك؟».

«لقد قلت لها: إن الأمر كان سيختلف كثيراً لو كان هذا زواجها الأول، كما أخبرتها أن أمامها احتمالين: إما أن أذهب لمشاهدة مباراة الصقور وإما أن تتزوج سرّا».

عندها أخذت منديلاً من على الطاولة وسألته: «هل معك قلم؟ فأنا أرغب في تدوين ذلك».

قال لي: «بالتأكيد ستأتي معي».

«في الواقع، لا أنوي ذلك».

قال لي: «هذا هراء، يجب عليك رؤية هذه المباراة».

أخبر زوجتي بذلك.

«سأفعل».

وبالطبع، كنت بعد ساعتين في طريقي لحضور المباراة، فقد أخبرتني زوجتي أنني إذا حضرت مراسم الزفاف وتغيبت عن الحفلة فلا بأس في ذلك.

إن أكثر ما يخيفني هو إلى متى سأبقى بحاجة لتعلم المزيد عن هذه العلاقة.

ذهبت هذا الصباح لرؤية الدكتورة غراي وأخبرتها أننا أنا وزوجتي أصبحنا في الآونة الأخيرة نتشاجر أكثر من أي وقت مضى، وأنا لا أحب ذلك.

فعلى الرغم من كل الأمور السيئة التي تحصل معي في حياتي إلا أن ذلك آخر ما كنت أتوقعه.

أخبرتني الدكتورة غراي أنه من الطبيعي بالنسبة للأزواج في مثل حالتنا ـ شخصان محترفان ومنشغلان ولديهما أطفال صغار ـ أن يشعرا بالإهمال من قبل بعضهما.

فسألتها: «إذاً، ما الذي ينبغي علينا فعله بهذا الشأن؟».

فقالت: «افهما بعضكما».

أظن أنني لن أفهم زوجتي، حتى ولو أحضرت معها مترجماً، فسألت الدكتورة:

«كيف يمكننا القيام بذلك بالضبط؟».

إن ذلك التحدي يواجه الأزواج منذ بداية الزمن.

شعرت بحاجة ماسة لتغيير الموضوع، فإما أن أفعل ذلك وإما أن أخيب أملها.

فقلت لها: «لم أنم جيداً في الآونة الأخيرة».

«ولماذا؟».

«عادة ما توقظني طفلتي في أثناء الليل، وهذا ليس سيئاً كثيراً فأنا معتاد على أن أغفو بعد ذلك مباشرة، إلا أنني في الأسابيع الماضية، لم أستطع النوم مباشرة، إذ أبقى مستلقياً في سريري وغارقاً في التفكير».

وهل تفكر في ابنتك أم في زوجتك؟.

«تلك هي المشكلة، فأحياناً لا أفكر في أي منهن، في الحقيقة، إنني أفكر في توم سوير».

قالت: «أخبرني عن ذلك؟».

فقلت: «أتذكر في صغري أنني كنت أعيد قراءة ذلك الجزء الذي يقول: (إن العمل هو شيء يجب عليك فعله، أما اللهو فهو شيء ترغب في فعله)، حسناً، كنت دائماً أظن أنني سأجد عملاً أرغب في فعله، بحيث لا يبدو كالعمل أبداً، وقد اعتقدت حتى وقتٍ قريب أنني نجحت في ذلك».

فسألت: «ألم تستخدم ذلك التشبيه من قبل يا مايكل؟ أظنك استخدمته عندما كنت تحاول جعل زوجتك حاملاً».

«هذا صحيح، لقد فعلت ذلك، وما أقوله الآن يشبه تماماً ما قلته سابقاً، إذ عندما يصبح الجنس كالعمل، فإنني أحبط حتماً، والآن أشعر الطريقة نفسها تجاه مهنتي».

«لكن يفترض أن تكون المهنة عملاً».

لم تكن تفهمني، إذ ليست مهنتي هي التي تبدو كالعمل، بل إنها الرياضة، فقد بدأت أشعر بصفتي مشجعاً رياضياً أن ذلك أصبح عملاً على الرغم من اعتقادي أن ذلك شيء أردت فعله، لكن مؤخراً يبدو لي أنه شيء واجبٌ عليّ فعله.

قالت: «أخبرني المزيد يا مايكل».

لم أشعر برغبة في إخبارها بالمزيد، فهي لن تفهمني مهما حاولت أن أشرح لها، ولذلك قررت الانتقال للحديث عن البرامج الإذاعية بدلاً من ذلك وقلت:

«حسناً، أيتها الطبيبة، أخذت أفكر في الليلة الماضية كيف أنني عندما أشاهد حلقة من برنامجٍ فكاهي في أي وقت كان، فإن ذات الحلقة تظهر لي أينما صادفت ذلك البرنامج مجدداً، وقد تكرر ذلك معي لدرجة لا يمكنني عدّه مصادفة بل هو الآن ظاهرة».

قالت: «مايكل، أحياناً نجبر أنفسنا على التعمق في التفاصيل؛ لكي نتفادى القضايا الأكثر أهمية في حياتنا».

قلت: «أعرف ذلك، لكنني لا أفهم ما علاقة ذلك بهذا الأمر».

«لا تفهم».

قلت لها: «كلا، لا أفهم ما علاقة ذلك، لكنني لاحظت أنه إذا كان لديك ما يكفي من القنوات، فإن فيلم ـ حمى ليلة السبت ـ يتكرر دائماً».

«هل تحب ذلك الفيلم؟».

«تلك هي المشكلة، فأحياناً لا يتعلق الأمر بمحبتك للفيلم أو بكرهك له، بل يتعلق بإعادة عرضه».

ثم سألتني: «لو كانت حياتك فيلماً، فهل سيكون كوميدياً أو تراجيدياً؟».

«حسناً، إن الأفلام الكوميدية دائماً تكون نهايتها سعيدة، أما الأفلام التراجيدية فتنتهي بموت الجميع دائماً، فأي واحد يشبه الحياة بالنسبة لك؟».

فسألتني: «أليس هناك من شيء يشعرك بالسعادة؟».

«مثل ماذا؟».

«ماذا عن جمال هذا الفصل؟».

فقلت: «بالطبع لا، إنه فصل الخريف».

ليس هناك من مؤمنٍ بالقضاء والقدر يحب فصل الخريف، فهو فصل خاص بالمتفائلين، وقد سمعت ذات مرة شاباً يقول: إنه يحب فصل الشتاء، لقد فاجأني ذلك الفتى.

قالت: «ربما يعود سبب كآبتك إلى حد ما للطقس».

وبينما كنت أفكر أن هذا الروتين التافه قد يحمل معه بارقة أمل، اقتربت الدكتورة غراي مني حتى أصبح أنفها قريباً من أنفي أكثر من أي وقت مضى، وقالت:

«مايكل، كيف تتوقع من زوجتك أن تفهمك إذا كنت أنت لا تفهم نفسك؟».

لم أجب على ذلك، وفي الحقيقة لم أقل شيئاً طوال الوقت المتبقي من الجلسة، لكن عليّ الاعتراف أنه كان سؤالاً جيداً.

توصلت إلى استنتاجٍ مهم هذا الأسبوع، وهو عدم شعورك بأنك متزوج حقاً حتى تسمع عبارة: «إنني بدينة ولا أطيق نفسي».

«هل يمكنك إخباري بالرد المناسب على هذه العبارة؟ إنها الأحجية التي تواجه الأزواج منذ بدء الزمن ـ إذ يحاولون الإجابة على ما لا إجابة له ـ فليس هناك من اتجاه يمكنك المضي فيه إلا وسيقودك مباشرة إلى مكانٍ خطر، فإذا قلت:

«كلا، إنك لست بدينة»، فمن المؤكد أنها ستقول: «وهل أنا نحيلة كما كنت في السابق؟» وعندها ستكون هالكاً لا محالة؛ لأنك إذا قلت نعم فأنت تكذب بوقاحة كبيرة، وهي إما ستصفك بذلك أو ستتهمك بقلة الاهتمام بها، لدرجة لم تلحظ معها وزنها الزائد وفي هذه الحالة عليك القول: «حسناً، ربما يكون وزنك قد زاد قليلاً، في كل الأحوال أنت الخاسر؛ لأنها ستقول: إنك تظن أنني بدينة، أليس كذلك؟» وهكذا ستعود إلى نقطة البداية.

إنني أعده عبارة: «إنني بدينة ولا أطيق ملابسي» هي العبارة الأكثر تردداً في الحياة الزوجية، وهاهي اليوم تعاود الظهور ثانية لتكلل هذا الشهر القاسي في منزلي.

لقد توصلت بعد تفكير طويل إلى حل لهذه الأحجية، فقد خطر لي بعد أن أخبرتني الدكتورة غراي بحاجتي إلى فهم نفسي أنني إذا لم أستطع القيام بذلك فلن أتمكن أبداً من فهم أي شخص آخر: لذلك عندما قالت لي هذا الصباح: «إنني بدينة ولا أطيق ملابسي»، لجأت إلى أسلوب جديد وهو أن أرمي الكرة في ملعبها، فقلت ببساطة: «حبيبتي لا أجد طريقة مناسبة للإجابة على ذلك».

لقد أدركت أن الجواب الوحيد على تلك الأحجية هو الاعتراف بالهزيمة فقط، لذا لا تحاول أن تناقش أو تقول أي شيء في وقت حتى الصمت قد لا ينقذك فيه، إذ ليس هناك من جواب. أيها الرجال، بقدر ما نكون مسالمين بقدر ما نكون سالمين. وبينما شعرت بحالة من الاطمئنان عندما فكرت أنني سأكون قادراً على مقاومة هذا الهجوم بصمت، قذفت زوجتي الكرة إلى ملعبي في رميةٍ طويلة لم تكن في الحسبان:

«إنني بدينة ومسنة وقبيحة».

(إنني أعرف ماذا يدور في ذهنك الآن: ليس الأمر بهذا السوء، إذ كل ما كان علي قوله هو أنها لم تكن بدينة أو مسنة أو قبيحة، لكن المشكلة في أنها كانت متأهبة أكثر مني).

فقلت: «إنك لست بدينة ولا مسنة ولا قبيحة».

أجابت: «وأي من تلك الصفات هي الأقل ظهوراً علي».

إن تلك المناقشات تشبه لعبة الشطرنج، إذ تبدو زوجتي في مواجهتي أشبه بمواجهة اللاعب بوبي فيشر لـ جيسيكا سيمبسون .

لكن مرة ثانية وتماشياً مع فلسفتي الجديدة قررت عدم الخوض في ذلك، قررت عدم الإجابة ولم أقل شيئاً البتة. قررت القيام بما يأتي: عندما تبدي زوجتي ملاحظة تتعلق بمظهرها:

سأتظاهر بعدم سماع أي شيء وإذا عاودت الحديث فيه فسوف أستأذن وأغادر الغرفة. وإذا ما ذكرت ذلك لدى عودتي، عندها يكون الوقت قد حان للقيام برحلة عمل، أو في مثل هذه الحالة، القيام برحلة إلى السوبر ماركت.

لا أعرف ما إذا ذكرت سابقاً مدى كرهي للسوبر ماركت. فأنا أكره كل ما يتعلق بالذهاب إليه ومن ثم نادراً ما أذهب. لكن عندما فاجأتني زوجتي اليوم بسؤال لا جواب له وجدت أن الحل الوحيد للخروج من هذا المأزق هو أن أعرض عليها خدماتي في الذهاب للتسوق.

وللأسف، لا أستطيع البقاء في السوبر ماركت أكثر من ثلاث دقائق دون أن أتصل بها، وأنا أستغرب كيف كان الرجال يقومون بالتسوّق قبل اختراع الهواتف الخلوية، فقد أستخدم هاتفي الخلوي على الأقل خمس مرات لطرح أسئلة مثل: «عزيزتي، ليس لديهم قشدة فيلادلفيا بشكل قطع بل بشكل علب، إلا إذا كنا نريدها خالية من الدسم، فأي واحدة نريد؟».

تبدو كلمة نريد مضحكة، أليس كذلك؟

إن الأمر ببساطة ليس ما نريده بل ما تريده هي فقط، فلو كان الأمر عائداً إلي، لما كان عليّ الاتصال كل دقيقتين، فلنكن صريحين، إنها هي التي تقرر الأنواع التي سنستخدمها، ولا أعرف بالضبط متى أصبحت مستسلماً لهذه الدرجة، لكنني أراهن أنني أصبحت كذلك عندما أدركت أنّ الأمر مهم بالنسبة لها.

بصراحة، إنني لا أتذكر نوع مناديل المرحاض التي كنت أستخدمها عندما كنت عازباً، ولكنني واثقٌ من أنه لم يكن هناك ماركة محددة اعتدت على شرائها، وكذلك الأمر بالنسبة للتونة ومزيل الرائحة والقشدة، كما أنّ الأشياء التي كنت أرغب بشرائها في الماضي ما زلت متحمساً لشرائها حتى اليوم: كورن فليكس ماركة كيلوغس وعصائد تروبيكانا ولبنة دانون، وفيما عدا ذلك عندما أقول: ما النوع الذي نشتريه؟ فإن ما أعنيه هو ما النوع الذي تحبينه؟ فكلانا يعرف أنني لا أبالي، فأنا لست قادراً على تذكر كل أنواع الجبنة البيضاء التي تبدو أقل اختلافاً من الأحذية السوداء المتماثلة الموجودة في خزانة زوجتي.

وبينما كنت أمشي عبر الممرات، بدأت أفكر: كيف أصبحت النساء مغرقات في الاهتمام بالتفاصيل؟ (لقد حصل ذلك مباشرة بعد أن اتصلت بزوجتي لأسألها: ما إذا كانت الجبنة التي تستخدمها صالحة أم لا)؟ وبينما كنت أدفع عربتي أمامي في قسم الخضار شاهدت إحدى النساء وهي تعلم زوجها طريقة انتقاء الشمام (البطيخ الأصفر)، عندها أصبح الأمر واضحاً لي، إذ أدركت الآن علاقتي مع زوجتي وعرفت القاسم المشترك بيني وبين جميع الرجال في كل مكان، ولا أصدق أنني احتجت كل هذا الوقت لأدرك أمراً بهذه البساطة: إننا جميعاً متزوجون من نساء يعتقدن أننا حمقى.

إن الأمر في غاية البساطة، فزوجتك تعتقد أنك أحمق وزوجتي تفكر بالطريقة نفسها تجاهي والحقيقة أن زوجتي تشعر أنك أنت أحمق أيضاً، لكن لا تأخذ هذا الكلام على محمل شخصي: إنها قضية تتعلق بالنوع، فكل النساء يعتقدن أن الرجال حمقى.

إن هذا الاعتقاد لا علاقة له بالسلالة أو الدين أو الحالة الاقتصادية أو الاجتماعية، فالشبان عموماً الأغنياء منهم والفقراء، السود والبيض والمسيحيون واليهود والمسلمون وكل الرجال في كل مكان متزوجون من زوجات يعتقدن بذلك، وهذا الأمر لا يتعلق أبداً بالذكاء أو النباهة أو الثقافة، فالأمر ببساطة هو أن لدى الرجال والنساء مشاعر وآراء متباينة تماماً، وسيؤدي ذلك التباين الحاصل فيما بينهم حتماً إلى جعل المرأة ذات يوم تفكر وتتساءل: لا أعرف ما الذي يدور في ذهنك.

والأسئلة المطروحة الآن هي: لماذا لا يعمل هذا التباين في الاتجاهين؟ لماذا لا يصبح الرجال محبطين عندما لا تفهمهن زوجاتهم؟

والجواب هو: لأن الرجال غير مبالين.

على الأرجح إن كل ما نطلبه منهن هو أن يتركننا وحدنا، فهناك تناقض قائم ما بين حاجة المرأة لمناقشة مشكلاتنا وبين حاجتنا إلى الادعاء أنه لا مشكلات لدينا، وهذا هو التناقض الجوهري ما بين الزوج وزوجته.

إننا لا نظن بصفتنا رجالاً أن زوجاتنا حمقاوات، لأننا نقبلهن على طبيعتهن، فهنّ ما هنّ عليه، لكن في الوقت ذاته، تريد النساء منا أن نكون كما يرغبن هنّ بأن نكون. (لقد وصف مارلون براندو ذلك في كتابه ـ

الشبان والدمى ـ فقد قسّم الرجال إلى أشكال وحجوم مختلفة استناداً إلى معيار الزوج كما تراه النساء)، والحقيقة أن كل النساء بمن فيهن زوجتي وزوجتك تفعلن ذلك، ومقاومتنا لهذا المبدأ هي التي تجعلنا حمقى.

إن هذا الأمر ينطبق على جميع الرجال حتى الأذكياء منهم والناجحين، وإنني أؤكد لك أن زوجة جورج ويل ستتصل بصديقاتها لحظة مغادرة زوجها للمنزل وتقول لهن: «لن تصدقوا ماذا فعل هذا الأحمق في الليلة الماضية»، ربما يكون ما فعله جورج ويل هو أنه وضع اللمسات الأخيرة على مقابلات أجراها مع بعض قادة الولاية وكتب مقالاً لصحيفة نيوزويك، لكن، ربما لم يكن هناك تناسب بين ربطة عنقه وجواربه عندما قام بذلك العمل، أو أنه ارتدى درجات متفاوتة من اللون البني وهو في طريقه إلى البيت الأبيض لإجراء مقابلة حصرية مع وزير الدفاع، وهذا ما جعله أحمق في نظرها.

وماذا عن جورج ستينبرينر ؟ إنه من أكثر الرجال قوة ونفوذاً في هذا البلد فهو يدفع ملايين الدولارات لشراء اللاعبين، لكن إياك أن تظن ولو للحظة واحدة أنه عندما يعود إلى منزله بعد التفاوض على صفقة بمليار دولار وينزل من سيارته الليموزين لن يجد زوجته في انتظاره على باب المدخل وهي تلف ذراعيها على صدرها وتعلو وجهها تلك النظرة، «استمع أيها السيد الأكثر قوة في عالم البيسبول....».

من المؤكد أن السائق سينطلق من هناك بسرعة؛ لأن المصير نفسه ينتظره في منزله.

لا بد أن تدرك أن هذه المسألة مستعصية على الحل، فنحن بالتأكيد

لن نتغير وليس من العدل أن يتوقعن منا ذلك، والحقيقة أن الرجال هم مخلوقات سهلة الفهم، والنساء يحاولن جاهدات فهمنا، لكن المشكلة معهن أنهن لا يستطعن التفكير في إيقاف أدمغتهن عن العمل، أما نحن فقادرون على ذلك، إذ نادراً ما نجعل أدمغتنا تعمل ولذلك يجب على النساء أن يتوقفن عن محاولة اكتشاف ما نفكر فيه، فنحن نمضي معظم الوقت في عدم التفكير.

وعندما كنت أنتظر دوري لدفع فاتورة الحساب ورحت أراقب جميع الرجال الآخرين الذين يقرؤون أوراقاً صغيرة كتبت عليها تعليمات دقيقة، أدركت أنني فهمت.

فالأمر لا يتعلق بفهمنا لهن، بل بفهمنا لأنفسنا، فإذا أرادت زوجاتنا أن تعتقدن أننا حمقى، فليكن ذلك، ومن الآن فصاعداً لن أبالي، فليست لديّ الرغبة ولا القدرة على الشجار بعد الآن، كما أنني أعرف أنها تحبني وهذا ما يهمني.

علاوة على ما سبق، ما هي الخيارات المتاحة لنا؟ فإما أن نحاول العيش بدونهن ـ حظاً موفقاً إذا كان هذا ما تريده ـ أو نحاول العيش معهن وهذا ما أنوي القيام به حتى ولو كانت زوجتي تظنني أحمق، فمن الآن فصاعداً سأصبح شخصاً مسالماً كل ما يطلبه بالمقابل هو مشاهدة مباريات الكرة بهدوء ولو بضع دقائق.

الجولة الثالثة

إلى السوبر ماركت

تشرين الأول 2003 ـ كانون الثاني 2004

خيبة أمل

مناجاة افتتاحية

يوم الإثنين الموافق في 13 تشرين الأول.

قد أبدو غاضباً هذا الصباح؛ لأنني بالفعل أشعر كذلك.

يا للأسف! إنني أظن أننا لا نعطي الأيام حقها من الاحترام الذي يليق بها، فاليوم أشعر أنني غارق في التفاصيل كما أنني أمص إصبعي.

كان بإمكاني عدم الإفصاح عن السبب، وبذلك أجعلكم تتساءلون طوال اليوم عن سبب مص غريني لإصبعه، لكنني أظن أنَّ هذا سيزيد الأمر سوءاً لا إثارة وتشويقاً، ولذلك سأشرح لكم ما حصل. إنَّ إبهام يدي اليسرى مجروح.

والسبب هو حادث قميص رسمي.

إنني لا أعرف من ذا الذي جاء بفكرة وضع دبابيس صغيرة في القمصان الرسمية؟ ما الغاية من هذه الدبابيس؟ فالقميص بالأصل مطوي بأناقة ومغلَّف بورق السولوفان، فلماذا الدبابيس؟ ولماذا هناك العديد منها؟ إنك لن تتمكن من إيجادها جميعاً وسيبقى دائماً واحد منها مختفياً، الأمر الذي يجعلك تشعر بالذعر عند ارتدائه، ومن ثمَّ عليك مراقبة خطواتك طوال اليوم، لأنه من المؤكد أنَّ أحد هذه الدبابيس سيسقط على الأرض ويضيع في السجادة وهذا مخيف جداً؛ لأنَّ أولادي يركضون عليها فهي في هذه الحالة أشبه بحقل ألغام.

أظن أنَّ علي إخبارك بالسبب المزعج الآخر، وهو أنّ زوجتي أعلمتني البارحة أنَّ علينا شراء قرطاسية لأطفالنا وقد وصل بها الأمر إلى حد القول: إنهم تأخروا في كتابة رسالتهم الأولى.

في الحقيقة لست واثقاً من الرسالة التي تظن أنها لديهم، لكنني حاولت جاهداً أن أشرح لها كم سيبدو الأمر سخيفاً لدى شرائنا قرطاسية لهم، فواحد منهم لا يعرف الكتابة بعد، والآخر لا يعرف حتى الكلام.

كما أخبرتها أنّ شراء القرطاسية سيؤدي إلى زيادة انزعاجي؛ لأنني أنا من سيكتب بطاقات كتبها أطفال.

لقد فهمتم ما أعنيه:

عزيزي العم فيل، شكراً جزيلاً على الألعاب التي أرسلتها لنا، إنني وأخي نلعب بها كل يوم وأحياناً نتشاجر على من سيأخذ دور المهندس، وتقول أمي: إنَّ عليك المجيء؛ كي تشاهدنا ونحن نلعب، آمل أن أراك قبل أن أصبح في الثالثة من عمري.

مـــع حـــبي

جوشوا

إنني أفخر بالقول: إنه لا أحد من أولادي قد كتب رسالته الخاصة حتى الآن، فقد تطرقت لموضوع لم تكن زوجتي قد تطرقت له بعد، وهو كتابة البطاقة عن أطفالنا، ولكنني أخشى أن يلفت شراء القرطاسية انتباهها إلى ذلك الأمر.

إنني أشعر دائماً برغبة في الاتصال بوالد زوجتي لإطلاعه على ما يجري، فربما يكون بإمكانه مساعدتي في توضيح الأمر لها، فهو من عصر مختلف تماماً، عصر لم يكن فيه الآباء بحاجة إلى شراء قرطاسية لأطفالهم، كما أنهم استطاعوا تربية أبنائهم دون وجود مايكرويف، أو حفاظات يسهل التخلص منها والتي ليس بمقدورنا الآن الاستغناء عنها.

لكن القضية الأساسية تتعلق بالقرطاسية وبحقيقة أنَّ حياتي أصبحت عبارة عن شراء هدايا وكتابة بطاقات شكر. هل حصل ذلك معك؟ لقد حصل معي بين ليلة وضحاها أو على حين غرّة، فقد أصبح الروتين اليومي لدي يتضمن التوقف دائماً في محل تيفاني أو محل بوتيت باتو لشراء بعض الهدايا وأصبحت ملزماً بكتابة بطاقة شكر لكل صديق كريم قام بدعوتنا إلى حفل شراب، وأظن أننا وصلنا إلى مرحلة أصبحت فيها كلمة «شكراً» أهم من الهدية نفسها.

ينبغي علينا وضع حد لهذه المسألة، فلنتفق جميعاً أنَّه عندما يقوم أحد منَّا بعمل لطيف فنحن نقدّر له ذلك، وبتلك الطريقة فإنّ في كل مرّة نرسل فيها هدية أو نستضيف حفل عشاء، يمكننا الافتراض أنَّ كرمنا قد تمَّ تقديره وشكره وبذلك يمكننا الاستمرار في الحياة.

فكر في الوقت والجهد الذي يمكننا توفيره.

ربما تتساءل: ما علاقة هذا الأمر بالرياضة، والجواب هو لا شيء البتة ففي بعض الأحيان قد لا يتعلق الأمر بالرياضة، بل بصعوبة كتابة بطاقة شكر باستخدام قرطاسية طفلك وأنت تمص إصبعك.

حسناً ها أنا أعاود الكتابة من جديد.

فبعد مضي أحد عشر شهراً على الانفجار النووي الذي أحدثه ابني في حياتي، عاد القلق إليَّ من جديد، وها أنا أفتح هذا الدفتر على مضض: آملاً بتهدئة مزاجي المضطرب.

إنَّ المشكلة الرئيسة تكمن في أنني لا أستطيع إيجاد مكان هادئ يمكنني اللجوء إليه، وأظن أنني مستعد لدفع أي مبلغ من المال حتى ولو كان عشرين ألف دولار مقابل خمس دقائق من الهدوء أستطيع من خلالها تدوين أفكاري.

إنني لم أكتب شيئاً منذ ولادة ابني وأظن أنَّ ذلك يعود لسببين: الأول رغبتي في الاعتقاد أن ذلك أصبح ورائي، فبعد أن توصلتُ إلى فهم زوجتي أكون قد قمت بحل أعظم لغز يواجه الإنسان، وظننت أنَّ ذلك سيستمر مدة طويلة، لكن بعد مجيء طفلي بدأت المشاحنات بيننا من جديد، كما أنني لا أستطيع إيجاد وقت لا يكون فيه أحد أبنائي مستيقظاً أو بقربي أو بحاجة إلى شيء مني. (أن يكون الآخرون بحاجتك فهي فكرة أساسية في التجربة البشرية ولذلك سأمنح عشرين ألف دولار أخرى مقابل قضاء يوم كامل دون أن يحتاجني أحد فيه، ففي الشهر الماضي عندما التهبت حنجرتي اضطرَّت زوجتي إلى وضعي في غرفة الضيوف رهن الإقامة الجبرية. لقد كانت أفضل عطلة نهاية أسبوع قضيتها في حياتي إذ لا أحد ينتظر مني شيئاً، لقد وصلت بي الأمور إلى درجة الحنين إلى المرض).

أما السبب الثاني الذي جعلني أنقطع عن الكتابة، فهو إقناعي لنفسي بأنَّ هذه الفوضى مؤقتة، وفي الحقيقة إنَّ ابنتي هي من أوصلني إلى هذه القناعة، فقد جعلتني أشعر بطمأنينة مزيفة، إذ في البداية رفعنا كل

شيء من أمامها، لكننا لم نستغرق وقتاً طويلاً في التكيّف مع ذلك الوضع، وشعرت بعد مدة قصيرة أنني على ما يرام، وما زلت أنتظر حدوث ذلك معي مرة ثانية، وسوف أخبركم في حال حدوثه.

إنني أرى الأمر على النحو الآتي: إنَّ قدوم الطفل الأول إلى حياتنا أشبه بالإعصار، ففي البداية تسود فوضى عارمة، لكنك بعد ذلك تستجمع قواك وتعيد ترتيب أثاثك وتعود إلى حد ما إلى حالتك الطبيعية، أما قدوم الطفل الثاني فهو أشبه بقنبلة ذرية، إذ سيقضي على كل الروتين الذي اعتدت عليه.

أظن أنَّ هذا الأمر صحيح عندما تولد الفتيات قبل الصبية.

فالتعامل مع الفتيات الصغيرات أكثر سهولة من التعامل مع الصبية الصغار. (وأتوقع أن يبقى الوضع على ما هو عليه إلى حين اكتشاف الفتاة لعالم الصبية، وهنا آمل ألا أعيش لرؤية ذلك يتحقق). لقد كانت ابنتي كالملاك منذ ساعة ولادتها، وبقيت مريحة لدرجة تفوق الوصف، فإذا أعطيتها كتاباً وقلت لها: «انتظري هنا»، فستجدها لدى عودتك في المكان نفسه الذي تركتها فيه. أما ابني الذي يبلغ من العمر سنة واحدة، لو تركته وحده مدة ساعة، فربما ستجده في مدينة كليفلاند. إنَّ الناس معجبون بخطواته الأولى، أما أنا فأظن أنَّ ذلك لعنة كبرى، إذ عندما يبدأ الطفل بالمشي، فإنه لا يكون مدركاً لكيفية تفادي الكوارث الموجودة في كل زاوية من الغرفة، فليس هناك من طاولة في غرفة الجلوس لم يصطدم ابني بها، ولذا يبدو وجهه وكأنه قد خاض مباراة من عشر جولات مع الملاكم مايك تايسون.

أرجوك لا تسئ فهمي فمحبتي لابني لا تختلف عن محبتي لأخته، لكنني الآن أعيش أوقاتاً عصيبة، وها أنا أفتح هذا الدفتر مرة ثانية؛ آملاً في تحقيق شيئين اثنين: الأول هو أن أتمكن إلى حد ما من فهم مشاعري، والشيء الثاني هو إطلاعك على بعض ما أظن أنني تعلمته.

فقد تلقيت من العلم في هذا الأسبوع ما لم أحصل عليه خلال سنوات الجامعة الأربع، وإنني أناشدك أن تتعلم من خبرتي ومن أخطائي ومن معاناتي. وإليك الحالة: لقد تركتني زوجتي.

ما رأيك في ذلك عنواناً لفيلم؟ لو كان هذا عنوان برنامجي الإذاعي لتركت فاصلاً طويلاً قبل البدء بالشرح؛ لأنَّ الشرح ليس على هذه الدرجة من الإثارة، وهو أنَّ زوجتي لم تتركني بل ذهبت إلى ولاية أريزونا مدة أسبوع من أجل حضور مؤتمر عمل هناك، ولكن بصراحة ربما تكون قد هربت من المسؤوليات الملقاة على عاتقها.

لقد مرّت خمسة أيام - حتى الآن - وأنا أرعى الطفلين وحدي (في الحقيقة، كانت المربية لورديس موجودة معنا، لكن اعذرني على هذه اللخبطة فقد كنت أنا و لورديس مع الأولاد، مما يعني أنهم لا يفوقوننا عدداً ولا يزال بإمكاننا اللجوء إلى منطقة الدفاع، لكن ما لم يكن بمقدورنا فعله هو مضاعفة الرقابة على أيّ منهما، مما يعني المزيد من الصعوبات، وأنت قادر وحدك على عرقلة اللاعب شاكيل أونيل ومنعه من إحراز نقاط لكنك لن تستطيع فعل ذلك مع ابني.

لقد توصلت من خلال هذه التجربة المريرة التي عشتها، إلى خمس قواعد يجب على كل أبٍ فهمها، لا سيَّما الآباء الذين لا دراية لهم بذلك.

1- إذا اعترضت طريقك سيارة لم تستطع تحديد هويتها، فعليك الفرار.

عندما وصلت إلى منزلي، وجدت أن لورديس قد جهزته؛ ليكون مناسباً للعب الأطفال فيه، ويبدو أنَّ هذا الأمر يتكرر حدوثه في منزلي كل يوم الإثنين، فعندما دخلت وجدت تسعة أطفال صغار بعمر الأربع سنوات يركضون كالمجانين في غرفة الجلوس، وكانوا جميعهم يتناولون زبدة الفستق (ليس هناك من مادة أقذر من زبدة الفستق، فهي طعام على شكل معجون سخيف مخصصة ليلعب الأطفال بها أكثر مما هي مخصصة للأكل، والحقيقة أنه لدى وصولي إلى المنزل كانت ابنتي تلعب بها. واقتصر لعبها على مسح زبدة الفستق على كل قطعة خبز صادفتها في المنزل، ولا أعرف ما إذا كانت قد أكلت أياً منها) حاولت قدر المستطاع أن أضبط نفسي ولكن بعد تسعين ثانية انتحيت بـ لورديس جانباً وهمست في أذنها: «سأصعد إلى الطابق العلوي، وأرجوك أن تخبريني عندما يذهب هؤلاء الأطفال، ستجدينني نائماً تحت السرير».

2- لن تتمكن من إزالة المادة المخاطية عن سترتك الصوفية.

لقد اكتشفت ذلك بعد تجربة مريرة، فقد ارتكبت خطأً فادحاً عندما قررت ارتداء سترة صوفية ماركة جون فارفاتوس على الرغم من إصابة ابني بالزكام، ولم تمضِ خمس دقائق حتى اكتشفت وجود بقعة مدوّرة من مادة مخاطية حديثة العهد على كتفي اليساري، في البداية لم أشعر بالخوف، لقد اتضح لي أنني كنت على خطأ، فالشعور بالخوف أفضل بكثير من محاولة إزالة البقعة بمنديل ورقي، وقبل أن أكتشف ذلك، كنت قد ابتكرت لوحة فنية مثيرة للاشمئزاز، فقد انطمرت ذرات المنديل

الصغيرة في النسيج الصوفي ولكن البقعة لم تختفِ بل أصبحت أقل رطوبة، لكن حتى ذلك الحين لم أكن قد شعرت بالقلق، فقد خلعت سترتي الصوفية ووضعتها تحت حنفية المطبخ، وعلى الفور بدت سترتي البالغ سعرها ست مئة دولار أشبه بورق معجون مشبع بالغراء، ومنذ ذلك الحين أصبحت أبدّل ملابسي في السيارة قبل دخولي إلى المنزل، وأنصحك بارتداء سترات قطنية، فأي ضرر قد يحدثه الزكام فيها يكون مؤقتاً.

3- لا يمكنك استعمال مكنسة كهربائية لإزالة القيء عن الأرض.

بدأ هذا الخطأ الذي ارتكبته عندما أجبرت ابنتي على تناول المكرونة مع الجبنة على الرغم عنها، فقد وجدت نفسي أقول لها هذه الكلمات التي أقسم أنني لن أكررها على مسامعها مرة ثانية: «كيف ستعرفين أنك لا تحبينها إذا كنت لم تتذوقيها من قبل؟»، لقد تقيأت ابنتي على أرضية المطبخ، وأظن أنها الطريقة التي عرفت من خلالها أنَّ ابنتي لا تحب المكرونة مع الجبنة.

وفي كل الأحوال، كان علي القيام بتنظيف الأرض وحدي، فقد كان يوم الأربعاء وهو اليوم الوحيد الذي تذهب فيه لورديس إلى الكنيسة وحتى لا أظلمها كانت قد أعدّت طعام العشاء قبل مغادرتها ولكنها لم تتناوله، وكنت أتمنى لو أنها فعلت، فإذا تقيأت فإنها ستفعل ذلك في الحمام وفي اللحظة المناسبة.

أما ابنتي فلم تفعل ذلك، فقد تقيأت على بعد قدمين من غسالة الصحون، وهكذا كان عليَّ أن أهدئ من روعها وأدخلها الحمام (أظنّ أنَّ التقيؤ يتطلب الاستحمام مرة ثانية) و أضعها مع أخيها في الفراش

قبل أن أنصرف إلى تنظيف أرضية المطبخ، لكن يجب عليَّ الاعتراف بأنني قلّبت في دليل الهاتف؛ بحثاً عن أرقام شركات التنظيف وقد توسلت للعديد منهم للمجيء، لكن الوقت كان متأخراً فقد تجاوزت الساعة الثامنة مساءً، ولذلك لم يلبِ ندائي أحد، وعندما فكرت في ترك هذه الفوضى حتى عودة تذكرت أنه لو قام أحد ما بفعل ذلك معي لقمت مباشرة بترك العمل، وأخبركم أنه في حال تركتني لورديس وحيداً مع الأولاد، فإنني سألقي بنفسي أمام أي شاحنة أصادفها في طريقي قبل حلول يوم الجمعة.

لم يكن أمامي من سبيل سوى أن أحل هذه المشكلة بنفسي، فأحضرت قفازات من المطاط كانت موجودة تحت المغسلة ووضعت قطعة قماش على أنفي وانحنيت لمعاينة الدليل، فوجدت أنه عبارة عن مادة أكثر صلابة مما توقعت، وبدا لي أنَّ بالإمكان إزالتها بمكنسة، وعندما كنت في طريقي لإحضارها صادفت وجود مكنسة كهربائية مما جعلني أظن أنَّ بإمكانها تأدية الغرض نفسه الذي تؤديه المكنسة العادية، ولذا قررت المغامرة. دعني أسألك شيئاً: هل سبق وأن رأيت القيء وهو يتجمد عند تعريضه لهواء مكنسة كهربائية؟ إنه أمر يستحق المشاهدة، وهكذا بعد أن انتهيت من استخدامها كان علي إعادتها إلى مكانها قبل أن تكتشف مدبرة المنزل الأمر.

لكن الأسوأ من ذلك هو بقاء بعض القيء السائل على الأرض، لذلك قمت بإحضار جرائد نيويورك تايمز ومسحت الأرض بها، وعندما انتهيت لم يكن هناك وجود لأي أثر للقيء، لكن كان هناك أثر رمادي رهيب على

الأرض وهو اللون نفسه الذي انطبع على يدي بعد ساعة من التنظيف بالجرائد، عندها قررت ترك هذه المهمة إلى لورديس وهذا ما كان بالفعل، كما تركت بطاقة أقول فيها: «لم أعرف المنظّف الذي يجب عليّ استخدامه لتنظيف الأرض، كما أنّ الأولاد لم يحبوا المكرونة والجبنة التي صنعتها».

4- عندما تكون وحدك مع الأطفال، قم بإخفاء مفتاح خزانة المشروبات.

قم بإخفائه من طريقك، وذلك ليس لأنك سترغب في تناول كأسٍ في أثناء رعايتك للأطفال؛ لأنه ستأتي لحظة تبدأ فيها مباراة البيسبول بينما يبدأ طفلك الصغير بالبكاء وعندها ستبدأ بالبحث عن كأس الشراب وعن المشروب في آنٍ واحد.

كم الكمية التي يمكن لهذه الكأس أن تحتويها، جرعة، مقدار صغير؟ وما مدى الضرر الذي يمكن حدوثه؟ ضرر دائم، إعاقة النمو، استعداد للإدمان؟ هل تعتقد حقاً أنّ ربع رشفة من المشروب قد تحدث مثل هذا الضرر البالغ؟ لكن فكر في الفوائد أيضاً، الشعور بالطمأنينة والهدوء، كما سيكون باستطاعتك مشاهدة مباراة البيسبول دون إزعاج من أحد إذا كان الطفلان مستغرقين في نوم مطبق.

من المؤكد أنك لو كنت مكاني فإنك لن تفعل ذلك؛ لأنه لا ينقصك شيء سوى عودة زوجتك إلى المنزل لتجد طفلها الصغير مدمناً على الكحول؛ لذا يمكنك أن تصنع معروفاً مع نفسك وأن تتفادى الإغراء بإزالة السبب، واحرص على فعل ذلك قبل البدء برمي الكرة الأولى في المباراة.

5-لا تجلب إلى المنزل قطعة واحدة من أي شيء.

حصل ذلك معي عن غير قصد، فعندما كنت أمشي بالقرب من متجر للألعاب ودون أي نية مسبقة لشراء أي شيء لفت انتباهي كليفورد الضخم، وهو كلب أحمر كبير يظهر في برامج الأطفال أحبته ابنتي كثيراً، كما أن غرفتها مليئة بصور هذا النوع من الكلاب وكل الكلاب الأخرى التي تظهر معه في البرنامج بالطبع أعرف أسماءها: تي بون ـ كليو ـ ماك.

لقد قام ابني في الليلة الماضية ولأول مرة في حياته بمشاهدة فيلم فيديو لـ كليفورد، لذا خطر لي عندما كنت على مقربة من محل الألعاب أنّه ربما يحب اقتناء دمية كلبٍ صغير حاله كحال أخته، فدخلت المتجر وسألت: «كم ثمن ذلك الكلب الصغير المعروض في واجهة المحل؟».

(إلاّ أنَّ بائعة المحل لم تبدِ اهتمامها، حتى إنها لم تكن تعرف أيّ كلب هو كليفورد وكان عليّ أن أشرح لها أنَّ كليفورد هو ذلك الكلب الأحمر الكبير، ولهذا السبب أسميه «كليفورد الكلب الأحمر الكبير»).

وعندما أحضرت تلك اللعبة الضخمة إلى منزلي، كنت متلهفاً لتقديمها له، حتى إنني طلبت من ابنتي أن تساعدني في ذلك؛ لأنني اعتقدت أنها ستشعر بالبهجة لدى رؤية أخيها الصغير وهو يحصل على أول كليفورد له.

عندما أقرأ تلك الكلمات أدرك مدى سذاجتها، لكن في الوقت نفسه لم أتوقع مواجهة أي مشكلة إلى أن اغرورقت عيناها البنيتان الكبيرتان بالدموع وسألتني: هل أحضرت لي أيضاً واحداً مثله؟».

آه ـ أوه وأجبتها: «كلا ياحبيبتي، فأنتِ لديك الكثير من هذه الألعاب وقد ظننت أنَّ حصول أخيك على واحد منها سيكون أمراً جيداً؛ لأنه يريد أن يكون كأخته الكبيرة».

«لقد اشتريت له كليفورد، ولكنك لم تشترِ لي شيئاً؟».

عندما قالت لي ذلك بهذه الطريقة بدا الأمر مختلفاً تماماً عما كان يدور في ذهني، وشعرت برغبةٍ في إخبارها أنَّ والدها كان عاجزاً عن التفكير في حينها وأنه مشغول جداً، فنتائج تصنيف البرامج بحسب شعبيتها ستعلن في الأسبوع المقبل وأنَّ والدها يتعرض لضغط كبير قد يودي بحياته، وعلاوةً على ذلك فالأم غائبة عن المنزل طوال الأسبوع اللعين، لكن ابنتي ما زالت في الرابعة من عمرها فقط وذلك لن يعني لها شيئاً. فحاولت جاهداً إقناعها وقلت:

«حبيبتي، لديك الكثير من كلاب كليفورد».

«ليس مثل هذا الكلب».

«حبيبتي، إنها جميعها متشابهة».

قالت: «كلا إنها ليست متشابهة، فهذا الكلب له آذان وعظمة في الفم

إنها تذكرني بأمها كل يوم.

حسناً، الآن كلا الطفلين نائمان، فالصغير موجود في سريره مع كلبه الجديد والصغيرة نائمة في غرفتها المليئة بالملصقات التي قامت بوضعها على الجدران، وقد تركتها تفعل ذلك؛ لأهدئ من روعها وأكفكف دموعها، إنني سأواجه وقتاً عصيباً عندما أخبر زوجتي بما حدث، فأنا أتوقع عودتها في أي لحظة، لكن لا بأس.

ذهبت اليوم لرؤية الدكتورة غراي بعد انقطاع دام لأكثر من سنة، وأخبرتها أنني عدت للكتابة مرّة ثانية، وأنني على وشك أن أفقد صوابي نتيجة الضغط الذي أعانيه من أولادي وعملي معاً.

لقد أخبرتني الدكتورة غراي أنّ هذا الأمر طبيعي فجميع الناس يشعرون على هذا النحو، وبعدها توقفت عن الكلام.

كانت تتوقع مني أن أقول شيئاً، لكن ما الذي كان بإمكاني قوله؟ هل من المفروض أن أشكرها على قولها لي: إنَّ المشكلات التي أعاني منها ليست فريدة؟. في الحقيقة، لا أعرف ما إذا كان ذلك سيشعرني بحالٍ أفضل أم أسوأ، فربما سأشعر بأنني حققت شيئاً، إذا ما صرت حزيناً.

وعندما عاودت الكلام، وجدت نفسي أتحدث عن شيء مختلف تماماً.

«أظن أيتها الطبيبة، أن ليس هناك في العالم ما هو أفضل من الآمال المتواضعة».

فسألتني: «وما علاقة ذلك بما كنّا نتكلّم عنه يا مايكل؟».

أليس من واجبها معرفة ذلك؟ إنه لأمر سيئ أن تخطر مثل هذه السخافات في بالي، ألا يستطيع أحد آخر اكتشاف مصدر هذه السخافات؟ فأنا بالكاد أستطيع التعامل معها عندما تخطر لي.

فقالت الدكتورة: «أخبرني عن الآمال».

فقلت لها: «حسناً، يبدو لي إلى حد ما أنَّ الحياة تتعلق بشكل كبير بآمالك، فمثلاً لو أخذنا فكرة الكأس الذي يكون نصفه فارغاً أو نصفه مملوءاً، إنَّ الشخص الذي لديه آمال كبيرة ـ ويعد ذلك أمراً سيئاً ـ ينظر إلى النصف المملوء، أما الشخص الذي تكون آماله متواضعة، ينظر إلى النصف الفارغ منه، فالأمر مازال يتعلق بالطريقة التي تنظرين فيها إلى الكأس، لكن الجميع يعدون النصف المملوء هو خيارهم المفضّل، وما أفكر فيه هو أنّ الإنسان الذي يكون قانعاً بنصف كأس سيكون أكثر سعادة.

فسألتني: «وهل تفضّل النظر إلى النصف المملوء أم النصف الفارغ؟».

«أعتقد أنه مازال لدي في الكأس ما يشبه الرشفة».

فأجابته: «إذاً أظن أنّه من الحكمة أن تشعر بالرضا لوجود رشفة في كأسك».

فقلت لها: «هذا ما أظنه، ولكن كيف يمكنني القيام بذلك؟».

«هذا بالضبط ما نحاول اكتشافه».

وأخذت تخبرني أنّ مفتاح السعادة هو شعورك بالسعادة وعندما سألتها كيف يمكنني فعل ذلك، أقرّت بأنها لا تعرف. إذن لماذا أنا جالس هنا؟

قالت لي وأنا أستعد للمغادرة: «دعني أطرح عليك سؤالاً، هل هناك من شيء يجلب لك السعادة، ما أعنيه ما يجعلك تشعر بالسعادة الحقيقية عندما تفكر فيه؟».

«لا أعلم».

فقالت: «فكّر ملياً».

وها أنا أفكّر في الأمر.

حتى الآن لم يأتِ في بالي سوى شيء واحد، وهو قصة ولادة ابني، فقد كان حدث ولادته استثنائياً على الرغم من عدم وجود أي شيء غير طبيعي فيما يتعلق بعملية الولادة نفسها، لكن الغريب في الأمر أنَّ من أعلن نبأ ولادته للعائلة كان سباكاً.

سأخبرك عن ذلك في غضون دقيقة، لكن لكي تتضح لك الأمور أكثر لابدّ أولاً من إخبارك أنّ زوجتي لم تكن في يوم من الأيام معجبة بي، وهذا شيء تقبلته برحابة صدر، وأظن أنّ مشاعرها هذه لم تتغير نحوي منذ لقائنا الأول، وهو اليوم الذي قمنا فيه «بإطعام الأغنياء».

كنت في مدينة شيكاغو، حيث كان يعيش كلانا، وقد تعرفنا على بعضنا وتحدثنا قليلاً ثم طلبت منها مشاركتي في عمل خيري، وكان ذلك قبيل عيد الشكر الذي يقوم فيه بعض المشاهير بتوزيع وجبات عشاء على العائلات الفقيرة، فقد ظننت أنّ ذلك سيجعلني أبدو إنساناً خيّراً في نظرها، كما أنني أنجذب إلى أي شيء يجعل اسمي مقترناً بعبارة شخصية شهيرة.

وهكذا قمنا في اليوم الذي يسبق عيد الشكر بوضع الكثير من الأطعمة في سيارتي مثل الديك الرومي والحساء والبطاطا المهروسة وصلصة اللحم وصلصة التوت البري والفاصولياء الخضراء وخبز الذرة وحلوى اليقطين، بالإضافة إلى حصولنا على عنوان في حي مجهول من البلدة. إنني أتذكر ذلك وكأنه يحصل معي الآن، فقد ارتدت زوجتي كنزة صوفية بنية اللون ووضعت عطراً مازالت تستخدمه حتى اليوم.

لقد سار كل شيء على ما يرام إلى أن وصلنا إلى المبنى الذي تقطن فيه العائلة الفقيرة، كنت أتوقع أن أرى مبنى بائساً كئيباً، لكن بدلاً من ذلك وجدت مبنى يحرسه بواب.

فسألت زوجتي: «كيف يمكن لشخصٍ يقطن في مبنى كهذا أن يقبل تقديم عشاء عيد الشكر؟».

لكن زوجتي لم تتفوه بكلمة، بل نظرت إليّ بارتياب.

وبعدها ذهبنا إلى البواب وعلمنا منه أن شقة العائلة التي نقصدها موجودة في أحد الأدوار العلوية، وما لفت انتباهي لدى ركوبنا المصعد هو وجود سجادات نظيفة فيه وملاحظة تلفت انتباه السكان إلى موعد الحفلة. (ومن الجدير بالذكر أنَّ المبنى الذي نشأت فيه لم يكن أفضل حالاً من هذا).

لقد اكتشفنا لدى دخولنا الشقة أنها ليست سيئة على الرغم من عدم وجود مظاهر الترف فيها، الأثاث قديم لكنه نظيف، كما سمعنا صوت بكاء طفل، الأمر الذي فسرته على أنه دليل فقر. (إذا كان بكاء الطفل دليل فقر، فهذا يعني أن المنزل الذي أقطنه الآن آيل للسقوط).

رحبت بنا ربة المنزل وقالت: «شكراً على حضوركم، لقد كان أسبوعا عصيباً».

فسألتها: «لماذا؟».

«لقد تعطلت القنوات المشفرة لدينا، وزوجي سينزعج كثيراً إن لم يتمكن من مشاهدة مباراة كرة القدم».

إنه أمر غير معقول.

قلت لها: «حسناً، آمل أن ينال العشاء إعجابكم، كل عام وأنتم بخير».

فأجابت: «شكراً، ليبارككم الله».

لم تتفوه زوجتي بأي كلمة إلى أن ركبنا السيارة، لكني عرفت من نظراتها أنها غير معجبة بي، وقد أصبحت تلك النظرات مألوفة لديّ منذ ذلك الحين.

فسألتها: «ما رأيك في ذلك؟».

قالت: «لم أتوقع حصول مثل هذا الأمر، فقد شعرت وكأنني متعهّدةٌ لتقديم طعام الحفلات».

هكذا بدأ الأمر، وهكذا استمر إلى يومنا هذا، ويمكنني القول: إن زوجتي لم تبدِ إعجابها بي إلا مرة واحدة فقط خلال كل تلك السنوات وقد حصل ذلك في أثناء ولادة طفلي.

لقد كان صباح يوم الثلاثاء عندما انتهيت من تقديم برنامجي وتلقيت الرسالة الصوتية الآتية:

مايكل، لقد تعطّل الصرف الصحي مرة ثانية، وهاهي القذارة تتدفق من جديد في القبو، لقد وصلت المياه القذرة إلى داخل الغسالة وأنا منزعجة جداً؛ لأن بنطالي الجديد ماركة هنري لير موجود في داخلها وهذا ليس جيداً للطفل، عليك إحضار السبَّاك حالاً، أما أنا فسأذهب إلى صالون التجميل؛ كي أقلم أظافر قدمي.

عندما عاودت الاتصال بها لأخبرها بأنني تدبرت أمر السباك، كانت زوجتي تشعر بالهدوء بعد نصف ساعة من وضع أرجلها في الماء الساخن لكنها مازالت منزعجة بشأن الصرف الصحي. وعندما كنت في طريقي إلى المنزل لملاقاة السباك، رنَّ هاتفي الخلوي. وعندما أجبت كانت زوجتي في الطرف الآخر تقول: «هناك تغيير في الخطة. فأنا في طريقي إلى المشفى». لقد كانت زوجتي على وشك الولادة في صالون التجميل فاتصلت بأخي وطلبت منه الإسراع إلى منزلي؛ ليتدبر أمر السباك. (إذ لم يكن

بمقدوري السماح لـ لورديس بفعل ذلك، فعلى الرغم من لطافتها وروعتها مع الأطفال إلا أنها لا تتكلم الإنكليزية كما ترفض الاعتراف بذلك، فهي تومئ برأسها على أي شيء تقوله لها، وإني أخشى إذا تركتها مع السباك أن أعود إلى المنزل لأراها قد وافقت عن غير قصد على العمل لديه وبذلك ستغادرنا في الصباح اللاحق).

عندما وصلت إلى غرفة الولادة لم أشعر بغرابة المكان، فقد كانت أول تجربة لي مع هذه الغرفة عندما شهدت ولادة ابنتي فيها، فقد كان هناك تسع ساعات من المخاض وخمسون دقيقة من الدفع والضغط، أما أنا فلم يكن باستطاعتي فعل أي شيء سوى تشجيع زوجتي، لكن ـ في هذه المرّة ـ شعرت لدى وصولي إلى المشفى بنوعٍ من الألفة وبعدها وصل الشخص الأكثر أهمية في هذا العالم، إنه الطبيب المخدر.

أظن أن وصول المسيح لن يكون له الأثر نفسه الذي يتركه الطبيب المخدر على امرأة حامل، فقد بدت زوجتي فرحة بقدومه كفرحة الجمهور لدى استضافة فرقة البيتلز في برنامج إيد سوليفان.

قالت زوجتي: «أيها الطبيب، إنني سعيدة جداً برؤيتك، أرجوك أن تبذل ما في وسعك، فأنا لا أريد أن أشعر بأي ألم».

ارتسمت على وجه الطبيب تلك الابتسامة التي توحي بأنه سمع من ذلك الكلام كثيراً وبعدها التفت إلي وقال آخر ما كنت أتوقع سماعه منه:

«هيه أنت غريني، إنني أستمع إلى برنامجك في كل صباح وأنا مشجع لفريق النسور».

وقبل أن أتمكن من قول أي شيء قالت زوجتي: «باستطاعة مايكل أن يدعوك لحضور أي مباراة لفريق النسور، كما أنه سيأخذك في جولة إلى الإستديو إذا رغبت في ذلك. هل ترغب في مقابلة تشاد بينينغتون، ثم رمقتني بتلك النظرة التي تقول: «إذا لم تستخدم قدراتك السحرية الآن، فعليك أن تنسى أننا متزوجان بعد الآن». وهنا قلت للطبيب: «إذاً هل تظن أننا سنصل إلى دوري الأقوياء في السنة المقبلة؟»، وفي تلك اللحظة تلقّى الطبيب مكالمة هاتفية، ولم يكن بعد قد قام بإعطاء إبرة المخدر لزوجتي. (في أثناء ولادتها الأولى شعرت بالغثيان لدى إعطائها تلك الإبرة؛ لذا خرجت من الغرفة، لكنني الآن أخشى أن تخنقني بحبلها السري إذا ما حاولت فعل ذلك). وعندما ذهب الطبيب لإسعاف حالة طارئة واعداً إيانا بالعودة سريعاً أمسكت زوجتي بقبة قميصي وقالت: «عليك أن تعده بفعل أي شيء يريده، هل تفهم ما أقوله لك؟ أخبره أن بإمكانه الحصول على بطاقاتك الفصلية إذا رغب في ذلك».

«سأبذل ما في وسعي».

فقالت: «عليك أن تجعله يتكلم ويبقى في الغرفة».

وعندما عاد الطبيب، أخذت أحدثه عن تاريخ نادي النسور، سنة بسنة بينما كان هو يحضّر المخدر لزوجتي، وعندما انتهى من إعطائها الإبرة، جلس على كرسي وأخذ يناقشني لأكثر من نصف ساعة إلى أن أتت إحدى الممرضات وأخبرته أنهم بحاجة ماسّة إليه.

وقال قبل أن يغادر الغرفة: «لا بدّ أنك تشعرين بالراحة الآن، وبالفعل ظهر ذلك جلياً على وجهها، ثم أضاف: «سأحاول الإسراع في العودة إلى هنا قدر المستطاع».

عندما غادر الطبيب الغرفة وقفت بجوارها، فأخذت يدي في يدها وشدّت عليها، لقد ارتسم انطباع على وجهها لم أعهده من قبل ولم أره بعد ذلك إلا أنني أتذكره جيداً.

هذا هو الشيء الوحيد الذي يشعرني بالسعادة طوال الوقت، أو على الأقل هو الشيء الوحيد الذي أستطيع التفكير فيه في هذه اللحظة، لا بدّ أن أطلع الدكتورة غراي على هذا الأمر في الأسبوع المقبل.

وبينما كانت أيدينا متشابكة، رنَّ هاتفي الخلوي فقد اتصل السباك؛ ليخبرني أن شبكة الصرف الصحي في المنزل تالفة تماماً وبحاجة إلى تبديل، عندها ابتعدت عن سرير زوجتي وقلت له: «كم سيكلفني ذلك؟».

فقال السباك: «لا أعرف».

«وكم سيستغرق ذلك من الوقت؟».

«ليس لدي فكرة».

«حسناً، هل يمكنك أن تتحرى الأمر وتتصل بي بأسرع وقت ممكن؟ فأنا الآن موجود في المستشفى أنتظر قدوم مولودي الجديد».

«سأحاول الاتصال بك سريعاً».

وبعد ساعتين سمعت الطبيب يقول لزوجتي: «شارف الأمر على الانتهاء كل ما احتاجه منك أن تضغطي ضغطة واحدة».

ولم تمض سوى لحظات حتى أبصر طفلي النور وبعد أقل من خمس ثوان، رنَّ هاتفي الخلوي، في الحقيقة ما كنت لأجيب عليه لولا حاجتي للمياه لدى وصول طفلي إلى المنزل.

لقد قال السباك: «سيد غريني يمكنني الانتهاء من إصلاح شبكة الصرف الصحي مع نهاية الأسبوع لكن سيكلفك ذلك اثني عشر ألف دولار».

فقلت له: «فلتفعل ذلك بأقصى سرعة ممكنة».

فقال: «حسناً».

«هل ما زال أخي موجوداً هناك؟».

«نعم، ووالدك أيضاً موجودان هنا».

قلت وأنا أراقب الممرضة وهي تضع طفلي على صدر أمه للمرة الأولى: «عظيم، أخبرهم أنه صبي».

يمكنني إخبارك أن أبرع الخطط ستفشل عندما يتدخل فيها الأغنياء، لقد كانت هذه الحادثة هي الأسوأ في تاريخ القباحة والحوادث الاجتماعية المخجلة، وإليك ما حدث، لقد تمت دعوتي للتكلّم في حفل عشاء خاص بتكريم مجموعة من المحاسبين المتقاعدين، وبما أنَّ الجو كان مائلاً إلى البرودة وبما أننا أنا وزوجتي لم نُترك وحدنا ولو لعشر ثوان منذ ولادة طفلنا، قررتْ زوجتي المجيء معي، وأطلقنا على ذلك اسم إجازة قصيرة.

وبعدها حصل معنا شيء جيد فقد أفصحنا عن نوايانا أمام العائلة الثرية المجاورة لنا مما جعلهم يعرضون علينا الذهاب برفقتهم على متن طائرتهم الخاصة، وفي الحقيقة ليس هناك ما هو أفضل من الطيران على متن طائرة خاصة.

إذ ليس عليك الانتظار في صف طويل، كما أنك لن تواجه أي إزعاجات، أما بالنسبة لإقلاع الطائرة فهو في أي وقت تريده إذ تتوجه مباشرة إلى الطائرة ويقوم أحدهم بأخذ حقائبك ومرافقتك إلى داخل الطائرة، ثم تجد نفسك جالساً على كرسي من الجلد يمكنك الاستلقاء عليه تماماً.

أمّا بالنسبة للأفلام فهناك كل ما ترغب فيه، كما توجد كل أصناف الطعام التي تريدها، ويمكنك التحكم بالإضاءة في الشكل الذي ترغبه.

في الواقع عندما أعلن الطيار أننا على وشك الهبوط في مطار فورت لوديرديل طلبت منه مواصلة الطيران، وبالمناسبة إنَّ الإعلان عن بدء الهبوط مختلف قليلاً عن المعتاد، فقد فتح الطيار باب قمرة القيادة ومشى نحونا قائلاً: «لقد بدأنا الهبوط في مطار فورت لوديرديل».

لقد كان كل شيءٍ رائعاً، لا بل أكثر من رائع لقد كان مذهلاً.

ثم وصلنا إلى الفندق حيث تعّرف عليّ معظم العاملين فيه، وبالطبع شعرت بالسرور، ولا سيّما أنّ ذلك حدث أمام الشخص الذي أقلّني على متن طائرته الخاصة، وبعدها اتفقنا على اللقاء عند المسبح في غضون عشرين دقيقة.

كنّا ـ أنا وزوجتي ـ نسبح وننعم بأشعة الشمس الذهبية في جنوب فلوريدا عندما تقدّم جارنا الثريّ وزوجته باتجاهنا، لقد ألقيت نظرة واحدة ولم أعرف بعدها ما الذي ينبغي عليّ فعله، إذ ليس هناك مكان أستطيع الهرب إليه أو الاختباء فيه، لأنني كنت عالقاً في مياه المسبح، وهكذا تقدّم نحونا وهو يرتدي ملابس سباحة رقيقة ومعيبة (سبيدو).

في الحقيقة لا أعرف كيف أبدأ بوصف هذا المنظر المروع، لقد كان في غاية السخف، بحيث لم أستطع منع نفسي من النظر إليه، وأظن أنك فهمت إلى أين تركّز نظري وذلك لا يعود لوجود أي شيء مغرٍ فيه، بل لأنه لا يوجد رجل على وجه الأرض يمكنه ارتداء مثل هذه الملابس، على الأقل لا يليق ذلك برجل أعمال ذي كرش كبيرة ويبلغ السادسة والخمسين من عمره. أوه، هل ذكرت لك أنه يكبرني كثيراً في السن، بينما زوجته أصغر مني بسبع سنوات؟ آسف لأنني نسيت إخبارك بذلك فقد يكون منظره في ملابس السباحة تلك قد شتت انتباهي.

صاح من بعيد بصوتٍ مرتفع ودون أن يدرك الإحراج الذي كنت أشعر به: «هيه، غرينبرغ ما رأيك بتناول كأس من العصير؟» فقلت له: «إنها فكرة جيدة»، لقد أجبته بذلك ربما لأنني لم أستطع التفكير في أي شيء آخر أقوله له، كما أنني شعرت برغبةٍ مفاجئة في أن أصبح ثملاً أكثر من أي وقت مضى.

فسألني:«أي نوع من العصير تريد؟».

لقد سألني ذلك عن بعد خمسين قدم تقريباً، وبذلك لم يسمعنا من كان بيننا فحسب، بل ومن كان حولنا أيضاً، لابدَّ أنَّ امتلاكك لمليار دولار سيذهب بأي ذرة حياء قد تكون لديك، ومن الجدير بالذكر أن زوجتي لن تدعني ألبس مثل هذه الملابس حتى في المنزل ولو كنت أفوقه في الثراء.

نظرت حولي في الوقت الذي كان يسألني عن نوع العصير الذي أريده لأجد أنَّ جميع الخدم والمنقذين كانوا ينظرون إلينا تباعاً.

في الحقيقة، لم أرغب في تناول العصير مع شخص يرتدي مثل هذا الثوب، ولم أدرك فداحة الأمر إلى أن جلست بجواره وأخذت أراقبه وهو يدهن جسده بكريم يقيه من الشمس وعندما بدأت أفكّر: سيكون عليّ الجلوس هنا والتكلمّ مع هذا الرجل دون أن أضحك، لا يمكنني تصديق ذلك، وكل ما استطعت القيام به هو منع نفسي من الوقوف على الكرسي والصراخ بملء صوتي: هل أنا الشخص الوحيد الذي يرى ذلك سخيفاً ومضحكاً؟

وبعدها حصل ما هو أسوأ من ذلك، فبينما ذهبت زوجتانا للسباحة أو للتسوق، أو ما شابه، ظهرت أمامنا فجأة فتاة شقراء جميلة تعلو وجهها ابتسامة عريضة وتضع على عينيها نظارات شمسية، وقالت: «أنت هنا!».

فأجابها وهو يحاول الوقوف:«آه ياعزيزتي، إنك تبدين رائعة الجمال دعيني أعانقك».

وبعد ذلك ضمّها إليه وبدا واضحاً أنَّ تلك الفتاة لم تتجاوز الخامسة والعشرين من عمرها، وعندما بدأت الفتاة بالضحك شعرت بالاضطراب لذلك أخذت أتفحص المنطقة من حولي؛ بحثاً عن خادم في الجوار، لأقول له: «كأساً آخر من العصير!».

قال جارنا الثري: «مايكل، تعال إلى هنا، أود أن أعرّفك على ابنتي»، فوقفت وحاولت جاهداً ألا ألامس ثوب السباحة الذي يرتديه وقلت لها:«سعيد بلقائك».

فصافحتني وقالت: «سمعت الكثير عنك، أنت الشخص الذي يقدّم نشرة الأخبار الجوّية في قناة سي إن إن، أليس كذلك؟».

فقال والدها: «كلا يا عزيزتي، مايكل يقدم برنامجاً رياضياً».

«أوه، هذا صحيح، إنني معجبة جداً ببرنامجك».

فقلت لها: «شكراً لك».

ثم سألها والدها: «كيف حال أمك؟».

أجابت والتوتر واضح على وجهها: «إنها بخير».

لقد تراءى لي من الانطباع الذي ارتسم على وجهها أنَّ هذا الطلاق لم يكن سهلاً عليها. فقد تخيل لي أن لسان حالها يقول: (لقد تخلّى أبي عن أمي وتزوج بشابة تكبرني ببضع سنوات فقط، لكنه يرسل لي النقود في كل شهر لذلك سأدعه يعانقني أمام أصدقائه).

لا أعرف ما إذا كان ذلك صحيحاً، لكنني كنت ثملاً وهذا ما استطعت تخيله لو أني سألتها ما إذا كانت مستاءة من منظر والدها بتلك الملابس، ثم سألتها: «هل تعيشين بالقرب من هنا؟».

فقال والدها: «إنَّ كلير طالبة في كلية الحقوق».

قالت كلير: «في جامعة ميامي، وهذه آخر سنة لي فيها، وسوف أنتقل إلى الشمال عمّا قريب».

«إلى نيويورك؟».

قالت: «إلى تالاهاسي، فأنا لن أعود للعيش في مكان بارد وسأعمل لدى قاضٍ في المحكمة العليا في الولاية».

قلت: «هذا رائع، حسناً، سأدعكما مع بعضكما قليلاً، فأنا ذاهب للسباحة».

مررت في أثناء ذهابي إلى المسبح بالنادل الذي كان يقدّم العصير فأخذت كأساً وتناولته بسرعة ثم أعدته إليه، والحمد لله أنني عدلت عن فكرة السباحة فقد كانت مياه المسبح تتلألأ بطريقة لم أعهدها من قبل وتراءى لي أنني سأغرق لو حاولت الغطس فيه.

مشيت حول المسبح، لإضاعة الوقت وكان هناك الكثير من الفتيات الجميلات، فقد كان نصفهن مع شبان في مثل عمرهن، وبعضهن كنّ وحيدات أو مع فتيات أخريات، أمّا ما تبقّى فكن بصحبة رجال أكبر منهن سناً، ولم يكن ذلك قد استرعى انتباهي عندما وصلنا إلى المسبح.

وبعد مدة وجيزة ـ تتراوح ما بين العشر دقائق والساعة ـ عدت إلى الملياردير لأجده جالساً وحده وهو يلبس ذلك السبيدو.

قال لي: «لقد عادت زوجتانا، وأقنعتا كلير بالذهاب معهما إلى جلسة تقليم أظافر اليدين (مانيكور)، ثم أضاف: «آمل ألا يكون لديك مانع، فقد دعوناها للانضمام إلينا الليلة».

قلت له: «ليس لدي مانع ما الذي سنفعله الليلة؟».

فقال لي:«عليك التكلم في حفل تكريم المحاسبين المتقاعدين».

هذا صحيح ـ المحاسبين! إنني فعلاً بحاجة لأن أصحو من تأثير ذلك الشراب، لذا ظننت أنَّ أخذ قيلولة قد يكون مجدياً، فارتميت على كرسي المسبح وأغلقت عيني وقلت له: «لم أعرف أنك كنت متزوجاً من قبل».

فقال: «أوه، نعم، لقد تزوجت مدة سبع عشرة سنة».

«وما الذي حصل؟».

فقال لي: «إنَّ الناس يتغيرون على مرّ الأيام».

«نعم».

تابع قائلاً: «إنَّ كلير هي ابنة رائعة، وأنا لست نادماً على ذلك الزواج؛ لأنه منحني كلير».

فقلت له: «ولكن لابدّ أن يكون الأمر مختلفاً عندما تقوم به للمرّة الثانية بعد كل تلك السنوات».

«هل تقصد إنجاب الأطفال؟».

«نعم».

قال: «حسناً، لقد أرادت إيمي ذلك بشدّة لكن سأخبرك شيئاً وهو أنني هذه المرة لم أقم بتبديل أي حفاظة لصغاري، لا أدري ما إذا كنت تفهم قصدي».

«إنني أفهمك».

وفي تلك الأثناء غالبني النعاس.

وعندما استيقظت شعرت بثقل في لساني ورأسي وكأنني تعرضت لضرب مبرح، ليس هناك أسوأ من النوم تحت أشعة الشمس، ومع ذلك شعرت بالراحة لعدم وجود أحد حولي وأظن أنني لو رأيت السيّد الملياردير في تلك اللحظة وهو يرتدي السبيدو لكنت قد تقيأت على الفور.

بعدها ذهبت إلى غرفتي وملأت دلواً بالماء البارد ثم أدخلت رأسي فيه، (أظن أنني سأكون قادراً على التكلم الليلة مع أنني ما زلت أشعر بصداع في رأسي وهذا ما يشعرني بالانزعاج، كما أنني كلمّا فكرت في الحديث الذي دار بيننا عند المسبح، كلمّا شعرت بالانزعاج أكثر).

(لم أقم بتبديل أي حفاظة لصغاري).

حسناً، ألا يبدو ذلك غريباً؟ أليست تلك هي النقطة الأساسية؟ إنك في سن يفترض فيه أن تكون ابنتك في كلية الحقوق وليس في الحضانة، كما أنك في سن من الطبيعي فيه أن تفخر بممتلكاتك، لكن الأطفال لا يصنّفون ضمن هذه الممتلكات.

دعني أوضح لك مشاعري، فلو أنك قدمتني إلى كل من زوجتك وابنتك، فلن يكون علي السؤال من هي زوجتك ومن هي ابنتك وإذا لم أتمكن من التمييز بينهما مباشرة، فلا بدّ أن تكون ذلك الفاسق الأحمق الذي فضّل شراء سيارة رياضية على تناول بقايا طعام ابنه.

إن زوجته الجميلة والصغيرة سناً تبدو أشبه بالغانية، فهي فتاة شقراء تهوى المال وتحمل في كتفها حقيبة حفاظات ماركة غوتشي، إنها ستشتكي في غضون عشرين سنة ـ عندما يكون زوجها قد مات ـ من أولئك الرجال الذين يتزوجون نساءً في عمر ابنتها.

ومع ذلك كلّه، من أنا كي أحاكم الناس؟ فعلى الرغم من أنه لم تعد تفصلني سوى ساعة واحدة عن موعد إلقاء كلمتي أمام المحاسبين، هأنذا أغمر رأسي في دلو من المياه الباردة؛ كي أصحو من تأثير الدهشة الذي من ذلك الرجل الذي يرتدي ثوب سباحة معيب، فأنا لست ملاكاً، كما

أنّه لا يحق لي أن أخبر الناس كيف عليهم أن يعيشوا حياتهم، لكن أكثر ما يزعجني هو التبرير، فأنا آمل لو أنّ هذا الرجل أدرك حقيقته بدلاً من خداعه لنفسه ،فهو يعتقدأنً بإمكانه أن يكون أباً جيداً مرة ثانية، وإنّه رجل جذاب ومثير، إنه لن يستطيع خداعي أو خداع أحد آخر، فنحن جميعاً نراه على حقيقته.

الآن، أعتذر منكم، فأنا أظن أنني سأتقيأ.

اليوم اللاحق (مازلنا في ميامي)

على الرغم من كل شيء، سارت الأمور على ما يرام، (وما أعنيه بذلك هو أنني تقيأت مرتين قبل إلقائي للكلمة وعندما دخل الملياردير إلى غرفتي لم أستطع منع نفسي من التفكير في ثوب السباحة المعيب الذي كان يرتديه عند المسبح مما جعلني أتقيأ مرتين إضافيتين).

بشكل عام، بدا جمهور المحاسبين معجباً بي وضحكوا من النكات التي ألقيتها عليهم، وبعد ذلك، تناولنا العشاء مع العائلة الثرية، ثم نمت جيداً مما جعلني أسترد عافيتي بسرعة.

وبعد ذلك ذهبت مع زوجتي للتسوق، ووقعت في مأزق أسوأ بكثير من مأزق الملياردير ،وبما أنَّ الأمر لم ينته بشكل سيئ خرجت منه سالماً ـ فهذا يعني أنني أتعلّم جيداً من تجاربي السابقة أو ربّما أكون محظوظاًجداً، وفي كلتا الحالتين، يمكنني القول: «إنها كانت حادثة مثيرة وشيقّة».

لقد حدث ذلك في محل تجاري يقع في أحد الفنادق المطلّة على الشاطئ الجنوبي، والغريب أنَّ ذلك حدث في محل (سكوب)، فهو المحل الذي غالباً ما أشتكي من مقاعده غير المريحة.

كنت أتسوق مع زوجتي كالمعتاد، فأنا أستمتع بشراء الملابس ولكنني لا أحب إعادتها إلى المحل، فزوجتي تبدي عدم استحسانها للقميص الذي أشتريه حتى قبل أن أدفع ثمنه، ومن مساوئ التسوق مع زوجتي هو حبها للتسوّق كعملية بحد ذاته، وهنا يكمن الفرق بيننا، فأنا أحب الشراء فقط، إذ أدخل المحل لغاية معينة: فأجرّب بعض الأشياء وأتخذ قراري وينتهي كل شيء، إني قادر على إنجاز عملية التسوق في غضون ثلاثين دقيقة، أمّا بالنسبة لزوجتي فإنَّ مدة ثلاثين دقيقة لا تكفيها حتى لإزالة حمّالة الملابس من القطعة، فهي تأخذ وقتها عندما تتسوق وهذا جعلني أصنف المحلات التجارية بالاستناد إلى ثلاثة أمور:

1-مجموعة الملابس المعروضة في المحل.

2-الخدمة.

3-المقاعد.

إذا كنت تظن أنني أبالغ في أهمية مقاعد الجلوس في المحلات، فأنت حتماً لم تختبر التسوق مع زوجتي، فقد أبقى جالساً في بعض الأحيان لأكثر من ساعتين حتى تُنهي تسوقها، ولهذا السبب أفضّل المراكز التجارية على المحلّات العادية، فمثلاً يتوافر مطعم وأجهزة تلفزة ومواد كثيرة للقراء في مركز التسوّق نيمان ماركوس، في حين أنَّ أحدث بوتيك في فندق سوهو لا يوجد فيه سوى مقعد خشبي وأزياء كانت دارجة منذ سنتين، هذا إذا حالفك الحظ.

أظن أنني بدأت أحكم على المحلات التجارية استناداً إلى المتعة والتسلية التي يمكنك الحصول عليها عندما لا تكون أنت من يتسوق، فأنا مثلاً أحبُّ متجر برادا في الجادة الخامسة؛ لأنه يحتوي على مصعد زجاجي وتقدّم

فيه المشروبات، بالإضافة إلى الخدمة الممتازة فيه في الحقيقة، إنَّ أكثر ما أفضله في ولاية هو محل ميتشيلز حيث الخدمة فيه ذاتية، إذ يمكنك الحصول على القهوة والخبز. كما يوجد فيه كراسٍ مريحة وأجهزة تلفزة، وهكذا باستطاعتك قضاء وقت ما بعد الظهر فيه، وأنا أقول ذلك استناداً إلى تجربتي الشخصية.

أمّا بالنسبة لمحل سكوب فهو لا يروق لي كثيراً، والسبب الوحيد في ذلك هو عدم وجود مقاعد مريحة، أما فيما عدا ذلك فيبدو كل شيء فيه رائعاً حقّاً، فأنا أحب الملابس التي يعرضونها والخدمة التي يقدمونها، لكن عندما تبدأ زوجتي بالثرثرة مع البائعة بشأن ملابس سارة جيسيكا باركر أشعر بأنني هالك لا محالة؛ لأنه لا يوجد مكان مريح يمكنني الجلوس فيه.

عندما دخلنا إليه بعد ظهر هذا اليوم، لمتُ نفسي كثيراً؛ لأنني نسيت إحضار كتاب معي، وبعد ساعة من الوقت قمت خلالها بانتقاء بنطال بني مضلّع وكنزة صوفية ماركة جيمس بيرس وحزام من الجلد ماركة جون فارفاتوس أخذت بمعاينة تلك الكراسي الخشبية القاسية وأخذت أندب حظي؛ لأنَّ زوجتي لم تكن بعد قد بدأت بانتقاء أغراضها، لقد عرفت ذلك من خلال ابتسامتها، فهي تصبح جديّة عندما تبدأ بالتسوق.

وهكذا أخذت أقلّب في بعض المجلات، ثم أخذت واحدة منها تحمل عنوان الإثارة، وهي مجلة تقدّم نصائح حول كيفية الحصول على اللذة الحقيقية. لقد كنت منهمكاً في قراءة ذلك الموضوع لدرجةٍ لم تجعلني

ألحظ الشخص الذي كان خارجاً من غرفة تبديل الملابس، فقد واصلت قراءة المجلّة في الوقت الذي أخذت فيه إحدى السيّدات بالنظر إلى نفسها في المرآة التي كانت بجواري، وأخيراً شعرت برغبة في النظر إلى تلك السيدّة، ويا للروعة إنها ليست امرأة عادية، فقد كانت إيل ماكفرسون!

لقد كانت على بعد خطوات مني وظننت أنها قد تأخذ رأيي في بنطال الجينز الذي كانت تقيسه، وأنا سعيد لأنها لم تفعل ذلك؛ لأنني واثق من أنَّ ردّة فعلي ستكون بلهاء، جلست مندهشاً وفمي مفتوح وأخذت أراقبها وهي تمشي على مهل إلى غرفة تبديل الملابس، فليحرسها الله على ذلك، ثم نظرت حولي لأرى ما إذا كان هناك أحد غيري قد رآها، فهذا الحدث جدير بأن يراه الآخرون؛ لذلك لا بدّ أن يكون هناك شخص آخر قد رآها. وبالطبع كان هناك أحدهم.

«يمكنك الآن أن تغلق فمك».

سأترك لك معرفة من قال ذلك، لقد أخذ العرق يتصبب مني حتى قبل أن تطرح عليّ سؤالها الآتي:

«هل تظن أنّها على هذا القدر من الجمال؟».

لم أستطع التفكير سوى في جوابين اثنين، فإمّا أن أقول الصراحة: «أوه، يا إلهي، إنّها ليست كائناً بشرياً، أظنها جاءت من كوكب آخر فيه الهندسة الوراثية كاملة ومتكاملة».

أو أقول الكذب: «ليست جميلة جداً». لم أرَ الخلاص في أيّ من الجوابين، لذلك اتخذت قراراً سريعاً بأن تتراوح إجابتي ما بين الجوابين السابقين، فقلت:

«نعم، إنها جميلة، لكن ليست كما تظهر في المجلات، فطريقة العرض فيها تجعل حتّى الفتاة العادية عارضة أزياء».

فقالت زوجتي باستهجان: «أعتقد أنها جميلة»، ثم تجاهلتْ الأمر.

أعرف أنَّ الأمر لن ينتهي عند هذا الحدّ؛ لذا بقيتُ طوال طريق عودتنا إلى المنزل متأهباً لمعالجة الموضوع بطريقة لبقة إذا تطرقتْ إليه مرة ثانية، لكن ذلك لم يحدث.

في الحقيقة، مضت عشر ساعات على ذلك وهي لم تفاتحني في الموضوع حتى الآن، ربّما تكون قد نسيته، أو ربّما أكون قد تعلمت شيئاً جديداً وهو أنَّ أفضل الأجوبة على الأسئلة الصعبة هو قول الحقيقة ولا شيء سوى الحقيقة، فليس هناك داع للتفسير أو التبرير، فكلّما كنت أكثر صراحة، كلّما قلّت الإنتقادات الموجهة إليك، ما رأيك بذلك؟ أظن أنني أحرز تقدماً ملحوظاً فقد كان هذا اليوم رائعاً، لأنني تمكنت فيه من شراء بعض الملابس الجميلة من متجر سكوب وحدقت دون حياء بعارضة أزياء من مسافة قريبة ولم يترتب على ذلك عواقب وخيمة، وأخيراً تعلمت خمس عشرة طريقة للحصول على اللذة الحقيقية، ما الذي يمكن أن يتمناه المرء أكثر من ذلك في يوم واحد؟.

إنها المرة الأولى ـ منذ أربع سنوات ـ التي يقوم فيها ابن أخي إدغار بقضاء عطلة نهاية الأسبوع معنا، لكن في هذه المرة كانت النتائج مختلفة تماماً، فالشيء الوحيد الذي أتذكره من زيارته السابقة هو تلك الرائحة

النتنة، وأنا سعيد؛ لأن تلك الروائح الكريهة لم تعد تنبعث منه، كما أنه أصبح هادئاً بشكل ملفت للنظر، حتى إنَّه شعر بالتعب عندما لعب مع أولادي بعد ظهر يوم السبت، أمّا يوم الأحد فقد قضاه معي، إذ كانت الغاية الرئيسة من الزيارة هي أخذه لحضور مباراة في كرة القدم.

كان من المفروض قيام والده بذلك ولكنه انشغل فجأة إذ كان عليه الطيران إلى هونغ كونغ ـ أوبورترتلاند، لم أعد أذكر أي بلد ـ وطلب مني أن أنوب عنه في هذه المهمة التي كنت سعيداً جداً بالقيام بها، فأنا الآن أستمتع بقضاء الوقت مع إدغار، ربّما لأنه يعرف عن الرياضة أكثر مما أعرفه برغم أنّه لم يتجاوز السادسة من عمره.

إنَّ هذا الطفل مذهل، وعندما يتعلق الأمر بالرياضة يصبح معجزة حقيقية، وأنا لست واثقاً من وجود اختبارات لمثل هذا النوع من المعرفة ولكن في حال وجودها فإنَّ إدغار سيفوق جميع أقرانه في الذكاء، لقد اكتشفت هذا الأمر مساء الجمعة واكتشفت أيضاً أنَّ باستطاعته القراءة، وفي الحقيقة إنني أجهل تماماً قدرات الأطفال الذين يكبرون أولادي سناً، إذ لم يخطر في بالي أبداً أنَّ بإمكان طفل في السادسة من عمره أن يقرأ، بينما كنت أظن أنني سأشعر بالرضا لمجرد أنّه قادر على مسح مؤخرته وحده. قال لي عندما كنّا جالسين أمام التلفاز نشاهد برنامج مركز الرياضة: «عميّ مايك، إنَّ اللاعب ليبرون جيمز سيلعب للمرّة الأولى في بطولة إن بي إي NBA ضد فريق ملوك ساكرمينتو».

لقد كانت الصورة الظاهرة على شاشة التلفاز هي لمباراة كرة بيسبول وليس كرة سلة، فهم لم يتكلموا عن ليبرون جيمز إطلاقاً، إذن ما الذي جعل إدغار يقول ذلك؟

لقد حُلّ اللغز عندما نظرت إلى الشريط الإخباري الموجود في أسفل الشاشة ووجدت أنهم يعلنون عن الظهور الوشيك لهذا اللاعب الأسطوري في بطولة إن بي إي.

فسألت إدغار: «هل قرأت ذلك عن التلفاز؟».

«نعم».

«منذ متى وأنت تستطيع القراءة؟».

«منذ زمن بعيد».

«يعني منذ متى؟».

«أظن منذ أسبوعين على الأقل».

قلت له: «فهمت، هل يمكنك قراءة تلك الكلمات الظاهرة على الشاشة الآن؟».

فقال: «لقد عزم توماس على العودة إلى فريق وايت سوكس في عام 2004».

«هذا صحيح، ما الذي يمكنك قراءته أيضاً؟».

«لا أعرف».

لقد كان ذلك مذهلاً، ثم أمسكت بنسخة من جريدة نيوزويك وأشرت إلى العنوان الرئيس في الصفحة الأولى وسألته: «ماذا يقولون في هذا المقال؟».

«لا أعرف».

دخلت والدته إلى الغرفة في هذه الأثناء ولاحظت ما كان يجري بيننا فقالت: «إنه يقرأ الأخبار الرياضية فقط».

«ماذا؟».

«إنه يقرأ الأشياء التي تتعلق بالرياضة فقط». ثم أضافت «لاحظ هذا»، وأخذت جريدة وفتحت على الصفحة الأولى حيث كان فيها صورة لشخص غير رياضي وقالت: «إدغار، ماذا يقولون هنا؟».

«لا أعرف يا أمي».

ثم قلبت إلى الصفحة الثانية حيث كانت هناك صورة للاعب ديريك جيتر وسألته: «وماذا يقولون هنا؟».

أمسك إدغار بالجريدة وأخذ يقرأ لنا: «إنَّ فريق يانكز قد خسر مباراته السادسة في بطولة وورلد سيريز للبيسبول وقد مكَّن اللاعب جوش بيكيت فريقه مارلين من الفوز بنتيجة اثنين مقابل صفر، وهذا يعني خسارة فريق يانكيز أمام جمهوره، كما أنَّ اللاعب المميّز بيكيت قاد فريقه لإحراز لقب البطولة للمرة الثانية في تاريخ الفريق».

بعد ذلك التفتُّ إلى أمه وقلت لها: «هل هناك تشخيص طبي لهذه الحالة؟».

«نعم، إنّ هذه الحالة تدعى: الإعجاب الشديد بالعم مايك».

«هذا جميل، لكن أتمنى أن تخبريني بأنهّ يقرأ أشياء أخرى، أيضاً».

«بالطبع يستطيع، لكنه الآن غير راغب في ذلك».

كانت تلك آخر كلمات قالتها قبل أن تترك الطفل في رعايتنا لقضاء عطلة نهاية الأسبوع، وقد سار كل شيء على ما يرام حتى صباح الأحد، حيث ذهبنا أنا وإدغار إلى المباراة.

ربمّا كان الخطأ في اختيار المباراة، ومع ذلك فأنا لا ألقي باللوم على أخي؛ لأن معظم الناس يجدون في منافسات الفرق المحليّة إثارة ومتعة، كمّا أنّه من الصعب الحصول على بطاقات لحضور تلك المباريات، كما أتفهم رغبة أخي في أن تكون المباراة الأولى التي يحضرها ابنه مميّزة ولا تُنسى، لكن لا أحد منّا ـ بمن فيهم أنا، وتباً لي على ذلك، قد أخذ في الحسبان الجو السائد في الإستاد. لقد كانت هذه المباراة بين فريق نسور نيويورك وعمالقة نيويورك، وهما فريقان قلّما يلعبان مع بعضهما، لذلك يتم التعبير عن الغضب الدفين الذي يشعر به مشجعو كل من الفريقين تجاه الآخر بشكلٍ صاخب في المناسبات النادرة التي تجمعهما، ودون قصد وجدنا أنفسنا في تلك الأجواء.

شعرت بذلك منذ وصولنا إلى موقف السيارات، فأنا لست معتاداً على رؤية الكثير من السيارات التي تحمل ألوان الفريق الخصم، إذ نادراً ما يحصل ذلك، لكن اليوم، كان يبدو واضحاً أنَّ مشجعي كلا الفريقين متساوون من حيث العدد، فقد كان نصف الجمهور يحمل أعلاماً زرقاء ويشجع فريق العمالقة، والنصف الآخر يحمل أعلاماً خضراء ويشجع فريق النسور.

لا أريد أن أصف لك كل ما رأيته وكل ما حصل، ربما لأنني لا أحب تذكر ذلك، لكن يكفي القول: إنَّ رأس إدغار قد تبلل بالعصير حتى قبل البدء بالمباراة. (في البداية رحت أفكّر كيف سأشرح الأمر لوالديه عندما نعود إلى المنزل وتلك الرائحة تفوح منه، لكن أدركت لاحقاً أنني ربّما أقدّم لهم خدمة إن أصبح ثملاً لدرجة ينسى معها كل ما حصل في الملعب).

لقد تخليت عن عدّ المرات التي قيلت فيها كلمة (تبّاً) على بعد خمسة أقدام من حولنا وقبل بلوغ المباراة ربعها الأول، كما أنني تخليت عن محاولة تغطية أذنيه بعد مرور نصف الوقت عندما كان يندلع الشجار بين مشجعي الفريقين وكان إدغار يصاب بالذعر مما اضطرنا للمغادرة والعودة إلى المنزل قبل بدء الربع الأخير للمباراة، لكننا تركنا الملعب دون أن نعرف النتيجة، ولا يهمني معرفة ذلك، لكنني سمعت من الإذاعة أنَّ فريق العمالقة فاز بالمباراة في الوقت الإضافي.

هذه هي الحياة.

وأمّا بالنسبة لإدغار، فهو شخص مرن إلى أقصى حد مقارنةً بأقرانه، فقد بدا الانزعاج عليه عندما غادرنا الإستاد، ولكن عندما ركبنا في السيارة سرعان ما أخبرني عن المتعة التي شعر بها في المباراة، ولدى وصولنا إلى المنزل، أخذ إدغار يخبر والديه بالوقت الرائع الذي قضاه معي هناك.

لقد تركت الأمر على ما هو عليه، إذ لم أشعر بحاجة إلى الإفصاح عمّا حدث معنا هناك، فذلك ليس من مصلحته أو مصلحتي، لكنني لاحظت شيئاً مثيراً حقاً، فعندما جلس إدغار لتناول وجبة خفيفة مع

أولادي، أخذ علبة البسكويت وبدأ يقرأ: «رقائق مصنوعة من القمح غنية بالكالسيوم والألياف وبدون... آه... ثم خاطبني وهو يشير إلى العلبة: «ما هذه الكلمة هنا؟».

كانت الكلمة هي «كوليسترول»، وحاولت أن أشرحها له لكنني لم أفلح في ذلك، ربمّا لأنّه ليس لديّ فكرة عن كيفية شرح معنى هذه الكلمة، أو ربمّا لأنَّ تفكيري لم يكن منصبّاً على شرح الكلمة، إذ كل ما استطعت التفكير فيه هو مدى براعة إدغار في قراءة أشياء لا علاقة لها بالرياضة عندما يكون راغباً في ذلك.

مناجاة افتتاحية

اليوم اللاحق

إنني قادر على فهم الناس، وما أعنيه بكلمة «الناس» هو أنت والآخرون فحالكم يشبه حالي تماماً، والشيء الوحيد الذي يميّزني عنكم هو عملي في مجال الإعلام.

إنني أرغب في جعل حياتكم أفضل وربمّا تكون أنانيتي هي السبب في ذلك، فإذا كانت حياتكم أفضل، فمن البدهي أن تصبح حياتي أفضل؛ لكوني واحداً منكم.

إنني اليوم راغب في التحدث عن السُبل التي تجعل الرياضة أفضل بالنسبة للجميع، لذلك لن أتحدث عن أمور غير منطقية مثل ثمن بطاقات الدخول لحضور المباريات، فأنا أدرك رغبة الجميع بأن تصبح تلك البطاقات أرخص، لكن ذلك لن يتحقق، لذلك دعنا ننتقل إلى موضوع آخر.

دعنا نتطرق لموضوع الاختطاف، فمن الغريب أنَّ الاختطاف يُعدّ جريمة يعاقب عليها القانون، لكن التهديد بخطف فريق رياضي محترف ليس أمراً قانونياً فحسب بل أصبح أمراً عادياً. وما أريد قوله هو أنه عندما يطلب مالك أي فريق رياضي محترف من المدينة أو الولاية أن يبنوا له إستاداً جديداً، فإنّه يهددهم بنقل الفريق إلى مكان آخر إن لم ينفذوا له رغبته، وإذا فكرنا في ذلك، فهذا لايعدّ خطفاً فحسب بل ابتزازاً أيضاً، لكنه يحدث دوماً كما أنه يؤتي أكله.

إنَّ اقتراحي الأول لجعل الرياضة تبدو في حالٍ أفضل: أنّه من اليوم فصاعداً، يجب على أي شخص راغب بشراء النصيب الأكبر في أي فريق رياضي محترف أن يوقع على اتفاق يتعهد فيه أنّه لن يقوم بنقل الفريق من مكان إلى آخر إلاّ إذا أقرّ وسيطٌ حيادي بأنّه ليس هناك من مُشترٍ محلي راغب في دفع القيمة التي يستحقها الفريق.

(وإذا بدت تلك اللغة معقدة فسأكون سعيداً بذلك؛ لأنني أردتها أن تكون رسمية، وباختصار شديد، إنَّ ما أقصده هو ألا يكون باستطاعة أي مالك نقل فريق رياضي محترف من المدينة الموجود بها إلاّ إذا لم يكن في تلك المدينة من يرغب في شرائه وإبقائه فيها).

إنني أظن ذلك أمراً منطقياً وعادلاً؛ لأن امتلاك فريق رياضي أمر مختلف تماماً عن امتلاك واستثمار أي نوع آخر من الأعمال، إذ يجب أن نأخذ في الحسبان مدى اعتزاز الناس بمدينتهم وارتباطهم بها، ولهذا السبب لا أريد أن أسمع من أي مالك أنه يستثمر أمواله في شراء فريق، ربّما لأنّه استثمار سيئ، فهناك طرق لا تعدّ ولا تحصى

لاستثمار الأموال، وغالباً ما يشتري الأثرياء النوادي الرياضية؛ لأنهم يجدون المتعة عندما يتم اعتبارهم جزءاً من الرياضة، وهذا أمر جيد. لكن تلك المنزلة الرفيعة وتلك الشهرة تستلزمان الشعور بالمسؤولية، فالفريق الرياضي يستقطب اهتمام معظم الناس أكثر من أي شيء آخر، ولو أنّ الأمر عائدٌ إليّ لما كنت أمكّن المالكين من التهديد بنقل الفريق ولن يستيقظ أي طفل ليجد أنَّ فريقه المفضّل قد ترك البلد وهرب.

إنَّ ذلك يُعدّ بداية جيدة، ولديّ الكثير من الأفكار الأخرى التي ستصل إليها تباعاً مع مرور الوقت، فالأمر هنا يستلزم التحلّي بالصبر لا التهوّر والاندفاع.

سيتطلب ذلك أيضاً بعض التعاون منك، فقد قال جيري ماغواير: أريد منكم مساعدتي في مساعدتكم، وهناك طريقتان للقيام بذلك:

أولاً عليك أن تتذكر أنك لست مضطراً بصفتك مشجعاً رياضياً إلى التفريط بعقلانيتك التي ترافقك في مجالات الحياة الأخرى، فأنت مستهلك، إذن، لماذا لا تتصرّف على هذا الأساس؟ فغالباً ما تتبع فريقك إلى أي مكان يقودك إليه، غير آبه بالمتطلبات اللاعقلانية التي قد تترتب على ذلك، فأنت لن تدفع سبعة دولارات مقابل عصير تشربه في مطعم، إذن لماذا تفعل ذلك في مباراة الكرة؟ كما أنك لن تتسوق في متجر تشعر فيه بالإهانة فلماذا تقبل على نفسك تلك الوقاحة والإهانات من اللاعبين الذين أنت من يدفع لهم رواتبهم؟ هل تفهم ما أعنيه؟ إنَّ السبيل الوحيد لتستعيد الرياضة عافيتها هو عودة الرياضة إلى سابق عهدها، وهذا ما

عليك المطالبة به، وإن لم تفعل ذلك، فإنك لن تستطيع التذمر عندما تتعرض لاستغلالهم؛ لأنك عندما تسلمّ أشياءك الثمينة بمحض إرادتك إلى شخص أعزل فإن ذلك لا يعدّ سرقة.

ذلك هو الشيء الأول الذي أريده منك، أمّا الشيء الثاني فهو سهل أيضاً، إذ أريد منك أن تتذكر أنَّ الأمر لا يتعلق بك، فبصرف النظر عن مدى حبك للرياضة، وعن مغالاتك في الإعجاب بهذه المباريات واللاعبين إلاّ أنَّ الأمر لا يتعلق بك.وبصرف النظر عن التعاطف الذي تظهره تجاه فريقك أو تجاه اللاعبين فالأمر لا يتعلق بك، إنك موجود هناك للمشاهدة فقط.

إذا تذكرت ذلك جيداً، فإنك ستتوقف عن التصرّف بحماقة كما تفعل في بعض الأحيان، وإنني أرجوك أن تتوقف عن رش الكلونيا على الشبان الآخرين الذين يرتدون قمصان الفريق الخصم كما أرجو منك عدم الإسراف في تناول السوائل قبل بدء المباراة؛ كي لا تضطر لدخول الحمّام كثيراً، وتوقف عن التلفظ بكلمات بذيئة أمام الأطفال الصغار، فبالنسبة لبعضهم تعدُّ تلك مباراتهم الأولى؛ لذا لا تفسدها عليهم.

تذكرّ فقط أنَّ الأمر لا يتعلق بك، وإن كان هذا يشعرك بأنك خاسر فيجب عليك مناقشة الأمر مع طبيب نفسي أو مع رجل دين أو مع زوجتك، وتتوقف عن معاقبتنا لمجرد أنَّ حياتك فارغة.

إذا كنت ستفعل ذلك من أجلي، فالله أعلم بما يمكنني أن أفعله من أجلك؛ لأن حالي تشبه حالك في نهاية المطاف، فأنا مشجع رياضي مثلك وأحبُّ الفرق الرياضية وأحب اللاعبين وأحب مشاهدة الرياضة أكثر من أي شيءٍ آخر، لكن يمكن أن يكون الأمر أفضل وسأحاول أن أجعله أفضل، من أجلي ومن أجلك؛ لذا أرجوك أن تساعدني.

كنت اليوم على وشك الاعتقال في حمام السيّدات، وأقسم لكم أنني سأكرر ما فعلته مرة ثانية، فقد استخدمت حمام السيدات ليس من أجلي فقط، بل من أجل كل الرجال، من أجلنا نحن الذين نُعامَل بصفتنا مواطنين من الدرجة الثانية لمجردّ أننا ذكور، لقد استخدمت ذلك الحمّام: كي أنال من تلك المواقف المتحاملة علينا التي تمنعنا من أن نصبح آباءً أفضل.

لقد فعلت ذلك من أجل كلّ الرجال.

لكن قبل أن أشرح لك ذلك، يجب أولاً أن أخبرك عن تلك المرة التي ذهبت فيها إلى السينما مع صديقي أنطونيو لرؤية فيلم كان معظم الممثلين فيه من السود، وبينما كنا ننتظر الأضواء حتى تنطفئ، شعرت بالدهشة لكوني الشخص الأبيض الوحيد في الصالة، فذكرت ذلك بصوت منخفض لأنطونيو الذي ضحك بصوت عالٍ، وقال:

«يمكنك الآن أن تشعر بنا».

إنني واثق من أنّه لم يعد يتذكر ما قاله، لكنني منذ ذلك الحين أصبحت أدرك ما معنى أن يكون هناك شخص أسود واحد في مكان ما، فأنت بصفتك رجلاً أبيض قادر على قضاء معظم حياتك بين الأغلبية، وما حدث معي في صالة السينما يعدّ حالة استثنائية، كما أنَّ حياتي بصفتي أباً هي استثناء آخر.

إنَّ أعظم فائدة من تقديمي لبرنامج إذاعي صباحي هو أنني أعود إلى المنزل باكراً جداً، فالوقت الذي أقضيه مع أولادي هو أكثر بكثير من الوقت الذي يقضيه أيّ أب من الآباء الذين أعرفهم مع أبنائه، وهذا أمر رائع، لكنني غالباً ما أجد نفسي الرجل الوحيد في كل مكان أذهب إليه مما يجعلني أشعر بالاستياء.

عندما أرافق أبنائي للعب مع أقرانهم فغالباً ما أكون الأب الوحيد هناك، وعندما أذهب إلى الحديقة يكون هناك عشرون أمّاً وأنا، وفي التسّوق مئتا أمٍ وأنا، وجميعهن ينظرن إليّ باستغراب. (إنهن لا يعرفنني، إذ ليس هناك الكثير من الأمهات ممن يتابعن برنامجاً إذاعياً رياضياً مع أنني واثق من وجود برامج إذاعية أخرى تستقطب جمهور الأمهات أكثر من برنامجي بكثير، فأنا لن أنسى تلك السيدة التي طلبت توقيعي وبعدها قالت: «اعلم أنَّ زوجي وأبنائي سيكونون سعداء جداً، لكن أخبرني مرة ثانية من تكون»). وعندما تراني نساء البلدة وأنا أدفع أمامي عربة الأطفال في منتصف النهار، أرى علامات الدهشة والاستغراب بادية على وجوههم.

بصرف النظر عن الرضا الذي تشعر فيه عن نفسك إلاّ أنك لن تستطيع تجاهل ذلك، وبصرف النظر عن لطافة أبنائي وعن الرضا الذي أشعر به معهم في نهاية اليوم، إلاّ أنّه مازال هناك في داخلي مكان أصرخ فيه عالياً في كل مرة تقوم فيها امرأة بالنظر إليّ على أنني أشبه بالنساء، يمكن إدراك ذلك بسهولة.

إنكنّ لا تفهمن شيئاً! لقد أنهيت عملي لهذا اليوم! فأنا لديّ عمل! وأنا من يتسبب في إزعاجكن كل صباح؛ لأنَّ أزواجكن يجبروكن على الاستماع إليّ بدلاً من الاستماع إلى أسطوانة غوين سيتفاني!

لقد كان هذا اليوم واحداً من تلك الأيام.

كان النهار مشمساً وبارداً، لكن برودته ليست للدرجة التي تمنعني من أخذ طفلي للمشي خارج المنزل، فوضعت ابني في عربته ودفعتها أمامي إلى الشارع الرئيس، وكنت أتلمّس خدوده لأرى ما إذا كان يشعر بالبرد،

لكن لا يبدو عليه ذلك، وبعد عشرين دقيقة لاحظت أنَّ أصابعه أصبحت حمراء، فقد نسيت أن أحضر له قفازاته، لكن لا ضير في ذلك فهناك محل تجاري في نهاية الشارع اسمه جيمبوري، يمكننا شراء زوجٍ من القفازات الجميلة والمريحة منه. وفي الطريق إلى المتجر، مررت باثنتين من الأمهات الجميلات وهما تحتسيان القهوة، لكنهما توقفتا عن فعل ذلك عندما مررت بجوارهما، وأخذت كلّ منهما ترمقني بنظرة تقول:

(يا له من شاب جميل، إنه أشبه بالنساء!).

على الرغم من ذلك كله لم يكن لدي الوقت كي أشعر بالانزعاج؛ لأن أصابع طفلي كانت تتجمد من البرد، وبعدها دخلت إلى المتجر الذي دخلت إليه مئات المرات سابقاً (إن هذا الطريق أعرفه تماماً فعندما كانت ابنتي صغيرة كنت آخذها في تلك النزهات نفسها، ولهذا فأنا أعرف كلّ صدع موجود في رصيف المشاة هذا) حتى إنني أتذكر تماماً أين كانوا يضعون تلك القفازات لذلك توجهت إلى مكانها المحتمل، لكني لم أجدها فاعتقدت أنهم غيّروا مكانها فبحثت عنها في كل مكان لكن دون جدوى، وفي النهاية ذهبت إلى البائعة التي كانت تتحدث مع سيدتين عند قسم سراويل الأطفال (أفارول)، لقد نظرن إلي باستغراب وأنا أدفع العربة وأتجه نحوهن.

قلت لها: أرجو المعذرة، إنني أحاول إيجاد مكان القفازات التي تكون فيها الأصابع الأربعة مفصولة عن الإبهام، فنظرت البائعة إلى السيدتين، وكأنّها تنتظر منهما أن تساعداني، ثم قالت:

«من أجلك أم من أجل طفلك؟». وأخذن يضحكن عليّ، فقلت:

«إنها من أجله»، قلت ذلك وأدرت لهم العربة بسرعة؛ كي يتمكنوا من رؤية ابني الذي غطّ في نوم عميق.

قالت إحداهن: «إنّه جميل».

وقالت الأخرى: «من الأفضل فعلاً أن تغطي له يديه، إنهما باردتان جداً.

فقلت: «لهذا السبب أنا موجود هنا، فأنا أحاول شراء قفازات له»، فقالت البائعة: «ليس لدينا قفازات من النوع الذي تريده».

«هل نفدت من المتجر؟».

«كلاّ، ولكننا لا نبيع هذا النوع من القفازات، إننا نبيع فقط القفازات ذات الخمس أصابع».

أنا واثق تماماً من أنني اشتريت لابنتي، زوجاً من هذه القفازات ومن هذا المتجر بالذات، وأتذكر شكلهما تماماً، كان لونهما زهرياً ولكنّ ابنتي أضاعتهما في إحدى الرحلات.

قلت: «حسناً، سأبحث في مكان آخر»، وحاولت الابتعاد بالعربة، ولكنني علقت في الممر، فقد شعرت بارتباك شديد؛ لأنّ النسوة كنّ واقفات هناك وهنَّ يحدقن بي مما جعلني أشعر بوطأة الأمر وتزايد الضغط علي، فذلك أشبه بحالتك عندما تناور لإيجاد مكانٍ لإيقاف سيارتك في شارع مزدحم فتربك السير مما يؤدي إلى استهجان الناس وإبداء استيائهم، لقد بدأ العرق ينساب تحت قبعتي الصوفية. وأخيراً تمكنت من إخراج العربة من ذلك الممّر الضيق ولذتُ بالفرار، وعندما أصبحت بعيداً عنهن بما يكفي، صرخت بفتور: «شكراً لك».

فأجابت البائعة: «لا تنسى أن تسأل زوجتك إن كان بإمكانه ارتداء قفازات بخمسة أصابع أم لا».

تسمّرت في مكاني عندما قالت هذه الجملة.

عندما أفكرّ في تلك الكلمات أجدها غير مؤذية على الإطلاق، لكن في تلك اللحظة شعرت بإهانة كبيرة، فهي كمن يقول لي: إنك غير قادر على اتخاذ مثل هذا القرار، وإنَّ المرأة هي التي تعرف ما إذا كانت القفازات ذات الأصابع تفي بالغرض أم لا، وإنني غير مؤهل للاعتناء بطفلي؛ لأنني رجل.

الآن عندما أفكّر في تلك الكلمات، أشعر أنها لم تكن تعني أيًّا من ذلك، لكني خرجت من المتجر وأنا غاضب، فقد كاد طفلي يتجمد من البرد، لذلك تابعت سيري في الشارع الرئيس وأنا أغمغم: «نعم إنكم تبيعون قفازات دون أصابع! لقد اشتريت زوجاً منه من متجركم! إنني أعرف أنكم تبيعون منها هنا!».

وعلى الفور احمّرت أصابع الصغير مرة ثانية، وكان لا بدّ من إدخاله إلى أحد المباني فتوجهت إلى المكتبة القريبة التي أعشقها كثيراً، فقد خطت ابنتي خطواتها الأولى فيها كذلك نطقت بكلماتها الأولى: (سام، أنا) فيها، إذ كانت تجلس على ركبتي وتقرأ قصص الأطفال ونحن نشاهد البط وهو يسبح خارجاً من خلال النافذة، فإذا كان هناك مكان يمكنه تهدئة أعصابي وتدفئة أصابع ابني، فهو المكتبة.

استيقظ الطفل في أثناء دخولنا المكتبة، وهذا أمر جيد، لكنه مباشرة أحدث شيئاً ما في حفاظته، الأمر الذي لم يكن جيداً على الإطلاق، فقد ملأت الرائحة المكان ومن المؤكد أن لا أحد في المكتبة سيستمتع بوقته ما لم أفعل شيئاً حيال ذلك.

كنت متأهباً تماماً لمثل هذا الموقف، كعادتي دائماً. فقد كانت معي حقيبة ماركة برادا مجهّزة بكل ما أحتاج إليه من حفاظات ومناديل وصابون جاف وملابس إضافية وكيس مصنوع من البلاستيك لوضع الحفاظة فيه ولا ينقصني سوى طاولة أضع عليها الطفل؛ كي أبدّل حفاظته، وهنا بدأت المشكلة.

لقد دخلت حمّام الرجال مئات المرات سابقاً، ولكني لم أنتبه أبداً إلى عدم وجود طاولة لتبديل الحفاظات للأطفال، وأظن أنَّ ذلك يشبه إلى حدّ ما الصوت المنبعث من الثلاجة ـ فأنت لا تنتبه إليه أبداً إلاّ عند عدم وجوده، لذلك انتبهت اليوم لعدم وجود طاولة في حمام الرجال. وإليكم ما حصل: لقد حملت ابني بين ذراعي بحنان ولطف، لكنني كنت منزعجاً من موقف البائعة والأمّهات في المتجر ـ والآن هذه الرائحة الكريهة المنبعثة من ابني وليس هناك مكان أستطيع تبديل الحفاظة فيه، وذهبت إلى أمينة المكتبة الجالسة وراء مكتبها وشرحت لها مشكلتي.

فقالت: «أوه، ياعزيزي، ليس لدينا طاولة تغيير في حمام الرجال».

«لماذا؟».

«لأننا لم نرَ ضرورة لوجودها هناك».

«إذاً أين يمكنني أن أغيّر الحفاظة لابني؟».

«حسناً، ليس هناك طاولة للتبديل إلاّ في حمام السيّدات».

«ألا يوجد مكان آخر أستطيع فيه تبديل الحفاظة لابني؟».

«آسفة».

«إذاً، أمام هذا الوضع، سأضطر إلى استخدام حمام السيدات، لو سمحت ادخلي إلى هناك وأخبريهن بذلك، وسوف أحاول الإسراع قدر المستطاع».

«آسفة، لا أستطيع السماح لك بذلك، فهذا الأمر يعود إلى مديرة المكتبة، لذا يجب عليك التكلّم معها».

«إنني أرغب في ذلك».

فأجابتني: «أخشى أنها ليست موجودة الآن، ستكون موجودة في الصباح الباكر، فهل تريد أن أحدد لك موعداً؟».

«كلّا، لا أريد التكلّم معها غداً بشأن حفاظة ابني، سأذهب إلى حمام السيدات مهما كلف الأمر».

ثم توجهت إلى حمام السيدات وركلت الباب بقدمي ثلاث مرات قبل دخولي على الرغم من اعتراض أمينة المكتبة على ذلك.

ما سأقوله هو الآتي: إنَّ حمّام السيّدات هو أغرب مكان رأيته في حياتي، فقد شعرت أنَّ وجودي هناك أمر غريب وغير مستحب، تماماً كشعوري عندما كنت مراهقاً وأقوم بالتسلل إلى قسم الملابس الداخلية النسائية في متجر بلومينغزد يل؛ لأسترق النظر إلى تلك الملابس، ها قد بدأ طفلي يركلني فأدركت أنه من الأفضل لي أن أركزّ في عملي؛ لذا أسرعت بتغيير حفاظة قدر المستطاع، وعندما أنهيت عملي أحسست أنني أنجزت شيئاً مهمّاً.

كان هناك شرطيٌّ ينتظرني في الخارج، إنني لا أعني خارج المكتبة، بل خارج باب حمام السيّدات وكانت ترتسم على وجهه ابتسامة حين قال: «ماذا تفعل هناك ياسيدي؟».

كنت أود إخباركم بأنني بقيت مسمّراً في مكاني ورفضت الإجابة عن الأسئلة وإني أقسمت له إنّه لا يستطيع اعتقالي وأنا على قيد الحياة، لكنني لم أفعل شيئاً من هذا القبيل، وبدلاً عنه أخذت أتحدث عن الظلم في عدم وجود مكان يمكن للرجل أن يغيّر فيه الحفاظة لطفله، وأنني تبرعت بآلاف الدولارات لتلك المكتبة/ كما أنني تعرضت للمضايقة من بعض النساء، وقبل أن أكمل كلامي قاطعني الشرطي قائلاً: «ألست الفتى الذي يعمل في الإذاعة؟».

«نعم!» أنا الفتى الذي يعمل في الإذاعة! أرجو أن تخبرني بأنَّ هذا يخولني استخدام حمام السيدات في حال رغبت ذلك!

«إنني أستمتع إلى برنامجك في كل صباح، وأنا أيضاً أحد مشجعي فريق النسور».

«إنني سعيد بلقائك»، وأدرت العربة: لأريه قبعة فريق النسور التي كانت على رأس طفلي وأضفت: «آسف إذا كنت قد تسببت في إزعاج».

«حسناً، إنني أتفهم مشاعرك، لكن ذلك لا يعني أنَّ بإمكانك اقتحام حمام السيّدات، فماذا لو كانت هناك سيدات في الداخل؟ عندها كنا سنواجه بعض المشكلات حتماً».

«إنني أتفهم ذلك، ولا أستطيع إخبارك بمدى الحرج الذي أشعر به».

«سوف أدعك تذهب، ولكنني أظن أنَّ عليك عدم العودة إلى هنا على الأقل لبعض الوقت، ولا ضير في الاعتذار من أمينة المكتبة».

«بالتأكيد، كن واثقاً تماماً من أنني سأفعل ذلك».

«حسناً، سيد غرينبرغ، اعتنِ بطفلك واحرص على أن يعرف أي حمام يجب أن يستعمل».

صافحته بحرارة ثم رحل، وبعدها نظرت إلى أمينة المكتبة ورحت أفكّر في مدى البلبلة التي يحدثها اقتحام رجل لحمام السيّدات، ولكنني على الرغم من ذلك، لم أعتذر لها، وتوجهت نحو الباب برأس مرفوع وأنا أدفع عربة طفلي ثم خرجنا من المكتبة حيث كانت الشمس على وشك المغيب وأصبح الجو بارداً جداً وبما أني لم أشترِ قفازات لطفلي فقد كنت مضطراً للعودة إلى المنزل، فمشيت بسرعة إلى السيارة وقمت بمواجهة نظرات كل النسوة اللواتي مررت بهن بجرأة كبيرة ووضعت الطفل في كرسيّه في السيارة وربطت له الحزام جيداً، لقد شعرت بالفخر بما فعلته، فقد سجلت موقفاً أو ما يشبه الموقف، ولم آسف إلاّ على شيء واحد، وهو أنّه لن يكون بمقدورنا أنا وابني قضاء الوقت معاً في المكتبة مثلما كنّا نفعل أنا وابنتي، وهذا أمر مؤسف، وأظن أنّ عليه نطق كلماته الأولى في مكان آخر غير المكتبة.

حسناً، لقد قال كلماته الأولى في ولاية كولورادو.

إن النبأ الجيد هو أننا نعرف الآن كلماته الأولى، أما النبأ السيئ فهو أننا لن نقوم بتسجيلها أبداً أو حتى كتابتها، ولن نتصل بأهلنا لإبلاغهم الخبر، كما لن نشجعه على قول المزيد، ربما لأننا مستاؤون جداً.

إن الكلمات الأولى لابني هي: «أوه تباً».

إنها مأساة حقيقية؛ ليس لأنها الكلمات الوحيدة التي نطق بها، بل لأنه يرددها طوال الوقت، وأنا أشعر بالأسى الشديد لكوني السبب في ذلك.

حصل ذلك في آسبن، وهو المكان الذي كنا نتزلج فيه مع أصدقائنا، فنحن نذهب إلى هناك كل سنة ، وقد اعتدنا أن نكون ستة أشخاص أما الآن فنحن ستة عشر شخصاً (ثلاثة أزواج وثلاث مربيات وسبعة أطفال). لقد استأجرنا منزلاً كبيراً ذا سقفٍ عالٍ كسقف الكاتدرائية، عالٍ لدرجةٍ لم أستطع معها تخيّل الطريقة التي يغيرون بها مصابيح الإضاءة فيه.

إنه مكان سيئ للعب فيه ببالونات الهليوم، ومع ذلك لعبنا، فقد أحضرنا تلك البالونات لأطفالنا وفجأة أفلت من يدي أحدها وحاولت الإمساك به لكنني لم أنجح، وعندما رأيته يتحرك باتجاه السقف قلت دون أن أقصد تلك الكلمات:

«أوه تباً».

ثم نظرت إلى طفلي وأنا خجلٌ من نفسي؛ لأنني تفوهت بمثل هذا الكلام النابي أمامه، فابتسم ببراءة وقال كلماته الأولى:

«أوه تباً».لقد لفظها بمقطعٍ واحد وكانت واضحة تماماً.

أخذ الجميع في الضحك وقبل أن نتمكن من التوقف عن ذلك، كنا قد أقنعناه بأنه قام بإنجازٍ عظيم، لكنه الآن أصبح مدمناً على تلك الكلمات على الرغم من محاولاتي المتكررة في إقناعه بعكس ذلك، فهو يظن أنّ عبارة «أوه تباً» هي الشيء الأجمل في هذا العالم.

وهكذا ستبقى هذه الكلمات كلماته الأولى للأبد، فهو لم يبدأ كلامه بلفظ كلمة: «ماما» أو «بابا» أو «حليب» أو «عصير» أو حتى الكلمات الأولى التي لفظتها أخته «سام، أنا»، ولهذا كنت حزيناً في أثناء رحلة العودة إلى الوطن حتى قبل قيامه بإظهار مواهبه الجديدة أمام جميع ركاب الطائرة، كان وضعاً محرجاً، حتى إنّ المضيفة نظرت إليه وهي مصدومة.

هكذا كانت عطلتي، وربما كان ذلك ما يشغل تفكيري في اجتماع اليوم، فباستثناء الكلام النابي الصادر عن ابني لا يمكنني التفكير في سبب آخر، أدى إلى حصول هذا الشيء المؤسف في الاجتماع الذي انتهى إلى خسارتي لخمسين ألف دولار.

قام مدير أعمالي بتحديد موعدٍ للاجتماع مع مندوبي شركة سيارات لن آتي على ذكرها، أرادوا الترويج لسياراتهم من خلال القيام بحملة دعائية: «قوية بما يكفي لشخص رياضي، وعصرية بما يكفي كي تقودها زوجته». إنها فكرة رائعة كما أنني الشخص المناسب لهذا الإعلان.

بدأ الاجتماع بشكلٍ جيد، فقد قادني مدير أعمالي إلى قاعة الاجتماعات، حيث وجدنا شابين من شركة السيارات إضافةً إلى رجلٍ وامرأة من وكالة إعلانات وامرأة أخرى من شركة إعلامية، فنظرت إليهم جيداً ولاحظت أن أحد الرجال الثلاثة كان يرتدي بدلة إيطاليةً وحذاءً ماركة غوتشي، أما الرجل الثاني فكان يرتدي بدلة رخيصة الثمن وربطة عنق لا تتناسب معها، وبالنسبة للسيدتين فقد كانتا في قمة الأناقة.

وبعد أن تفحصت الوضع جيداً، حان الوقت لأبدأ بالكلام، فافتتحت حديثي بمزاحٍ سخيف يطولني شخصياً: «عندما كنت يافعاً لم أكن محبوباً أبداً ولم يكن لديّ أصدقاء إلا في خيالي».

وبعد ذلك ذكرت بعض النكات التي تنال من شريكي البدين: إنه بدينٌ جداً وأنا نحيلٌ جداً، فإذا وقفنا إلى جوار بعضنا فسوف نبدو مثل الرقم /50/!

وختمت حديثي بقول ملاحظة مهمة: «إن فلسفتي في الحياة هي خُذ عملك على محمل الجد حتى ولو كنت ذا شخصيةٍ مرحة».

لقد كان ذلك رائعاً وجعل الجو أكثر حميمية، ثم تمّ إحضار طبق الضيافة على عربة ذات عجلات، وبدأ الشاب الذي كانت بقعة الخردل على ياقته بإصدار صوتٍ عالٍ في أثناء احتسائه للقهوة، لقد غطى ضجيجه على ضجيج الشارع. ثم سمعت أحدهم وهو يسأل ما إذا كان هناك عصير يشربه، وأما مدير أعمالي فبدأ بالتهام لحم العجل وكأنه لم يأكل منذ شهر، أما أنا فوضعت يدي بشكلٍ عفوي حول الشاب الذي أخذ يتحدث عن زيارته الأولى إلى إستاد اليانكيز (إن أكثر ما يرغب فيه المشجعون هو إخباري عن زيارتهم الأولى إلى ذلك الإستاد، وعادةً ما أنزعج من ذلك الحديث لكن إذا كان هذا الفتى سيدفع لي خمسين ألف دولار فسأرغب في تسجيل كلامه هذا).

كنت مرتاحاً جداً حتى إنني تجرأت على الأكل، فأنا عادةً لا أقدم على الطعام في مثل هذه المناسبات لأن عملي هو الكلام، وغالباً ما يطرح عليّ أحدهم سؤالاً مهماً في اللحظة التي أبدأ فيها تناول السلطة، لكن هذه المرة لم يحصل ذلك.

لقد وضعت في صحني بعض اللحم والجبنة ثم أخذت ملعقةً من سلطة التونا وقدّمتها إلى رجل الخردل، ولكنّ الملعقة انزلقت من يده ووقعت على الأرض محدثةً صوتاً عالياً كافياً لجعل الجميع يتوقف عن الأكل على الرغم من وجود سجادة على الأرض. وبشكلٍ لا إرادي قلت:

«أوه تباً».

نعم أنا من قال ذلك، وأنا أعرف أنه لم يكن يجدر بي ذلك؛ لأنه ينم عن عدم لباقةٍ ولا سيما في مثل هذا الموقف. لقد كان ابني يتلفظ بتلك العبارة سبعة آلاف مرة في اليوم، وهذا كفيلٌ بأن تعلق في ذهني، لقد شعرت بضرورة قول شيء آخر؛ لأخفف من وطأة ما سبق، وإذا بي أقول:

«إنني أقصد، اللعنة».

لقد ازداد الأمر سوءاً، فتلك العبارة أستخدمها مع أولادي، لكن عندما نظرت حولي أدركت أنه لا يليق برجلٍ ناضجٍ، لا سيما إذا كان معلقاً رياضياً، قول مثل هذه الألفاظ، غص مدير أعمالي عندما سمع ما قلته.........فقد كنت مخيباً للأمل، وساد بعدها صمتٌ مُرِبك جعلني أضطر لقول شيءٍ آخر.

«لا بدّ أنني أبدو كالفاجرة!».

هل هذا مزاح؟ هل يمكن لرجلٍ يكسب عيشه من سرعة بديهته أن يتفوه بشيءٍ كهذا؟!

استدركت الأمر وقلت وأنا أشعر بحرجٍ شديد:

«أعتذر منكم جميعاً، كان هذا الأسبوع شاقاً عليّ، آمل أن تستمتعوا بطعامكم».

أطبق الصمت على القاعة لدرجة أنني استطعت سماع صوت بلع الطعام الصادر عن مدير أعمالي، وبعد بضع دقائق بدؤوا بالهرب الواحد تلو الآخر، وأول الهاربين كانت السيدة الأكثر أناقة وقالت وهي تنسحب:

«سررت بمعرفتك، سنتصل بك قريباً لنبلغك قرارنا». وترجمة هذا الكلام: أخبر مدير أعمالك بأن يلتهم كامل طبق اللحم؛ لأنه الشيء الوحيد الذي ستحصلون عليه من هذه الصفقة.

ثم جاء دور الشاب الأنيق الذي بسط يده وقال دون أن يبتسم:

«سررت بلقائك، سنكون على اتصالٍ معك».

كان رجل الخردل آخر الهاربين وقال وهو يمدّ يده المغمّسة بالدهن:

«اعتن بنفسك، سأنصحك بأن تحاول تهذيب ألفاظك أمام السيدات». كان هذا بمنزلة ضربةٍ قاصمة لي. فبعد عشر دقائق من قول: «أوه تباً» و«اللعنة» كنت أنا ومدير أعمالي جالسين وحيدين في الغرفة، وبما أنه لم يكن بإمكاني فعل أي شيء، ملأت صحني بقطع اللحم الباردة وجلست بجواره.

قال لي: «لقد أبليت حسناً، ربما يجدر بك في المرة المقبلة أن توفّر كلمة /الفاجرة/ إلى ما بعد توقيع العقد».

«لم أجد كلمة /اللعنة / مناسبة؛ لذلك كان عليّ قول شيءٍ آخر».

«ومن أين تعلّمت هذه الكلمة، فأنا لم أسمعك تقولها من قبل».

«لأنه لم يسبق لك أن كنت في منزلي في أثناء بناء أولادي لبيتٍ من الحجارة».

ثم واصلنا طعامنا بصمت لبضع دقائق ، وأخيراً قلت له:

«دعني أطرح عليك سؤالاً، هل لدينا أمل في الحصول على هذه الصفقة؟».

«مستحيل».

«كل هذا لأنني قلت كلمة /الفاجرة/؟».

«نعم، هذا صحيح».

«دعني أطرح سؤالاً آخر: ماذا سيحدث لو أنني قلت فقط عبارتي /أوه تباً /و/اللعنة /؟».

هنا اكتفى بهز رأسه، فقلت:

«هل تعلم أن الكلمات الأولى لابني كانت /أوه تباً/».

«لست مندهشاً لسماع ذلك».

«كم عمر أولادك؟».

«تسع عشرة وست عشرة سنة».

«هل سبق لك وجدت نفسك تستخدم مصطلحاتهم في المكان غير المناسب».

«تباً، إنني لم أفهم منهم أي كلمة منذ خمس سنوات».

ثم واصلنا طعامنا ونحن صامتان، وفي الحقيقة لم أكن في عجلة من أمري كي أعود للمنزل، فأنا بحاجة لقضاء المزيد من الوقت برفقة راشدين، إنني بحاجة ماسة لذلك.

أو ربما العكس هو الصحيح، أي إنني بحاجة لقضاء المزيد من الوقت مع أولادي لا مع الكبار، لقد تم تذكيري بذلك بعد الحماقة التي ارتكبتها في الأمس. (لا أقصد ما قلته في اجتماع الأمس بل ما كتبته بعد ذلك)، تصوروا مدى حماقتي عندما ظننت أن بإمكاني أن أتعلم من بائع سيارات أكثر مما يمكنني تعلّمه من أولادي، ولحسن الحظ فعندما يخطر في بالي مثل هذا الهراء يكون لدى أولادي طريقة ما لتلقيني درساً يستحق أكثر من خمسين ألف دولار.

ومن تلك الدروس التي تعلّمتها من أولادي ما حصل معي بعد ظهر هذا اليوم عندما ذهبت لإحضار ابنتي من الروضة، فتلك هي اللحظة التي أتشوق إليها كل نهار، فعلى الدوام أصل إلى هناك باكراً وأراقب الأولاد من الباب: لأنني أحب الطريقة التي يلعبون بها، كما أحب منظر الفتيات الصغيرات وهنّ يركضن، وأحب عراك الصبية مع بعضهم وأحب الطريقة التي يقومون فيها بتناقل أسرارهم على الرغم من عدم معرفتهم بما تعنيه كلمة أسرار، إن كل ما يعرفونه عنها أنها تقال على عجل وبصوتٍ منخفض مع وضع اليد على الفم، وغالباً ما تكون أسرارهم على شاكلة / تايلور تحب رقائق البطاطا/.

وعندما يبدأ الآباء الآخرون بالوصول، أعمد إلى الوقوف في المدخل، بحيث يمكن لابنتي أن تراني، إذ يبدو أن وجودي هناك - بشكلٍ يومي - أعظم مفاجأة لها، وذلك درس يمكنني تعلّمه منها. تخيلوا معي مقدار السعادة التي سأشعر بها إذا كانت اللحظات التي أتوقعها لا تفقد سحرها ورونقها أبداً.

اليوم كانت ابنتي تقفز من الباب مع صديقتيها رينيه و جيسيكا عندما وقعت إحداهما على الأرض وآذت ركبتها / أظن أنّ جيسيكا هي التي وقعت فأنا ما زلت أجد صعوبةً في التمييز بينهما / ، قالت ابنتي:

«تماماً كما حصل في الاستراحة». فسألتها:

«وماذا فعلتم في أثناء الاستراحة؟».

«كنا نركض أنا ورينيه وتايلور وكان الصبية يطاردوننا».

قالت الفتاة الصغيرة الأخرى: «لا نحب الصبية».

التفتّ إلى أمها؛ لأرى مدى دهشتها إلا أنها لم تبدِ اهتماماً على الإطلاق، وأما بالنسبة لي فقد فوجئت قليلاً؛ لأنني لم أتصور أنهنّ يدركن الفرق بين الصبية والفتيات.

وفي السيارة سألت ابنتي عن الاستراحة:

«حبيبتي، هل تحبين اللعب مع الصبية؟».

فقالت وهي تعبث بحزام الأمان: «أحياناً ، ولكن ليس كثيراً».

إنه الجواب نفسه عندما أسألها ما إذا كانت تحب أخاها الصغير، إذ جُلّ ما تريده هو تناول المثلجات التي وعدتها بها الليلة الماضية.

قالت للبائعة: «أريد مثلجات بطعم الفانيليا مع كرات ملونة في الأعلى ومخروط من الأسفل».

أحب طريقة طلب ابنتي للمثلجات. ثم عدنا إلى السيارة وقلت لها: «حبيبتي، هل حدث معك شيء مهم في المدرسة اليوم؟».

قالت: «ليس كثيراً، إنني سأتزوج كاستن» .

سألتها وأنا أحاول جاهداً الحفاظ على نبرة صوتٍ عادية: «ومن يكون كاستن هذا؟».

«إنه معي في الصف».

أعرف أنّ زوجتي ستكون سعيدة لدى سماعها الفتيات الصغيرات وهنّ يتحدثن بهذه الطريقة، لكن في الوقت نفسه فأنا مستعدٌّ لإلقاء نفسي أمام أول شاحنةٍ قادمة.

ثم سألتها: «وماذا تقصدين بأنك تتزوجينه؟».

«لا أعرف».

«متى ستتزوجينه؟».

«لا أعرف».

«ولماذا تتزوجينه؟».

عندها نظـرت إليّ تلك النظرة التي أعرفها جيداً ـ فأمها تستخدمها معـي دوماً ـ التـي معناها /اخرس/ لأنهـا منشغلـةٌ في أكل المثلجات، إن هـذا الأمـر لا يبدو مؤذياً من طفلةٍ عمرها أربـع سنوات، وقد تبيّن لي أنه لا داعـيَ لأن أقلـق عليهما ــ الأم وابنتها ـ فهما في كل مـرة تثبتان أنهما أكثر نضجاً مني، إنها في كل يومٍ تذكرني أكثر بوالدتها ما عدا أنّ زوجتي تفضل كرات الشوكولا.

بعد ذلك ذهبنا إلى محل الزهور، وهو مكان تحبه كثيراً، إذ توجد فيه قطة صغيرة اسمها توماس وتدعوها ابنتي بـ تومي؛ لأنها صغيرة جداً، وذات مرة كان هناك مجموعة من القطط الصغيرة وسمحوا لابنتي بحمل إحداها مما جعلها تشعر بسعادةٍ غامرة.

إن أكثر ما تحبه هو الأزهار، فهي الشيء المفضّل لديها، وهي بالنسبة لها تماماً كالأحذية بالنسبة لوالدتها، وفي الحقيقة سيكون قد فاتك الكثير إن لم ترَ فتاةً في الرابعة من عمرها وهي تشم الأزهار، إنه أمرٌ يفوق الوصف.

«تبدو رائحة الورود كالكرز يا أبي؛ لأنها حمراء اللون، أما البنفسج فرائحته أفضل؛ لأنه اللون المفضّل لديّ».

من الأفضل أن تعرف أنّ رائحة الزهور الصفراء تختلف عن رائحة الزهور البرتقالية أيضاً، وفي معظم الأحيان يمكن لعبير الزهور التخفيف من وطأة أي شيء، لكنني اليوم عندما حان وقت مغادرتي للعمل، كنت وما أزال أشعر بالانزعاج، فأنا في الآونة الأخيرة مضطربٌ قليلاً، لذا أمسكت بيدها ولوحنا للقطة تومي، وكنا في طريقنا إلى السيارة عندما توقفت ابنتي وقالت وهي تفلت يدها من يدي: «أبي، إنك تمشي بسرعة كبيرة». بالطبع إنها محقة، فهي دائماً على حق، إنني أمشي بسرعةٍ كبيرة. لذلك قلت لها وأنا أمسك بيدها مرة ثانية: «آسف حبيبتي، سوف أمشي ببطء».

ليس من الصحيح أن تكون في عجلةٍ من أمرك طوال الوقت، فذلك يجعل الأسابيع تنقضي بسرعة ويجعلك تشعر أنّ يوم الخميس هو اليوم الذي يعقب السبت، وهكذا تمضي الأشهر والسنوات والحياة بسرعةٍ

كبيرة. ربما عليك عدم المبالاة عندما تنتهي اجتماعات العمل بشكلٍ سيئ، فقد يكون كل ما تحتاجه فعلاً هو الانتباه إلى اختلاف رائحة الزهور البنفسجية عن الزهور الصفراء، وربما ما يفعله الأطفال هو أنهم يجعلون الوقت يمضي ببطء. في الحقيقة، هناك الكثير مما يمكن أن أتعلّمه من ابنتي الصغيرة كما أتمنى أن أصبح مثلها ذات يوم.

الإصلاح

مناجاة افتتاحية

يوم الإثنين الثامن من كانون الأول

رأيت بالأمس شيئاً أشعرني بالحزن حقاً.

إنه واحدٌ من الأشياء التي تسمع عنها طوال الوقت، لكنك لا تظن أنها قد تحدث في المكان الذي تعيش فيه ووسط الناس الذين تعرفهم، إنه ذلك النوع من الأشياء التي تحدث دائماً في مكان آخر بعيد جداً عنا، في مكان تنبذه لكونه يتّسم بالجهل، في مكان تهبط فيه الصحون الطائرة، لكن ما حصل بالأمس لم يكن أبداً في ذلك المكان بل حصل هنا في المكان الذي أعيش فيه ووسط الناس الذين أعرفهم وكان وقعه صعباً عليّ جداً.

لقد حدث ذلك في مباراة كرة، ومن الجدير بالذكر أنني حضرت آلاف المباريات في حياتي، ومن الأشياء التي أصبحت معتاداً عليها وجود المشجعين المشاغبين الذين تجدهم إلى جوارك في المدرجات وهم يتلفّظون بتلك الكلمات النابية أو يثيرون المشكلات ويتعاركون في المدرجات مما يشتت انتباه قسم لا بأس به من المتفرجين ويمنعهم من التركيز على المباراة.

حسناً، لقد كان أحد هؤلاء المشجعين موجوداً في مباراة الأمس ولم يكن ثملاً أو داهناً لوجهه أو خالعاً لقميصه، بل كان يرتدي ملابس أنيقة مكونة من سترة رياضية وسروالٍ واسعٍ وربطة عنق كان واضحاً أنها من ماركة هرمز، كما أنه لم يكن سوقياً فهو لم يستخدم الألفاظ النابية أمام الشبان اليافعين، وهذا أمر جيد لأنه كان هناك الكثير منهم حولنا.

في الحقيقة، إنني أعرف ذلك الرجل، فهو محامٍ ناجح ويعيش في الحي نفسه الذي أعيش فيه، وقد ساعدته مرةً في الحصول على بطاقتين لحضور مباراة في كرة السلة فأرسل لي صندوقاً من الشراب كاعترافٍ بالجميل، فهو يحسن التصرف ويملك النقود، لكنني اكتشفت أنه شخصٌ غير راقٍ.

عندما كنا في مباراة الأمس أخذ ينتقد الحكم بشكلٍ لاذعٍ، وأظن أنه لم تكن تمضي خمس دقائق دون اعتراضٍ منه على قرارات الحكم، وبما أنه لم يكن هناك الكثير من المتفرجين فقد كان باستطاعة الجميع سماع كل كلمةٍ قالها.

وبعدها ركّز انتباهه على أحد اللاعبين وأخذ ينتقده بشدة أكثر من انتقاده للحكم، وكان واضحاً أنّ هذا اللاعب لم يأخذ المواقع الصحيحة في أثناء اللعب كما كان بطيئاً وتوقف في أثناء المباراة ليلوّح لوالدته، وهنا قال له الرجل الموجود في المدرجات: إنه لن يسمح له باللعب مرةً ثانيةً إذا لم يحافظ على رباطة جأشه في المباراة.

إن ذلك كله لا يُعدّ أمراً سيئاً في معظم مباريات البيسبول، لكن عندما تكون المباراة بين أطفال صغار لم يتجاوزوا الرابعة من العمر وعندما يكون هذا الطفل الذي أخذ الرجل ينهره هو ابنه، فهذا أمرٌ في غاية السوء.

إنكم تسمعون أحياناً عن آباء يتخاصمون مع أبنائهم بعد مباريات الهوكي، أو عن أمهات يمنعن أبناءهن من مواصلة مباراة التنس بسبب نداءٍ غير مستحبٍ من الحكم، لكن ما لا تتوقعونه أبداً هو رؤية ذلك على أرض الواقع، على الأقل ليس في حكم وليس من محامٍ يلبس ربطة عنقٍ يبلغ ثمنها مئة دولار.

منتدى سور الأزبكية
WWW.BOOKS4ALL.NET
https://twitter.com/SourAlAzbaky

لقد ذكرني ذلك المشهد بأحد المشاهد التمثيلية التي يقوم فيها مدير الفريق الخصم بضرب ابنه على أرض الملعب.

جعلني ذلك أفكر فيما يمكننا أن نقوم به جميعاً وأظن أنني توصلت إلى شيءٍ مهم وهو:

إذا كنت أباً وكان أبناؤك يخوضون مباراة، فلا تسألهم عند عودتهم إذا ما كانوا قد ربحوا أم لا ، بل عوضاً عن ذلك حاول أن تطرح عليهم سؤالاً من نوعٍ آخر: «هل استمتعتم بوقتكم؟».

دعهم يقررون الوقت المناسب لإخبارك بفوزهم أو خسارتهم، ربما سيستغرق ذلك وقتاً أكثر مما تتوقعه، وربما لن يكون ذلك من جملة الأشياء التي سيخبرونك بها في البداية، وربما سيخبرك ابنك كيف كانت رائحة الفشار تبدو شهية ، وربما سيكون منزعجاً؛ لأنه ضيّع كرة، وربما سيكون مسروراً؛ لأن الرائعة ميشيل نيسبوم كانت حاضرةً ولوحت له بيدها.

ربما تتفاجأ بذهاب أبنائك إلى الطابق العلوي من أجل الاستحمام دون أن يخبرك بالفائز، فربما لا يكون الأمر مهماً بالنسبة لهم كما هو مهم بالنسبة لك.

بالطبع من المحتمل ألا يحدث أي شيءٍ من هذا القبيل، وربما تكون أول كلماتٍ يتفوه بها ابنك هي: «لقد قضينا عليهم وهزمناهم شرّ هزيمة!»، أو ربما تعود ابنتك إلى المنزل وتقول: «لقد خسرنا وأنا أشعر أن حياتي لا معنى لها».

في النهاية، أنت حر التصرف مع أبنائك، لكن بالنسبة لي فإن ما سأقوم به هو الآتي: عندما سنلعب أنا وابنتي بالورق بعد ظهر هذا اليوم فلن أدعها تهزمني وأنا آمل أن تهزمني في كل الأحوال، وآمل أكثر أن ترغب غداً في اللعب معي مرةً ثانيةً مهما كانت النتيجة اليوم.

ذهبت اليوم إلى الدكتورة غراي وأخبرتها بما حصل معي في الأسبوع الفائت عندما كنت أغادر المنزل، إذ كان عليّ السفر في رحلة عمل تستغرق خمسة أيام، وهي أطول مدة أقضيها خارج المنزل منذ زمن، وأنا أشعر بالكآبة جرّاء ما حدث، وربما يكون قد انعكس ذلك على الأولاد أيضاً، فقد أصبحوا ينتبهون إلى مثل هذه الأمور، وعندما حاولت جاهداً أن أشرح لهم أن أباهم مضطر للقيام برحلةٍ قصيرة وأنه سيعود قريباً وسيتصل بهم يومياً، أخذت ابنتي تبكي وقالت:

«أبي لا أريدك أن تذهب».

وفي الحال بدأ ابني يبكي، ليس لأنه علم بسفري بل لأن أخته كانت تبكي وهو يفعل كل ما تفعله.

قلت وأنا أعانقهما:

«وأنا لا أرغب في الذهاب أيضاً، لكنني سأعود قريباً جداً».

أجابتني ابنتي وهي تجهش بالبكاء:

«سأفتقدك يا أبي».

كانت تتكلم والدموع تنهمر من عينيها فهي بذلك ستكون مؤثرةً أكثر وربما لأنها تعرف أن ذلك سيجدي نفعاً، فقلت:

«سأفتقدك أنا أيضاً ، ولكن لا بأس بأن نشتاق لبعضنا قليلاً».

«أوه يا أبي»، وألقت بنفسها على الأريكة، ثم فعل ابني مثلها تماماً. لقد كانت السيارة التي ستقلني إلى المطار بانتظاري؛ لذا قبّلت زوجتي فقالت:

«سأفتقدك أيضاً».

لقد بدت وكأنها تعني ما تقول، ثم ركضت ابنتي إليّ بسرعةٍ وصرخت: «أبي!»، وبالطبع كان أخوها وراءها وهو يقول:» با.. . با».

ركعت على ركبتيّ وعانقتهما ثم قبّلت ابنتي على خدها وهي تقول:

«أبي، سأشتاق إليك كثيراً»، ثم قبّلت طفلي الصغير الذي قال:

«با... با، بسكويت ، كأس».

كان يخبرني بأنه يريد بسكويتاً في علبةٍ على شكل كأس، إنّ لفظه يتحسن بالفعل، قلت له وأنا أعانق أمه للمرة الثانية:

«ستحضر لك أمك بعضاً منها».

عندما أخبرت ـ هذا الصباح ـ الدكتورة غراي بما حصل لم أستطع التوقف عن هز رأسي، قلت لها: «إن أولادي مدهشون بالفعل، فابنتي ستشتاق لي وابني يرغب أن أحضر له البسكويت».

«ألا يبدو ذلك رائعاً؟».

«لا أفهم أين الروعة في أن أغادر المنزل وأولادي يبكون عليّ».

«إن الأمر يبدو صعباً قليلاً، لكنه رائع أيضاً».

«إنني لا أجده رائعاً».

«مايكل، إن هؤلاء الصغار سيصبحون ذات يوم كباراً ونادراً ما سترى دموعهم هذه لدى مغادرتك المنزل».

«أظن ذلك».

«دعني أخبرك بشيء، إن أكبر خيبة أمل تشعر بها عندما تكبر في السن هي افتقادك إلى الأشياء التي لم تكن تستمتع بها عندما كانت تحدث معك، ولو استخرجت كلمة خيبة من القاموس فذلك ما تعنيه».

أومأت برأسي موافقاً، والحقيقة أنني أومأت كثيراً برأسي، وحالما انتهينا من الجلسة دوّنت ذلك على عجل؛ لأن الأمر بدا جديراً بالتذكر، فخلال السنوات التي ذهبت فيها إلى الدكتورة غراي كانت تلك أول مرة تخبرني فيها بشيءٍ لا أعرفه من قبل.

لقد بكيت اليوم أمام شابين لا أعرفهما.

أرغب في معرفة ما إذا كانت الدكتورة غراي تظن أن هذا رائع أيضاً، بالنسبة لي لا أعتقده رائعاً أبداً، فهو ليس من الأشياء التي فكرت يوماً بأن أفعلها، فقد حدث ذلك صادفة إذ تكثر الحوادث المفاجئة في حياتك عندما تكون مشهوراً إلى حدٍ ما، حدث ذلك منذ ثلاث سنوات ونصف عندما أخذت ابنتي إلى أول درس سباحةٍ لها، ولن أنسى أبداً المرة الأولى التي ألبستها فيها ثوب السباحة، كما لن أنسى حادثة البول، كان عمر ابنتي حينها ستة أشهرٍ وكنا ننتظر دورنا للنزول إلى المسبح بعد خروج الدفعة السابقة، وعندها لفت انتباهي ولدٌ أشقر ممتلىء كان يبكي في أثناء الدرس وعندما أخرجته أمه من المسبح كان من الواضح أنه يتبول ويبكي في آنٍ واحد في أثناء خروجه، وكان من الواضح أنه لم يبذل أي جهد لإخفاء ذلك أو إيقافه، بل اكتفى بالمشي والبكاء والتبول في الوقت نفسه.

لو كان الأمر بيدي لطردت العائلة من بلدتنا.

حملت ابنتي وذهبت إلى المنقذة؛ لأعبّر لها عن استيائي وقلت: «أرجو المعذرة، فأنا لا أقصد الإساءة، لكن ذلك الصبي كان يتبول في المسبح».

«آسفة ، ماذا قلت؟».

«أعرف أنّ الأمر مثيرٌ للاشمئزاز ، لكن ذلك الصبي كان يتبول مباشرةً في المسبح».

نظرت إليّ وأخذت تضحك.

«لا أفهم لماذا تضحكين؟!».

«سيدي، إنّ هذه المياه معقمة وهؤلاء مجرد أطفال صغار، فماذا تظن أنه يحصل هناك».

«لا تقولي لي: إن كل هؤلاء الصغار يتبولون في المسبح».

«هذا بالضبط ما أقوله، كل الأطفال يفعلون ذلك بمن فيهم ابنتك».

شعرت بالغضب وقلت: «استمعي إلي، إن ابنتي لا تتبول في المسبح».

أجابت وهي ترفع الصافرة إلى فمها: «إذا كانت ابنتك لا تتبول في المسبح فهي الوحيدة التي لا تفعل ذلك».

وبعدها صفرت بقوة للبدء بالدرس الأول وقالت لي: «ها نحن نبدأ يا سيدي ، حان وقت النزول إلى الماء».

ومع انتهاء الدرس كنت على وشك البكاء، فمع اقتراب كل طفلٍ مني كنت أشعر بعوارض سكتةٍ قلبية، مما دفعني إلى التوجه إلى المنقذة ورجوتها أن تساعدني.

«كيف تتعاملين مع الأمر؟».

«إنني أتعامل معه منذ خمس سنوات».

«هذا ليس جواباً شافياً، كيف يمكنكِ السباحة هنا وأنت تعرفين مسبقاً أنّ جميع الأطفال يتبولون فيه؟».

«سيدي، أؤكد لك أنّ جميع المسابح التي سبحت فيها كان هناك من يتبول فيها، ولهذا السبب يضعون مواد كيماوية في الماء، فهناك الكثير من الكلور في هذا المسبح، بحيث إذا غطست للأسفل وفتحت عينيك فإنهما ستصبحان حمراوين مدة أسبوع».

في هذه اللحظة شعرت أن فرصتي في وضع رأسي تحت الماء هي أقل بكثير من فرصة ابنتي في سباحة الفراشة إلى نهاية المسبح. سألتني المنقذة: «ما اسمك يا سيدي؟».

«مايكل».

«استمع إليّ يا مايكل، لن يحدث لها مكروه في هذه المياه».

وهكذا أصبحت مع مرور الوقت معتاداً على المسبح ولم أعد أنزعج من البول الموجود فيه، وهكذا مضت أسابيع وأشهر وسنوات.

لقد وصلنا قبل بداية الدرس بخمس عشرة دقيقة، وقامت ابنتي بارتداء ملابس السباحة ـ فهي الآن تفعل ذلك وحدها ـ وفعلت أنا مثلها ثم أمسكت بيدها وتوجهنا نحو الصالة، وعندما فتحنا الباب وجدنا المنقذة نفسها التي اعتدنا على وجودها هناك كل يوم أحد طوال هذه السنوات ونادت عليّ: «هيه مايكل، لماذا تلبس ملابس السباحة؟». ثم أتت باتجاهنا وأمسكت بيد ابنتي وقالت: «ألم يعرف والدك السخيف أنك أصبحت الآن في الرابعة من العمر وأنّ عليه تركك هنا ومغادرة المكان حالاً؟».

«لم أعرف ذلك».

«هذا صحيح يا مايكل، سنراك بعد نصف ساعة».

«لا يمكنني حتى مشاهدتها؟».

«إنني أطلب منك المغادرة، فنحن نجد صعوبة أكبر عندما تكون الأمهات والآباء هنا»، وأخذت ابنتي بعيداً.

«لكن...... انتظري».

ثم رأيت ابنتي وهي تقف على حافة المسبح مع اثنين من رفاقها وقد جعلها أحدهما تضحك، وعندما رفعت نظرها ورأتني، لوّحت لي وقالت: «إلى اللقاء يا أبي!».

قالت المنقذة: «هل رأيت ذلك؟ إنها لم تعد بحاجة إليك بعد الآن».

عدت إلى غرفة تبديل الملابس وارتديت ملابسي ببطءٍ شديد، ثم جلست على الأرض إذ لم يكن هناك مكان يمكنني الذهاب إليه.

في الحقيقة، لا أعرف ما الذي يقوم به بقية الناس في صباح الأحد، لكن بالنسبة لي فأنا آخذ ابنتي إلى المسبح.

كان هناك بعض طلاب المرحلة الثانوية الذين اعتدت رؤيتهم هناك، فهم يلعبون كرة السلة كل صباح أحد وجميعهم يستمعون إلى برنامجي، لذلك غالباً ما يتحدثون معي ويلاطفون ابنتي ، وبما أنه لم يكن لدي شيء آخر أفعله، قررت الذهاب لمشاهدتهم وهم يلعبون.

لم أقم بمشاركتهم اللعب بل اكتفيت بالمشاهدة، لقد كانوا يتصافحون بعد كل رمية موفقة ويهتفون لي: كي أتكلم عنهم في برنامجي، كان ذلك مسلياً ثم أخذوا استراحة لشرب الماء وتقدّم أحدهم؛ ليتكلم معي:

«أين ابنتك الصغيرة».

«إنها في درس السباحة».

«ألم تكن دائماً تسبح معها».

«نعم، لكنها لم تعد بحاجة إليّ بعد الآن».

ومن نِعم السماء عليّ أنّ ذلك الفتى شعر بعطشٍ شديد منعه من مواصلة الكلام معي فذهب ليشرب، وهذا هو السبب الوحيد الذي منعه من رؤيتي وأنا أبكي.

لم أستطع فعل شيءٍ سوى الخروج من تلك الصالة، ووجدت الجو في الخارج مشمساً وتمنيت لو كانت نظاراتي الشمسية معي، وبما أنه ليس هناك مكان أذهب إليه جلست على الدرج وحاولت أن أستجمع قواي، فعندما أبكي لا أُظهر ذلك بسهولة، لأن الرجال لا يبكون مثل السيدات ، ربما لأننا نادراً ما نبكي ومشكلتنا هي أننا نقاوم ذلك بشدة، وأنا أعتقد أننا لو سمحنا لدموعنا أن تنهمر، فإنها لن تستغرق وقتاً طويلاً حتى تتوقف، وفي هذه اللحظة سمعت صوتاً يسألني سؤالاً شائعاً: «هيه، ألست أنت الفتى الذي يعمل في الإذاعة؟»، ورفعت بصري لأجد أمامي شابين فأجبتهما: «بالطبع أنا هو، ومن غيره سيجلس على الدرج باكياً؟».

«ما بالك، هل أنت على ما يرام؟».

«إنني بخير». وقال الآخر:

«هل أنت بحاجة إلى شيء».

«إنه مجرّد يومٍ عصيب». ولكنهما لم يغادرا المكان.

«هل تمانع في توقيع اسمك على هذه الكرة؟». إن من سألني هذا السؤال هو الشاب الذي أراد معرفة ما إذا كنت بحاجةٍ إلى شيءٍ ما، علماً بأنه لم ألحظ وجود الكرة في يده، فقلت له:

«بالتأكيد». ثم نظرا إلى بعضهما بارتباك ثم نظرا إليّ نظرةً عرفت من خلالها ما سيقولونه حتى قبل أن يتفوها بها «ليس لديهما قلم».

قال الشاب الأول: «أنا واثق من وجود قلمٍ مع أحد الموجودين في الداخل». فقلت: «لا بأس».

كان الشاب الثاني واقفاً على الباب عندما قال: «هل تمانع في المجيء إلى هنا؟».

وخلال خمس دقائق كنت قد وقّعت على كرة القدم وعلى قميصَي الشابين وغادراني إلى الصالة وهما يحملان الكرة الموقعة، لقد كانت المرة الأولى في حياتي التي أشعر فيها بأنّ الشهرة تزعجني، ولكنني سعيد لأنني كنت لطيفاً معهما، فلو كنت فظاً لأخبرا الجميع بأنني شخص أحمق ولن أستطيع لومهما على ذلك فهما لا يعرفان مدى الإحباط الذي كنت أعانيه هذا الصباح.

لقد حان موعد الذهاب لإحضار ابنتي من المسبح.

قامت ابنتي بغسل جسمها وشعرها وارتداء ملابسها بنفسها ـ فعلت كل ذلك وحدها ـ ثم أخبرتني بأنها جائعة فأمسكت بيدها وذهبنا لتناول الغداء، وفي أثناء تناولنا الطعام أخذت تخبرني عن قصةٍ شاهدتها على التلفاز عن ضفدع يقبّل تفاحة فيتحول إلى أميرة، أظن أنّ الأمور اختلطت عليها قليلاً، لكن المسلي أكثر هو طريقة سردها للقصة، وعندما بدأت تضحك كانت زبدة الفستق قد غطت وجهها وشعرها تماماً، فضحكت أنا أيضاً، من المؤكد أنّ الدكتورة غراي كانت على صواب، فلقد شعرت

بالروعة، وبعدها أخبرتني وهي فرحة بأنها قفزت في المسبح دون مساعدةٍ من أحد فأخبرتها كم أنا فخورٌ بها، لكنني لم أخبرها بأنني عرفت ذلك قبل أن تخبرني به.

حسناً ، إن هذا اليوم أغرب يومٍ في حياتي. (بما في ذلك عطلة الصيف التي قضيتها مسافراً مع فريق الرامونز) .

بعد انتهائي من تقديم برنامجي، فتحت هاتفي الخلوي لأجد الكثير من الرسائل في انتظاري وكان من بينها رسالة من عمتي.

«مايكل، إنني بحاجةٍ للتكلم معك. اتصل بي حالما تستطيع».

أحسست هذه المرة أنها تعني ما تقول، وعندما اتصلت بها قالت: «عزيزي، إنني سعيدةٌ بسماع صوتك، إنني بحاجة ماسة لمعلومات عن الحالة الصحية لبعض اللاعبين».

«إيدا، سأخبركم عن ذلك في حلقة الجمعة، كما أفعل دائماً».

«هذا سيئ، لأنني سأكون في جزيرة بورتوريكو أقضي شهر العسل هناك، وأنا مضطرةٌ لإخبار فيرن كوهين بآخر المستجدات».

«عفواً ، أعيدي عليّ ما قلته للتو».

«تقول فيرن: إن بإمكاني الاتصال بها من بورتوريكو لموافاتها بآخر الأخبار ، لكن هل لديك فكرة عن تكلفة ذلك؟».

«عمتي، أعيدي عليّ الحديث من بدايته، أين ستكونين الجمعة؟».

«ألم تسمعني؟ سأكون في بورتوريكو».

«ولماذا تذهبين إلى هناك؟».

«لأنني كنت للتو في فيغاس والإقامة في جزرها مكلفةٌ قليلاً».

«عمتي ، هل قلت بأنك ذاهبة في شهر عسل؟».

«نعم ياعزيزي، سأغادر صباح الخميس».

«متى ستتزوجين؟».

«كم الساعة الآن؟».

لقد أجابت على السؤال بسؤال آخر.

«هل ستتزوجين اليوم؟».

«نعم يا عزيزي، بعد نصف ساعة تقريباً».

«أين؟».

«هنا في المنزل».

«هل ستتزوجين في شقتك بعد نصف ساعة؟».

«هذا صحيح، الآن أخبرني ماذا سمعت عن معصم توم برادي؟».

«سوف يلعب ، لكن من ستتزوجين؟».

«آلان غليكتسين، وماذا عن كاحل لادينيان توملينسون؟».

«لا أعوّل عليه، ومن آلان غليكتسين هذا؟».

«إنه الرجل الذي أعِده من ثلاث سنوات، هل سيلعب راندي موس؟».

«كلا لقد ترك فريق الفايكنغ، ولماذا لم أعرف أنك تَعِدين شخصاً منذ ثلاث سنوات؟».

«وهل يجب أن تعرف كل شيء؟».

«إيدا، انتظري، سآتي إليك حالاً».

شعرت بخيبة أمل؛ لأنه كان عليّ الذهاب إلى هناك بمفردي، فزوجتي لديها اجتماع وابنتي ذهبت مع مدرستها في رحلةٍ ميدانية وابني غط في نومٍ عميق، كما أنني لا أرغب في تعطيل الجميع عن أعمالهم من أجل زواجٍ لم تتم دعوتهم إليه أصلاً.

عندما دخلت شقتها شعرت بالصدمة، أولاً من كثرة المدعويين وثانياً من أعمارهم، وأظن أنني الوحيد بينهم الذي لم يبلغ الثمانين من العمر. صرخت من الباب وأنا أشق طريقي عبر الزحام: «عمتي إنني هنا». ورأيتها تلوح بيدها لتفرّق الناس، وقالت وهي تبعد من أمامها أشخاصاً لم يسبق لي رؤيتهم: «لقد حضر ابن أخي، ادخل مايكل». ثم قادتني عبر بحرٍ من العجائز إلى أن وصلنا إلى غرفة النوم، حيث وجدنا رجلاً وقوراً يلبس سترةً رياضيةً زرقاء وسروالاً فضفاضاً، لقد بدا مظهره مريحاً، فهو يبدو طبيعياً وعفوياً، وقد بدت عفويته غريبة بعض الشيء. قال وهو يمد يده ليصافحني: «سمعت الكثير عنك، إن عمتك تعني الكثير بالنسبة لي، وأنا محظوظ لأنني تعرّفت عليها». قالت عمتي: «سأذهب لإحضار بعض الفتيات لإلقاء التحية عليكما، وبعدها سنبدأ، إنّ لديّ في الفرن لحم عجل؛ لذا أريد منكم الخروج بعد خمس دقائق».

قال آلان عندما أصبحنا وحدنا: «إنني سعيد بلقائك، وإن عمتك فخورة بك كثيراً؛ لأنك نجمٌ كبير». قلت له وأنا أجهل السبب الذي دفعني لذلك: «إنها مصدر إلهامي، كيف التقيتما مع بعضكما؟».

«إن أختي مارج تلعب الماجونغ مع عمتك كل أسبوع، وقد دعتني للذهاب معهما في إحدى رحلاتهما إلى مدينة أطلنطا ، وعندما رأيت عمتك تُيِّمت بها على الفور».

«إنها تحفة نادرة».

«إنها مصدر السعادة، إنها تُشعرني بأنني شاب».

ثم سمعت ضجيجاً خلفي بدا لي كصوت الكلاب، لقد كان صادراً عن إيدا وأربع سيدات طاعنات في السن. قالت عمتي: «هاهو ابن أخي».

«أنت الفتى الذي يعمل في الإذاعة؟».

«نعم».

«إن برنامجك سيئ، إنه مجرد سخافات».

«الكثير من الناس يشعرون مثل شعورك».

«إنني متأكدة من ذلك». ثم خرجوا بسرعة من الغرفة وقالت عمتي:

«سوف أرسل لكم هاري وبعدها سنبدأ».

وهكذا بقينا وحدنا فسألته: «ومن يكون هاري هذا؟».

«إنه ابني».

دعني أسألك:«هل المرأة التي قالت بأن برنامجي سيئ هي فيرن كوهين؟».

«كلا، إنها أختي».

جلست بجواره على السرير وقلت له: «دعني أسألك سؤالاً آخر». واقتربت منه أكثر وقلت: «لماذا تتزوجان أنتما الاثنان؟».

«ولماذا يتزوج الناس؟».

فقلت: «أقصد في مثل هذا السن».

«لأنه أصغر سنٍ يمكن أن نكون فيه».

وعندما كنت على وشك أن أحبه؛ لأنه سيكون الشخص الأكثر عفوية في عائلتي، تكلم قائلاً: «هل يمكنك أن تسدي لي خدمة؟».

«بالطبع».

عندها أخرج من جيبه كيساً وقال: «إنّ التهاب المفاصل جعلني أشعر بصعوبةٍ في فتح مثل هذه الأشياء وأنا أحبها كثيراً، هل يمكنك فتحه لي».

كان الكيس مليئاً بالفستق الحلبي، قلت له:«يسعدني ذلك». وفتحت له الكيس وتناولت بعضاً منها، لقد كانت مالحةً، وقلت له:«إنني سعيدٌ بوجودي هنا كي أقوم بذلك». وهنا فُتح باب الغرفة ودخل رجلٌ في مثل سني وهو يصرخ: «ليس مسموحاً لك بأكل الفستق!». ثم أدخل يده في فم الرجل العجوز، تماماً كما فعلت زوجتي عندما كاد ابني أن يبتلع كرةً زجاجية صغيرة، وبعدها التفت إليّ وصرخ في وجهي: «إنه ممنوعٌ من أكل

الفستق الحلبي ! هل تحاول قتله!؟». فالتفتّ إلى آلان وقلت: «لا أصدّق أنك فعلت بي ذلك». فأجابني باستهجانٍ وبما معناه أن الأمر عندما يتعلّق بالفستق الحلبي فلا وجود إلا لعبارة: (اللهم إني أسألك نفسي). ثم مددت يدي للرجل الشاب وقلت: «اسمي مايكل، وأنا ابن أخ إيدا، آسف إذا ما كنت ارتكبت خطأً ما».

«وأنا ابن آلان، ما الذي عرضه عليك مقابل ذلك؟ هل عرض عليك مالاً؟».

«لم يقدم لي شيئاً، بل طلب مني ذلك بكل لطافة».

وهنا قال آلان: «عندما أرغب في أكل الفستق فلن يمنعني أحدٌ من ذلك».

فقلت له: «أنت ممنوعٌ من أكل الفستق». ثم غادرت الغرفة دون التفوه بأي كلمة أخرى وذهبت إلى الصالة للبحث عن عمتي، وابتسمت عندما رأتني وقالت: «هل قام بخداعك؟».

«أظنّ ذلك».

«إنه شخصٌ ذكي».

«لماذا لا يستطيع أكل الفستق الحلبي؟».

«مايكل، عندما ستصبح في مثل سنه لن تستطيع أكل أي شيء، ولهذا عليك الآن أكل كل ما ترغب فيه».

«سوف أفعل ذلك».

«ابقَ معنا بعد انتهاء الزفاف، سنأكل اللحم».

«لن يموت بسبب حبات الفستق التي أكلها، أليس كذلك؟».

«إن الجميع سيموتون بسبب شيءٍ ما ، وبالنسبة له ربما سيعيش عشر سنواتٍ أُخريات ، قد تزيد أو تنقص قليلاً».

«سأتبنّى احتمال الزيادة». وبعدها شاهدت عمتي وهي تتزوج آلان غلكتسين ، ثم غادر الجميع ولم يبقَ سوانا، فجلسنا لتناول اللحم الذي كان طرياً جداً لدرجة كان باستطاعتنا أكله بالملاعق لو أردنا ذلك. إنني أقول دائماً: إن هذه اللحظات لا بدّ أن تُحدث في تغيراً، لكن ذلك لا يحصل معي أبداً، ولهذا السبب لن أدّعي أنني عندما أستيقظ صباح الغد فسوف أجد كل شيء مختلفاً، لكنني واثق من شيء واحد، وهو أنني سأشتري بعض الفستق الحلبي، فطعمه لذيذٌ حقاً.

ذهبت هذا الصباح لرؤية الدكتورة غراي ولا أعرف ما إذا كنت سأعود إلى هنالك مرة ثانية.

لقد طلبت الدكتورة غراي في آخر زيارة قمت بها إلى عيادتها ـ أن أُحضر لها دفتر مذكراتي لتقرأ بعضاً منها، فذلك ـ على حد قولها - سيساعدها على تكوين صورة أكثر وضوحاً عن مشاعري، وقد ألمحتُ إلى أنني لم أكن صادقاً معها في جلساتنا، الأمر الذي لا يجعلني أشعر بالاستياء فحسب بل إنني أرفضه تماماً، فقد كنت دائماً صادقاً معها، ربّما لم أكن متعاوناً جدّاً، لكنني كنت صادقاً دوماً.

على كل حال، أرسلت دفتر مذكراتي إليها وعندما ذهبت اليوم إلى عيادتها رأيت انطباعاً غريباً على وجهها وقالت: «مايكل، لقد قرأت مذكراتك، وبصراحة أنا مصدومة جداً».

لا أعرف ما إذا كان لديك خبرة في ذلك، لكن هذا آخر شيء يمكن أن تتوقعه من شخص قرأ مذكّراتك للتو.

«ماذا تقصدين؟»

«إنَّ كل ما كتبته مزّيف ومختلف، إنني بالكاد أجد شيئاً من شخصيتك فيه».

«ومتى قلت ذلك؟».

«في الإذاعة».

«مايكل، يبدو أنك لم تفهمني، إنَّ وجودك هنا يختلف تماماً عن وجودك في الإذاعة، كما إنني لست جزءاً من جمهورك، فهذا المكان ليس ملائماً لاختبار معلوماتك».

«أنا آسف».

«إنَّ هذا المكان هو للصدق وفحص المشاعر، وإن لم تكن صادقاً مع نفسك، فكيف تتوقع أن تشعر بتحسن؟».

ربما يكون ما قالته صحيحاً.

قلت لها: «أيتها الطبيبة، إنَّ ما كتبته ليس مزيفاً، إنه صحيح تماماً، فعندما تقومين بتقديم برنامج حواري يصبح كل شيء صحيحاً، وكل ما فعلته هو أنني بالغت قليلاً في الأجزاء المسليّة والمثيرة وتجاهلت الأمور غير المهمة، لكنني بشكل عام أعد كل ما كتبته هو أقرب إلى الصحة».

عندها نظرت إليّ الدكتورة غراي نظرة قاسية وقالت: «لماذا تستمر في المجيء إلى هنا؟».

«ماذا؟».

«من الواضح أنك تعتقد أنَّ هذه الجلسات غير مجدية، ومن الواضح أيضاً أنك تظن أنها غير قادرة على مساعدتك، ألا تعتقد أنَّ هناك أشياء أفضل يمكن أن نشغل وقتنا بها أكثر من اختبار معلوماتك في هذه العيادة؟».

حاولت أن أردّ عليها لكن صوتي بقي عالقاً في حنجرتي، لقد أردت أن أقول لها: «إنَّ كل شيء يبدو أسهل بكثير في الإذاعة». لكنني لم أفعل ذلك حتى إنني لم أنطق بكلمة.

ثم أضافت: «أريد منك أن تفكر في سبب مجيئك إلى هنا، ومن ثمّ أريد منك التفكير فيما إذا كان عليك مواصلة ذلك».

خرجت من العيادة مكفهّراً، والآن أقوم بما طلبته مني الدكتورة، فأنا أفكر في الأمر، لماذا أذهب لرؤيتها؟ هل لأنها تستمع إلي؟ هل لأنني بحاجة إلى شخص ما يستمع إلي عندما لا أكون في الإذاعة؟ كلّا إن سبب استمراري في الذهاب إليها هو معرفتي أنَّ اللوم لا يقع عليها بل عليّ أنا، فهي تقوم بواجبها لكنني أنا الذي لا أستجيب، فقد كانت دائماً تقول لي: إنَّ الأمر يتعلق بالرياضة والأولاد، وربّما تكون على صواب.

لكن ما هو ذلك الشيء الذي يتعلق بالرياضة والأولاد ويجعلني أعيش في قلق مستمر؟

ربمّا لأنني أشعر في بعض الأحيان بخيبة أمل كبيرة من عالم الرياضة الذي يجعلني أتساءل: من أنا؟

لقد لعبت الرياضة دوراً مهماً في حياتي، فهي تشعرني بالأمان والطمأنينة، فعندما كنت أشعر بالقلق والحزن، كانت الرياضة قادرة دوماً على تهدئتي. (انتقدتني سيدة ذات مرة بشدة على الهاتف، مما جعلني أشعر بالحزن والأسى، فأخذت مجلة رياضية كانت بقربي وبدأت قراءتها، فأنا أعرف بطريقة أو بأخرى أنَّ قراءة أخبار جو مونتانا هو كل ما أحتاج إليه: كي أشعر أنَّ كل شيء على ما يرام).

لقد تمكنت طوال حياتي من الاعتماد على هذا النوع من المواساة، ولا أعرف ماذا كنت سأفعل من دونها، لكنني بدأت أشعر في الآونة الأخيرة أن ذلك لم يعد مجدياً، فأنا الآن أفتقد تلك الألعاب الرياضية التي أحبها، وأنا بالكاد أستطيع الإحساس بها وسط ضباب الاعتقالات بسبب تعاطي المخدرات وفضائح المهدئات والتوقف عن بذل الجهد.

وإذا ما أصبحت الرياضة أقل أهمية، فماذا سيحّل بي؟

إنَّ ذلك يشعرني بالنقص، ويوضح لي أنَّ أولادي لن يفهموا الرياضة كما أفهمها ومن ثم لن يكونوا قادرين على فهمي، إنني أشعر بحاجة ماسة إلى إنقاذ الرياضة وذلك من أجل أولادي، كي يتمكنوا من فهم روعة الرياضة ومن ثم سيفهمون أباهم. هل يمكن أن يكون الأمر بسيطاً إلى هذه الدرجة؟ في الحقيقة، إنني لست واثقاً من ذلك، ولكنني لن أتخلى عن محاولة اكتشافه. وسأقوم الآن بترك رسالة إلى الدكتورة غراي أخبرها فيها أنني أنوي الذهاب إلى عيادتها في الأسبوع المقبل وفي الموعد المعتاد.

حدث لي في عطلة نهاية هذا الأسبوع أمران مفاجئان.

لقد حدث الأمر الأول يوم السبت، وفي الحقيقة إنني مضطرب قليلاً، كما تعلمت الكثير من هذه المأساة. لقد ماتت شيلا ابنة عم زوجتي في حادث سير مؤسف، هل تتذكرها؟ تلك التي طلبت من زوجتي ارتداء حذاء أخضر والتي لم أرغب في حضور حفل زفافها الثاني؛ لأنني أردت الذهاب لحضور مباراة كرة القدم.

جرت مراسم الدفن يوم السبت، وكان من الصعب تصديق ذلك، فقد شعرت بحالة من الاستياء والحزن لم أشعر بها سابقاً في جنازة أخرى، ربّما لأنَّ الضحية هي الأصغر سنّاً من بين المتوفيّن الذين حضرت جنازاتهم، فأنا معتاد على حضور جنازات لأناس كبار في السن، كما أنني معتاد على أن تتم تحيّتي من قبل أهل الفقيد بإيماءة معرفة ومصافحة هادئة، لقد اعتدت على تأبينٍ يمجّد الحياة الجيدة للفقيد أو على الأقل يمجّد الحياة الطويلة التي عاشها، كما أنني معتاد على تقديم التعازي ومدح الفقيد ومشاركة أهله في ضحكة حزينة على ذكرى عالقة في الذهن.

لكن لم يحصل شيء من ذلك في هذه الجنازة.

لقد كانت الوجوه في حالة من الذهول وخالية من المشاعر، إنه نوع من الألم الذي لا عزاء أو تفسير له، إنه غضب أكثر من كونه حزناً، وألّم أكثر من كونه دموعاً، إنها أول جنازة أحضرها ويكون فيها القليل من الأجوبة لكثير من الأسئلة.

عندما انتهت الصلاة وكزتني زوجتي بمرفقها بكل لطف وهي تشير إلى عائلة الفقيدة وتتوسل إليّ بعينيها، لقد وقفنا في صف المعزّين ولم يفصلنا عن مواجهة العائلة سوى لحظات، فأومأت إليّ زوجتي بهدوء وكأنها تقول لي: «فكرّ في شيء ما تقوله لهم».

خلال انتظارنا لدورنا كنت أفكر في الكلمة التي ألقاها القس في تأبين الفقيدة حيث قال: «إنَّ حياة المرء لا تقاس بطولها بل بجودتها»، ولم يقدم أي تفسير لحالة الذهول التي يعيشها الجميع، واكتفى بالقول: «أحياناً توجد بعض الأسئلة التي لا أجوبة لها، والاختبار الحقيقي لإيماننا هو الاعتقاد بوجود جواب على الرغم من أننا قد لا نتمكن أبداً من معرفته».

وعندما حان دورنا مددت يدي باتجاه والد شيلا، ولكنه دفعها بعيداً وسحبني نحوه، ثمّ عانقني بحرارة، إنّه رجل لا أعرفه جيداً، لكنني لن أنسى اليوم الذي قضيناه معاً في مباراة كرة القدم، يوم زفاف ابنته المتوفاة، كنت أريد إخباره كم أتذكر ذلك اليوم وكم أشعر بالسعادة عندما أتذكره بعد كل هذه المدة الطويلة، لقد أردته أن يعرف كم ساعدني في ذلك اليوم وكم تعلمت منه وكم كانت تلك المباراة غير المهمة تعني لي!

لقد استمّر في معانقتي لوقت طويل سمعت خلاله صوت تنفسّه وأحسست بخشونة سترته الصوفية وفاحت منه روائح معجون الحلاقة والسجائر، إنّه رجل ضخم جداً وقد غمرني تماماً عندما عانقني، وبعدها تركني فرجعت إلى الوراء وفتحت فمي، لكن لم أتمكن من قول أي شيء، وكل ما استطعت فعله هو أنني وقفت وأنا أهزّ برأسي وأحدّق بربطة عنقه وياقته وبقعة الشعر الصغيرة التي فاتته حلاقتها تحت ذقنه محاولاً التحقق من صوت سمعته.

«في العام المقبل، سيلعب فريق النسور حتى النهاية».

في البداية لم أكن واثقاً من الذي قال تلك الكلمات، فقد كان صوتاً غريباً وبارداً، إنه هو بالطبع، فنظرت إلى عينيه وتمنيت فوراً لو أنني لم أفعل ذلك، فقد بدت عيونه غريبة عن عيون أي رجل آخر. لقد بدت كعيون سمكة قرش وهي ستتحول إلى عيون سوداء في أي لحظة، وكانت تتوسل إليّ أن أخبره أنَّ هذه المأساة ليست حقيقية، وأن أقول له: إنه سيستيقظ في يومٍ من الأيام من هذا الكابوس. لقد أرادني أن أخبره بأن حياته لن تكون على هذه الشاكلة من الآن فصاعداً، لقد نظر إليّ وكأنني الشخص الوحيد في تلك الغرفة الذي باستطاعته أن يقول له ذلك وربما كنت فعلاً الوحيد القادر على ذلك.

«إنَّ دفاعكم لا يروق لي».

لقد بدا صوتي عميقاً وقويّاً في أذني كما يبدو في الإذاعة.

«في حال تحسن أداء ظهيرنا، فإننا لن نحتاج إلى دفاع قوي».

كانت حواجبه تتحرك، وهو يتكلمّ وكان وجهه ما يزال شاحباً، لكن كان هناك حياة في تعابيره.

فقلت له: «يمكنكم الاعتماد على صانع ألعاب جديد».

«إنَّ ذلك ينطبق على معظم الفرق».

«أعرف ذلك، لكن دون وجود دفاع قوي سوف تكونون عرضة للسقوط أكثر من غيركم».

كان ورائي صف طويل من الناس أكثر مما يمكنني تصوره، وجميعهم ينتظرون دورهم لتقديم التعازي، لكن كان عليهم الانتظار، فأمامهم متسع من الوقت للقيام بذلك، إن حياته من الآن فصاعداً ستكون كلّها على هذا النحو، لكننا الآن رجلان يتحدثان في أمور رياضية.

سألني وكله أمل: «ماذا عن فريق سيكسيرز؟».

«أظنها ستكون سنة طويلة».

وبعد عشر دقائق وضع ذراعيه حولي وعانقني مرة ثانية لكن بحرارة أكبر هذه المرة، وذلك يعني أنني أعطيته القوة لمواجهة كل هؤلاء الموجودين خلفي كما أنه يعني «شكراً لأنك جعلتني أشعر ولو للحظة أنني في حالة سوية في أسوأ يوم في حياتي».

فقلت له: «سأشجّع فريقكم».

ثم وقفت جانبياً وشاهدته وهو يتلقى التعازي من الزوجين الموجودين ورائي وعندما اقتربا منه، عاد البرود إلى وجهه مرة ثانية، ثم همست المرأة شيئاً في أذنه، ولاحظت أنَّ عينيه لم تعودا سوداوين أبداً بل ما تزالان حمراوين من قلّة النوم، ومتورمتين من البكاء، والبؤبؤ فيهما متوسعاً من المهدئ الذي كان يسري في عروقه والذي أعطي له كي يمنعه من إيذاء نفسه، وبعدها تقدمتُ لمعانقة زوجته، لقد عرفت أنني لن أقدر على مواساتها بالطريقة نفسها التي قمت بها مع زوجها، لكن لا بأس فالعناق أحياناً هو مجرّد عناق.

ذلك هو الأمر الأول الذي حصل معي.

أمّا الأمر الثاني فقد حصل معي هذا الصباح، صباح الأحد بعد مراسم الدفن التي جرت البارحة، لقد حصل ذلك بعد صباح طويل مضنٍ لا يعرفه إلاّ آباء لديهم أبناء صغار.

إنه واحد من صباحات الأحد التي تدخل فيها ابنتك إلى غرفة نومك في الصباح الباكر؛ لأنها خائفة من الأطياف الموجودة على خزانتها، وبعدها بعشر دقائق تجدها نائمة بهناء إلى جانب زوجتك وأنت تحاول النوم جاهداً، إنه أحد صباحات الأحد التي تأخذ فيها أولادك إلى المطعم لتناول الإفطار لأنك (ساديٌّ) تحب العذاب حيث يقوم ابنك بصب العصير فوق رأسه وتبدأ ابنتك بالبكاء؛ لأننا لم نتناول لحم الدجاج على الإفطار ثم يقوم كلاهما بطرق الأشواك والملاعق على سطح الطاولة، إنَّ ذلك وفي أفضل أحواله يُعدُّ عذاباً حقيقياً لكنه اليوم تحديداً شيء منفّرٌ جداً؛ لأنك شربت الكثير بعد الجنازة ولأنَّ الألم الذي تشعر به خلف عيونك ينتشر كالحمم البركانية.

إنّه أحد صباحات الأحد الذي تأخذ فيه أبناءك إلى ملعب الأطفال بعد الخروج من المطعم وتبدأ بملاحقتهم وهم يتسلقون القضبان الحديدية ويلعبون بالرمل ويتسلقون الحائط الصخري ويتزحلقون من أعلى المزلاج ثم يبكي أحدهم؛ لأنه جرح ركبته والأخرى ممتعضة؛ لأنَّ آليكسا مسموح لها بمضغ العلكة، إنّه واحد من صباحات الأحد عندما تسأل فيه أبناءك ما الذي يرغبون في تناوله على الغداء، فتقول ابنتك: إنها تريد دجاجاً في حين يقول ابنك: إنه يريد تناول البيتزا، وأنت تعلم أنك لن تستطيع تلبية ذلك؛ لأنَّ زوجتك ستغضب منك إذا تناولوا تلك الأطعمة غير المفيدة، إنه

أحد صباحات الأحد التي تأخذ فيه ابنتك إلى حفلة عيد ميلاد، وهذا يعني عشرين دقيقة من الجدال حول ما سترتديه («لا يمكنك ارتداء جوارب زهرية شفافة مع فستان أخضر. لا يمكنك أصلاً ارتداء جوارب شفافة، فالجو بارد جداً في الخارج وعليكِ أن تلبسي بنطالاً»).

إنه واحد من صباحات الأحد التي لا تحصل إلاّ مع الآباء، وكل ما أردت القيام به هو مشاهدة مباراة الغولف على التلفاز. إنَّ الشيء الوحيد الذي واساني في أثناء وجودي في المطعم والملعب والحفلة هو أنني سأكون سريعاً في المنزل، حيث يمكنني مشاهدة نهاية المبارة على الأقل.

وأخيراً بعد أن تناول الجميع الديك الرومي مع الجبن لعب الولدان لنصف ساعة في غرفة الجلوس، ثم ذهب كلاهما للنوم في الطابق العلوي، وبعدها أثلجت زوجتي صدري عندما قالت:

«هل تعلم أنَّ لورديس في إجازة هذا الأسبوع، ونحن بحاجة للذهاب إلى السوبر ماركت».

لا أريد الذهاب إلى السوبر ماركت، ولا سيّما اليوم.ثم حصلت المعجزة.

«إنك تبدو متعباً، سأذهب بدلاً عنك».

لم أصدق ما سمعت (ومازلت لا أصدق ذلك حتى الآن) فراقبتها بذهول، وهي تأخذ مفاتيح السيارة وتغادر المنزل. لقد عمّ الهدوء في المنزل واستطعت سماع صوت خطواتي على الأرض الخشبية، كما استطعت سماع صوت منبه سيارةٍ من بعيد، لقد استطعت سماع كل شيء، كما أنني لم أستطع سماع أي شيء في ذات الوقت.

لقد نعمت بالهدوء للحظة وبعدها خلعت حذائي وقفزت على الأريكة ثم سمعت الكلمات الآتية على التلفاز والتي جعلتني أشعر بخيبة أمل كبيرة، «إذا تمكن إرني إيلس Ernie Els من النجاح في هذه الضربة، فسوف يفوز في البطولة».

أوه كلا!

لقد فاتني مشاهدة المباراة بكاملها، كان إيلس يستعدّ للقيام بضربة لا تبعد أكثر من ستة أقدام عن الحفرة، إنه يستطيع فعل ذلك وهو معصوب العينين، لا بدّ أنَّ هذه هي نهاية المباراة.

وبعدها حصلت معجزة ثانية:

«لم تصل الكرة إلى الحفرة! وهذا يعني التعادل وأننا سنشهد مباراة إضافية لكسر التعادل!»

مباراة إضافية! إنَّ إرني إيلس وشخصاً آخر (لم أكن مهتماً حتى بمعرفة اسمه) سيلعبان مباراة إضافية من أجلي فقط. سأشاهد مباراة إضافية وأبنائي نائمون وزوجتي في السوبر ماركت، مباراة إضافية أتجاهل فيها صوت الهاتف وجرس الباب وصوت جزازة عشب الجيران، مباراة إضافية وأنا جالس وأضع قدمي على مسند القدمين وبيدي شراب الزنجبيل.

لقد شعرت أنَّ أفضل شيء يمكنني القيام به في تلك اللحظة هو مشاهدة تلك المباراة. لقد أردتها أن تستمر للأبد.

عندما كنت طفلاً صغيراً، سألني أحدهم: ماذا أريد أن أصبح عندما أكبر؟ أظن أنني أجبته أنه لو كان باستطاعتي متابعة الرياضة للأبد فسيكون ذلك متعة حقيقية؛ لأنه لا يبدو كالعمل على الإطلاق. لقد أدركت

الآن وأنا جالس على الأريكة أنَّ ذلك الولد الصغير كان على حق، فمن الممتع أن تكون حيث تكون الرياضة فهي لا تبدو كالعمل، ولا سيّما عندما تكون في الوقت المناسب. إنني أظن أنَّ توم سوير أدرك ذلك منذ البداية.

الفصل الأخير

بعد السوبر ماركت

شباط 2005

لقد استيقظت هذا الصباح لأجد اليوم مشمساً ورائعاً ـ إنّه أول أيام الفصل، وبالنسبة لي، إنّه أفضل أيام السنة: عندما تستيقظ لتجد أنّ الصيف قد أتى، إنه يوم جميل وليس هناك من مكان أفضل من الشاطئ لقضاء مثل هذا اليوم فيه «ياله من صباح جميل!»، قلت لزوجتي التي استيقظت للتو: «ياله من يوم جميل!».

أجابتني بملل: «إذا كنت تقصد أنك تشعر بإحساس جميل، فسوف تنام هذه الليلة في غرفة الضيوف».

فقلت لها: «دعينا نأخذ الأولاد إلى الشاطئ».

عليّ الذهاب إلى التسّوق اليوم، فالأولاد ليس لديهم ملابس صيفية».

في كل مرة يحتاج فيها الأولاد إلى الملابس ينتهي الأمر بشراء ملابس لها، لكنني اليوم لم أكن مهتمّاً لذلك، فلتذهب هي للتسوق وأنا سآخذ الأولاد إلى الشاطئ.

قالت: «لا تنسَ أن تأخذ لهم قبعاتهم، لا تنسَ القبعات».

لقد قرأت زوجتي الكثير من المقالات عن سرطان الجلد، في الحقيقة إني قرأت الكثير من المقالات عن كل شيء، ولهذا السبب لا أغادر المنزل دون واقي شمس ومضاد للبعوض وصابون جاف ومنتجات غذائية غير منتهية الصلاحية وماء للشرب يكفي ليومين، والأهم من ذلك كله القبعات.

قلت لها وأنا ذاهبٌ لإيقاظ الأولاد: «لن أنساها».

«لا تنسَ القبعات».

خلال ساعة كنت أنطلق إلى الشاطئ بعد أن ألبست الأطفال وأطعمتهم. لم يخطر في بالي أنني نسيت القبعات إلاّ بعد أن ركنت السيّارة وأفرغتها من المظلّة والأغطية والرفش والدلو والفواشات وملابس السباحة والمنظار وأداة التنفس والزعانف.

شعرت فجأة أنَّ نسمات الهواء في ذلك اليوم الجميل أصبحت نذير شؤم، كما أنني ما عدتُ أشعر بجمال أشعة الشمس على بشرتي، بل شعرت بها وكأنها تنهش لحمي لكنني لم أقلق، فقد كان هناك على الشاطئ متجر صغير، ومن المؤكّد أنهم يبيعون فيه القبعات.

إنني واثق من أنهم يبيعون قبعات في ذلك المتجر عندما يكون مفتوحاً، لكنه اليوم مغلقٌ، فقد أتى الصيف هذه المرة مباشرة قبل يوم الذكرى (وهي عطلة رسمية في الإثنين الأخير من أيار ويُحتفل فيه في معظم الولايات المتحدة بذكرى الجنود الذين سقطوا صرعى في ساحة القتال) لذلك كانت جميع المحلات مغلقة وكذلك مطعم الوجبات الخفيفة، ولم يكن هناك أي مظهر للحياة في أي مكان.

على الرغم من ذلك كلّه، لم أشعر بالقلق، فكل ما أنا بحاجة إليه هو دهن رؤوسهم الصغيرة بواقي الشمس فذلك ربما يقيهم من أشعة الشمس حتى من دون قبعات.

وبعدها سمعت صوت ابنتي، وهي تقول: «ستيفاني!».

ليس من الغريب أن تلتقي ابنتي الصغيرة ذات الخمس سنوات بأحد تعرفه على الشاطئ، فقد كانت هناك طفلة صغيرة اسمها ستيفاني تمشي نحونا وهي تمسك بيد أخيها إيثان وأمها الثرثارة كارول، إنهم يعيشون في حيّنا، وكارول هذه تعرف كل شاردة وواردة، وإذا لم أتصرف على الفور، فإنها من دون شك ستتصل بزوجتي حتى قبل أن تصل المنزل ويدور الحوار الآتي: «مرحباً، كارول، كيف حالك؟».

«بخير، لقد رأيت مايكل والأولاد على الشاطئ».

«هل كانوا يضعون قبعاتهم على رؤوسهم؟».

«كلا، ولهذا السبب أنا أتصل بك».

ولأجل المصادفة وضع الأولاد مناشفهم قرب مناشفنا وذهبوا جميعهم للعب.

سألتني كارول: «إذاً، كيف تسير الأمور في عالم الرياضة هذه الأيام؟».

فقلت لها: «سأذهب إلى السيارة لإحضار القبعات لأبنائي».

كانت هناك فرصة حقيقية في إيجاد قبعتين في السيارة. (بصراحة، هناك فرصة لإيجاد كل شيء حتى جيمي هوفا في سيارة يركبها أبنائي كل يوم). لقد استطعت رؤية الحقيقة على وجه كارول، إنني واثق من أنها تظن أنني لم أحضر قبعات لأبنائي، وهي في تلك الحالة لن تخبر زوجتي فقط بل سينتشر الخبر في كل أرجاء البلدة مع هبوط الليل، فهي تنقل الأخبار بشكل أسرع من الإنترنت.

وعندما بدأت أفتش في السيارة عثرت في طريقي على شوكة، لقد كنت في مأزق حقيقي وبدا الأمر مصيرياً بالنسبة لي، فأنا واثق من وجود قبعتين زهريتين في السيارة وعليهما صورة باربي.

إنني أتذكر من أين حصلنا عليها: لقد كنّا في حفلة عيد ميلاد صديقة ابنتي وتمّ توزيع تلك القبعات على المدعوين على أنها هدايا تذكارية، وكنّا آخر المغادرين، فطلبت مني والدة الفتاة أن أخذ قبعة أخرى وقالت: «لا تعرف متى يمكن أن تحتاج إليها».

وهكذا كان أمامي خياران لا ثالث لهما: إمّا أن أعيد الأغراض إلى السيارة ونعود أدراجنا إلى المنزل، أو أضع تلك القبعة على رأس ابني.

ماذا كنت ستفعل لو كنت مكاني؟ إنني أسأل ذلك السؤال الآن؛ لأنَّ الوقت كان يمرّ دون أن أستمتع به على الشاطئ، ومع مرور كل ثانية كانت فروة رأس أولادي عرضة لأشعة الشمس فوق البنفسجية المؤذية والضارة، ناهيك عن ساعة التوقيت التي ربما تكون كارول الثرثارة قد ضبطتها الآن وفي حال تأخرت أكثر من ثلاث دقائق، فإنها من دون شك ستكون قد أخبرت زوجتي على الهاتف قبل أن أعود إليها.

«مرحباً، كارول، كيف حالك؟».

«بخير، ظننت فقط أنك تودين معرفة أنَّ أولادك على الشاطئ دون قبعات منذ نحو الأربع دقائق».

وأخيراً تصرفت، خرجت من السيارة ووضعت تلك القبعة على رأس ابني الصغير، وفي الحال شعرت أنني بخير، وبدت الشمس رائعة مرة ثانية، وشعرت أنَّ أشعتها تداعب بشرتي بلطف، وعلاوة على ذلك، كان هذا أول أيام الصيف، فقد بدت رائحة الهواء شهية، واستطعت تذوق الملح في تلك النسمات العليلة. وأخيراً حظيت بيوم مثالي.

«هيه، ألست غريني؟». أو كلاّ.

لقد أتى الصوت الأجشّ من ورائي، إنه صوت أحد المشجعين الرياضيين الذي كان قد شرب الكثير من العصائر ودخن الكثير من السجائر، فالتفت خلفي لأجده طويلاً وبديناً، وربما كان رياضياً ذات يوم، لكن السنوات التي قضاها بالإفراط في الأكل ربما تكون قد أجهزت عليه تماماً. لقد كان يرتدي بلوزة من دون أكمام، وظهرت رسوم عديدة على ذراعيه ومن بينها وشم يظهر صبياً يطلق النار على حصان.

قال وهو يمسح يديه بسرواله القصير ويمد إحداهما لمصافحتي: «هيه، إني سعيد بلقائك ومعجب جداً ببرنامجك».

قلت له: «شكراً، هذا لطف منك».

«هل هذه هي عائلتك التي تتكلم عنها كثيراً؟ هل هؤلاء أولادك؟» فأخذت نفساً عميقاً وتنهدت ثم قلت: «نعم تلك هي ابنتي الصغيرة وهي في الخامسة من عمرها، وذلك هو ابني البالغ من العمر ثلاث سنوات تقريباً. رأيت نظرة ارتباك على وجهه، وقال: «هل هو صبي؟».

«أوصتني زوجتي ألا أنسى وضع قبعة على رأسه ولكنني نسيت أن أحضر له قبعته، لذلك فهو يلبس قبعة أخته كي تقيه من أشعة الشمس»، لم يبد أنه اقتنع بذلك الكلام، فأومأ برأسه وقال: «دعني أقدم لك المساعدة».

قال ذلك واختفى من أمامي بسرعة كبيرة.

عندها نظرت كارول إليّ وقالت: «إنَّ معجبيك يتمتعون بذوقٍ رفيع».

وبعدها عاد وهو يحمل في إحدى يديه علبة من الشراب ويحمل في الأخرى قبعة تحمل اسمي: وقال وهو يضعها بجوار ابني على الغطاء:«لقد طلبتها من موقعك على الإنترنت، إلا أن ابنك يبدو في حاجة لها أكثر مني».

وبعدها غادر حتى قبل أن أتمكن من شكره، فالتقطت القبعة عن الأرض وتفحصتها جيداً، لقد كانت نظيفة وكأن أحداً لم يلبسها من قبل، فوضعتها على رأس ابني بعد أن أخذت قبعة باربي الزهرية ووضعتها جانباً، لقد قضينا وقتاً رائعاً، ولعب الأولاد بالرمل والأمواج وعندما انتهينا كان الجميع متعباً ومبتسماً.

وصلنا إلى المنزل لنجد زوجتي في انتظارنا على الباب وهي تحمل قبعة ابني الصغيرة في يدها، لقد فهمت الانطباع الذي ارتسم على وجهها، إنه غضب يعني أنها سعيدة: لأنني ارتكبت مثل هذا الخطأ الذي سيمكنّها من تذكيري به لست سنوات على الأقل. في الواقع، كنت أتمنى لو كان باستطاعتك رؤية وجهها عندما قفز ابني من السيارة وهو يعتمر قبعة على رأسه ويقول:«ماما!» ثم اتجه نحوها راكضاً وهو يفتح ذراعيه، فحملته وعانقته وبعدها رمت القبعة الأخرى بلطف داخل المنزل،ثم حملت ابنتي الصغيرة وهمست في أذنها: «أعطِي أمك قبلة كبيرة». لم تسأل زوجتي عن رحلتنا إلى الشاطئ إلاّ بعد أن استحمّ الولدان وأكلا وناما في سريريهما.

فاكتفيت بالقول: «قضينا وقتاً رائعاً، ثم سألتها: «كيف كان التسوق معك؟».

«لم أجد أشياء كثيرة للأولاد».

«كلا؟».

فأضافت، وهي تبتسم: «فاشتريت بعض الأشياء لنفسي».

جلسنا في الشرفة ننعم بجمال أول مساء صيفي، وكنت أتناول كأساً من الشراب وأنفخ دخان سجائر دنهيل عندما بدأت الشمس تغيب وجعلت الأفق برتقالياً كطرف سيجارتي المتوهج. نظرت إلى زوجتي فوجدتها مسترخية، فقد كانت متكئة على كرسيّها وتحمل كأساً في يدها وعيناها مغمضتان، وكان دخان سيجارتي يمرّ بقربها ثم يتلاشى في سكون ليلة دافئة، لقد بدت زوجتي جميلة أكثر من أي وقت مضى، ويمكنني القول: إنها نسيت أمر القبعات والشجار الذي لم يتم بيننا وأنا أيضاً قد نسيت ذلك، ليس هناك أدنى شك في أنّه أفضل يوم في السنة.

رسالة شكر

قبل أن أبدأ في التعبير عن امتناني لكل الذين ساعدوني في هذا العمل أريد أولاً أن أؤكد لكم أنّ كل الأحداث الواردة فيه أحداثٌ حقيقية باستثناء القليل منها.

أرغب أولاً في التعبير عن شكري العميق لمدير أعمالي جاكس دو سبولبيرتش على صداقته ودعمه وتوجيهه لي.

أود أيضاً أن أشكر جين يانغ التي عرّفتني على جاكس وعلّمتني طريقة الكتابة، كما أوجه شكري إلى كل العاملين في دار النشر: راندوم هاوس وفيلارد، وأخص بالذكر آدام كورن الذي أظهر دعمه وتشجيعه لي منذ البداية. ولا أعرف ما الذي يمكنني قوله في مارك تافاني، فأنا بحاجة إلى كاتب موهوب، كي يستطيع أن يعبرّ بشكلٍ مناسب عن امتناني له، ويكفي القول: إنه ما كان لهذا الكتاب أن يرى النور لولاك يا مارك، شكراً لك.

أتوجه أيضاً بالشكر لكل أصدقائي وزملائي العاملين في محطة آسبين الإذاعية، لا سيما مايك غوليك الذي أدين له بالكثير، مايك إنك من أكثر الآباء اهتماماً بعائلتك وذلك هو الشيء الأهم من جملة الأشياء التي تعلّمتها منك، شكراً جزيلاً لك، كما أشكر جوستين كريغ و ليام تشابمان و كورتيس «جوكوين» كابلان وبوبيكوزي، إنهم فريق وطاقم العمل في برنامجي الإذاعي «مايك و مايك في الصباح»، إنّ كل يومٍ أقضيه برفقتكم هو امتياز لي.

كما أعرب عن شكري للعديد من الأصدقاء الذين ظهروا في هذا الكتاب، مثل: جاكي هاريس هوتشبرغ، وروبرت هوتشبرغ، وجين غرين، وديفيد بورك، وكيم ومايك شابيرو، وليسلي، وهاري ريباك، وكيت نيسر، وستيفن بيرنز، ورونا ستين، وإد كيرمان، وديفيد لويد، وأنجيلو ديفيتا، وديزرين برادي، والدكتورة فكتوريا، وجي بويس، وكلوديا سلوكام، و سكو هام، ولو أوبنهيم، وجورج داساك أروع مشجع رياضي عرفته في حياتي.

لكن علاوةً على ذلك، هذا الكتاب هو عن العائلة، وأنا ممتن لكل العائلات التي ساعدتني، شكراً جزيلاً لإيريك وسكوت وشون ولويس إينغال وشكراً لبياغري وفرانك سيتبونيت، وشكراً لليليان بينتشوف وهاري هيرتشي.

شكراً لأخي وصديقي المقرّب دوغلاس غرينبرغ وزوجته جيل برينيغاه، اللذين خاضا مثل هذه التجربة وأخص بالشكر والديّ هارييت وأرنولد غرينبرغ؛ لأنهما علّماني أن أقدّر الكتابة ولدعمهما اللامحدود لي مدى الحياة.

نبذة عن المؤلف

مايـك غرينبرغ هو مقدّم برنامج «مايـك ومايك في الصباح»، كما إنه مذيـع الأخبـار الرياضية في برنامـج «مركز الرياضـة» وذلك من محطة آسبين الإذاعية.

تخرّج في كلية الصحافة في جامعة نورث ويسترن، وهو يعيش في إحدى ضواحي نيويورك مع زوجته وطفليه، وهذا هو كتابه الأول.

منتدى سور الأزبكية

WWW.BOOKS4ALL.NET

https://twitter.com/SourAlAzbakya

https://www.facebook.com/books4all.net